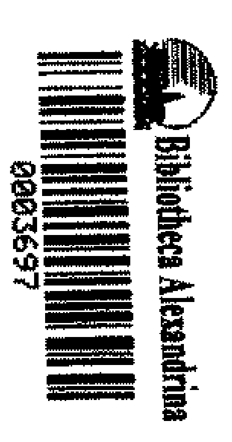
سلسلة
في
تاريخ العرب والإسلام

تاريخ
العلاقات بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى

الدكتور
أحمد الشامي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
القاهرة

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب

سلسلة
في
تاريخ العرب والإسلام

تاريخ
العلاقات بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى

الدكتور
أحمد الشامي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
كلية الآداب - جامعة الزقازيق
كلية التربية - جامعة الملك فيصل

١٠٤٥هـ - ١٩٨٥م

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
القاهرة



إهداء الكتاب

إلى السيدة الفاضلة الكريمة...

إلى الأم البارة الحنونة...

إلى من نشأتني صغيراً على تلاوة القرآن الكريم،

فألبسني الله عزة النفس بغير كبرياء،

وطبعني على التواضع بدون مذلة أو رياء.

إلى أمي الحبيبة،

أعز أم في الوجود؛

ألبسها الله ثوب العافية،

أهدي هذا الكتاب.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحروب ظاهرة اجتماعية من أهم أسبابها فشل فريقين مختلفين في المذهب السياسي أو العقيدي (في دولة واحدة) ومحاولة كل منهما إخضاع الفريق الآخر إلى وجهة نظره وضمه إلى مذهبه السياسي أو العقيدي. وهذه حروب داخلية؛ أو تكون بين دولتين أو مجموعتين من الدول لا تقدر على حل ما بينهما من مشاكل اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو عقائدية بالطريقة السلمية، فتلجأ كل منهما إلى سياسة الحديد والنار، وإشعال نار الحرب باعتبارها الوسيلة الممكنة لإيجاد استقرار منشود فيما بعد، أو استرداد حق مغصوب، أو تحقيق مبدأ جديد، يتفق عليه الجانبان المتحاربان في نهاية الحرب، أو يفرضه الغالب على المغلوب، وهذا ما يحدث في الحروب الخارجية.

وقد نشبت حروب كثيرة خلال العصور التاريخة المتعاقبة ـ وسوف تندلع مثل هذه الحروب في كل العصور ما بقي الإنسان على سطح هذه الأرض ـ وما نحن بصدده في هذا المجال هوالحروب الصليبية التي نشبت بين المسلمين في المشرقُ العربي، وبين المسيحيين (الصليبيين) القادمين من الغرب الأوروبي، فمما لا شك فيه أن دراسة تاريخ الحروب الصليبية هو في الواقع دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ولدراسة هذا الموضوع هناك اتجاهان:

الاتجاه الأول: ويرى أتباعه من المؤرخين أن المدخل المنطقي لدراسة هذه المرحلة من تاريخ العصور الوسطى هو دراسة أحوال الغرب الأوروبي

سياسياً واقتصادياً ودينياً واجتماعياً، لأن هذه العوامل هي التي تحكمت في سير الأحداث، وخاصة فيما يتعلق بالحروب الصليبية نفسها.

أما الاتجاه الثاني فيرى أتباعه من المؤرخين أن الترتيب السليم للأحداث التاريخية ينبغي أن يبدأ بعرض لهذه الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية (الدينية) للمشرق الإسلامي، أو بإلقاء نظرة فاحصة على الخريطة السياسية لهذه المنطقة، التي ستكون ميداناً للصراع، والمسرح الذي يحوي فوق ساحته أحداث الحروب الصليبية. وقد اتبعت هذا الاتجاه في دراستي لهذا الموضوع، مع عدم إغفالي للاتجاه الأول الذي تعرضت إليه أثناء حديثي عن الدوافع والأسباب التي وجهت قوى الغرب المسيحي للقيام بالحملات الصليبية ضد الشرق الإسلامي.

لأن الاتجاه الأول قد يكون مفيداً لدارس التاريخ في أوروبا، باعتبار أنه ينبغي إلقاء نظرة على البيئة التي خرجت منها هذه الحشود الصليبية، ومعرفة الأسباب والعوامل التي دفعتهم إلى هذه الحروب. ومن نفس هذا المنطلق فإني أرى أنه من المفيد جداً لدارس التاريخ في المشرق الإسلامي أن يلقي هذه النظرة الفاحصة على الخريطة السياسية لهذه المنطقة، ويعرف الأسباب والعوامل التي مهدت لهؤلاء الصليبيين، وساعدتهم على المجيء إلى الشرق.

وقد اشتملت هذه الدراسة على تسعة عشر فصلاً، عني كل فصل بجانب أو أكثر من جوانب الموضوع، حيث تعرضت في الفصل الأول إلى أحوال الشرق الأدنى السياسية قبل مجيء جحافل الصليبيين بحملاتهم إليه، فقد ظهرت على مسرح الأحداث التاريخية في هذه المنطقة ثلاث قوى رئيسية متصارعة ومتناحرة هي: الخلافة العباسية السنية في بغداد، والخلافة الفاطمية الشيعية في مصر، وظهور دويلات إسلامية كان لها أثرها المباشر في إضعاف الخلافتين، بالإضافة إلى وجود طائفة الإسماعيلية الباطنية (الحشاشين) التي كانت معول هدم في كيان الخلافتين الإسلاميتين، حيث استخدم الصليبيون هذه الطائفة أسوأ استخدام ضد

القوى الإسلامية بصفة عامة ، ثم الامبراطورية البيزنطية التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ العلاقات بين المسلمين وبينها من جانب، ثم بينها وبين الصليبيين بعد قدومهم إلى المنطقة، نتيجة للأسباب والعوامل التي أحاطت بكل مجموعة من هذه القوى الثلاث.

وفي الفصل الثاني تعرضت الدراسة لظهور الأتراك السلاجقة، والآراء التي قيلت عن أصولهم، والدور الذي قاموا به في تقوية الخلافة العباسية، حتى بدت وكأنها دولة قوية من جديد، خصوصاً بعد القضاء على البويهيين، وقد ترتب على ذلك إعلان السلاجقة لموقفهم العدائي بصراحة ضد الخلافة الفاطمية، مما دفع الخليفة العباسي على تشجيعهم وإقرارهم على ما فتحوه من مدن وبلدان، ثم اعترف بدولتهم السلجوقية تحت راية الخلافة العباسية. والحقيقة أن ظهور الأتراك السلاجقة في تلك الفترة على مسرح الأحداث التاريخية في منطقة الشرق الأدنى كان من حسن حظ العالم الإسلامي، لأنها كانت أسبق في الظهور من القوى الصليبية القادمة من الغرب الأوروبي، مما يجعل الصدام الحربي بين الجانبين أمراً محتماً، كما كان الصدام بينهم (السلاجقة) وبين الامبراطورية البيزنطية قائماً يشهد بذلك ما أنزلوه من هزيمة منكرة بالبيزنطيين عند ملاذكرد (مانزيكرت) سنة ١٠٧١م.

وفي الفصل الثالث كان لا بد من إلقاء الضوء على موقف القوى المسيحية في المشرق، ونعني بها الامبراطورية البيزنطية، التي لم يهدأ أباطرتها من شن هجماتهم على المدن والثغور الإسلامية في المشرق والمغرب، حتى أصبحت العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين قائمة على الحروب والإغارات، وتبادل الانتصارات ووقوع الهزائم بين القوتين، إلى أن تمكن البيزنطيون من استعادة كريت من أيدي المسلمين سنة ٩٦١م بعد أن بقيت في أيدي المسلمين أكثر من قرن وربع من الزمن. ثم أخذ نفوذ بيزنطة يزداد بعدها، كما أنني لم أغفل أحوال الامبراطورية في الداخل، فتعرضت (بإيجاز) إلى النزاعات العقائدية، وثورة نبلاء

الإقطاع والعناصر العسكرية في الأقاليم، بالإضافة إلى ضغط النورمان على ممتلكات الامبراطورية في إيطاليا.

وقد اشتمل **الفصل الرابع** على ظهور دولة الأتابكة، وأسبابها، وأهم الأتابكيات التي كان لها دور بارز في سياسة وتاريخ هذه المنطقة في العصور الوسطى، مثل أتابكية الموصل، وأتابكية دمشق.. وغيرها.

أما **الفصل الخامس** فقد تناولت فيه بشيء من التفصيل أسباب الحروب الصليبية، وآراء جمهور من المؤرخين في هذه الأسباب، ومناقشة هذه الآراء في ضوء الدراسات التاريخية، ثم تعرضت في **الفصل السادس** إلى الحملة الصليبية الأولى - التي كانت مجموعة حملات أو جيوش من الصليبيين - منذ خروجها من أوروبا حتى هلاك الجزء الأكبر منها في أراضي الدولة البيزنطية، وذكرت معظم المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمها أمراء هذه الحملة مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين، وأثر تلك المعاهدات فيما بعد على الحملات الصليبية القادمة من أوروبا.

وقد انفرد **الفصل السابع** ببدء تكوين الإمارات الصليبية، متتبعاً تحركات الجيوش الصليبية، مع وصف المواقع الحربية التي دارت بين الصليبيين والمسلمين، واستيلائهم على بلدان ومدن إسلامية، وإعلان تكوين إمارات الرها، وأنطاكيا، ثم القدس، ثم الصراع الخفي الذي كان بين أمراء الصليبيين عند تكوين هذه الإمارات، وبينهم وبين مندوب البابوية حيث اشتد الخلاف على شكل الحكم في القدس، أيكون ثيوقراطياً أم علمانياً، كما تعرضت للمشاكل الداخلية التي واجهت أمراء الصليبيين في الإمارات التي أقاموها، إلى أن أعلنت الملكية على يد بلدوين الأول، وبذلك استقر شكل الحكم (النظام السياسي) ملكياً ولكنه بانتخاب الأمراء للملك، ثم تحول إلى ملكية وراثية منذ عهد بلدوين الرابع...

كما تضمن **الفصل الثامن** علاقة سلاجقة فارس مع بلدوين الأول ملك

بيت المقدس، ومحاولة حاكم عسقلان شمس الخلافة الانسلاخ من تبعيته للفاطميين في مصر، والدخول في تحالف مع بلدوين الأول، مع التعرض إلى تراخي رضوان بن تتش أمير حلب، وموقفه السلبي من الصليبيين، الذين استمرت إغاراتهم على حلب يسلبون وينهبون، وهو مغمض العينين، حتى ثارت ثائرة المسلمين ضده، وطلبوا من الخليفة العباسي المستظهر أن يحسم ذلك الموضوع، ويدعو للجهاد ضد الصليبيين، وقد زاد غضبَ المسلمين، وزاد من ثورتهم ضد الخليفة العباسي نفسه أن الامبراطور البيزنطي أرسل إليه يحثه على التصدي للصليبيين والإيقاع بهم وطردهم، وعرض مساعدته وتحالفه مع المسلمين ضدهم، فاتهمه الثائرون بالتراخي، ومما قالوه له: «أما تتقي الله تعالى أن يكون مَلك الروم أكثر حمية للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم».

وقد خصصت الفصل التاسع لسياسة بلدوين الأول الداخلية، بعدما تغلب على أتابكة الشام، وسلاجقة فارس، وتمكن من ضم الإمارات والمدن الصليبية إلى نفوذه وسلطانه، وقد تميزت هذه الفترة في حكم مملكة القدس اللاتينية بكثرة المذابح التي ارتكبها الصليبيون ضد المسلمين، وشدة سوء الأحوال الداخلية من الجانب الاقتصادي على وجه الخصوص، والنقص الكبير في القوى البشرية الصليبية مما دعا كثيراً من الصليبيين إلى العودة إلى أوطانهم في أوروبا. ومن مظاهر سوء الحالة الاجتماعية في تلك الفترة ما قام به بلدوين الأول من مؤامرة مع رجال الكنيسة لتطليق زوجته الأرمينية الأميرة Arda وتوجيه تهمة الخيانة الزوجية لها حتى يتمكن رجال الكنيسة من إتمام مراسيم الطلاق. . وتنتهي فترة حكم بلدوين الأول سنة ١١١٨م، ويخلفه في المملكة بلدوين دي بورج، أمير الرها، ويتسمى باسم بلدوين الثاني، ولم يكن وريثاً لبلدوين الأول، ولكنه تغلب على مشكلة تتويجه وجمع الصليبيين حوله بسياسته المتزنة التي مارسها معهم، كذلك تعرضت إلى علاقة الصليبيين بالفاطميين في مصر، والحروب التي نشبت بين الجانبين، واستيلاء الصليبيين على بعض ممتلكات الفاطميين في

الشام (مثل صور)، كما أعطيت لمحة عن بعض حكام مدن الشام وموقفهم المخزي إذ انضموا إلى الصليبيين يساعدونهم ضد إخوانهم المسلمين نتيجة للخصومات السياسية القائمة بينهم.

وفي الفصل العاشر اشتملت الدراسة على تأسيس إمارة طرابلس، حيث بدأ ريموند الصنجيلي بالاستيلاء على طرطوس، واتخذها قاعدة للهجوم ضد طرابلس، ولكنها استعصت عليه، وفشل هجومه عليها أكثر من مرة، وشاء القدر أن يموت ريموند متأثراً بجراحه الخطيرة نتيجة إصابته في هجوم شنه المسلمون في طرابلس ضده، فخلفه في قيادة الصليبيين ابن خالته وليم جوردان، الذي أحكم الحصار على المدينة ثلاث سنوات، وبينما يعد نفسه لدخولها، وإعلان نفسه أميراً عليها، فوجيء بظهور برترام (برتراند) الإبن الأكبر لريموند الصنجيلي، والوريث الشرعي له، وقامت مشاكل بين الرجلين، انتهت بتدخل بلدوين الأول، وكان أهالي طرابلس قد ضاقت بهم السبل، فاضطروا إلى تسليم المدينة إلى برترام بشرط أن يكون بلدوين حاضراً معه، وبذلك أعلنت طرابلس كونتية (إمارة) صليبية سنة ١١٠٩م، فكانت آخر الإمارات في مملكة بيت المقدس اللاتينية.

ثم تنتقل الدراسة في الفصل الحادي عشر إلى عماد الدين زنكي والصليبيين، وبداية مرحلة الجهاد ضدهم، وظهور فكرة تكوين جبهة إسلامية متحدة من الجزيرة (العراق) والشام ومصر لأول مرة على يد عماد الدين زنكي، الذي عمل على ضم الإمارات والمدن والقلاع الكردية المجاورة والقريبة من إمارته تنفيذاً لهذه الفكرة، ولتكون حماية لظهره، فلا تهاجمه وتعرقل هجومه على الشام التي أراد أن يضمها وأن يتخذها مركزاً لجيوشه التي سيجاهد الصليبيين بها. وقد نجح فعلاً في ضم حلب إليه، وربط بينها وبين إمارته بالموصل، وكانت تلك هي الخطوة التي يخافها الصليبيون، ويخشون حدوثها، لأن وجود قوة إسلامية في حلب على صلة وثيقة بمثيلتها في الموصل معناه قطع الصلة بين إمارة الرها وبقية الإمارات الصليبية في الشام، وقد اندفع زنكي من

نجاح إلى نجاح فضم كثيراً من الإمارات والمدن والقلاع والحصون فيما بين سنتي ٥٢٣، ٥٣٤ هـ/١١٢٩، ١١٤٠م حيث تملك مدينة حماة، وحصن الأثارب، وبعلبك وغيرها، وشرع في حصار دمشق، وأدرك الصليبيون ما يهدف إليه عماد الدين زنكي من تكوين جبهة إسلامية موحدة لطردهم من البلاد الإسلامية التي استولوا عليها في غفلة من الزمن، وفي حالة ضعف كانت قد أصابت العالم الإسلامي، فدخلوا مع زنكي في حروب طاحنة دفاعاً عن بقائهم في الشام والجزيرة، ودفاعاً عن حياتهم، وفي سبيل إنجاح مخططاتهم تحالفوا مع أعدائهم البيزنطيين، ولكن لم يلبث هذا التحالف أن فشل وتصدع، ونجح عماد الدين زنكي في استعادة الرها من أيدي الصليبيين، فكانت أول إمارة يستردها المسلمون من أيديهم، كما كانت أول إمارة صليبية تقام، وبذلك يعتبر عماد الدين زنكي المؤسس الحقيقي لفكرة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة التي يتم تكوينها وتظهر إلى الوجود بشكل واضح على يد صلاح الدين الأيوبي.

يحاول الصليبيون تجميع ما انفرط من عقدهم بعد سقوط الرها في أيدي المسلمين، وخشوا أن تنهار الإمارات الصليبية الأخرى، ويضيع ملكهم في القدس، فأسرع ملوك أوروبا وقادتها بتوجيه الحملة الصليبية الثانية بقيادة بعض ملوك أوروبا، وكان هدفهم توجيه ضربة شديدة إلى القوى الإسلامية في الجزيرة والشام، واستعادة الرها من أيديهم، ولكن الحملة منيت بالفشل الذريع للأسباب التي شرحتها في الفصل الثاني عشر.

أما **الفصل الثالث عشر** فقد أفردته لجهاد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ضد الصليبيين، استمراراً لخطة والده، وقد تناول هذا الفصل الحرب الضروس التي دارت بينه وبين جوسلين الثاني الذي حاول استرداد الرها عن طريق مساعدة سكانها وكانت الأغلبية العظمى منهم أرمنيون مسيحيون، ولكن لم يطل بقاء الرها في أيدي جوسلين الثاني، إذ وقع في قبضة أتباع نور الدين محمود، وأرسل إليه أسيراً مقيداً يرصف في الأغلال، ويتوج نور الدين هذا النصر

بالاستيلاء على تل باشر مركز إمارة جوسلين نفسه، وبذلك لم يبق للصليبيين في الجزيرة وجود ، فنقلوا نشاطهم الحربي إلى الشام.

أراد نور الدين محمود استكمال تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة بضم مصر إلى نفوذه، بعد أن تم له الجمع بين العراق والشام، وأصبحت جيوشه تملأ هذين البلدين، وساعدته ظروف مصر السياسية في ذلك الوقت أن يرسل إليها ثلاث حملات، الواحدة بعد الأخرى، بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، الذي لم تلبث الأحداث السياسية أن تجعله وزيراً للخليفة الفاطمي في مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه، كل ذلك تعرضت إليه بالشرح مفصلاً في الفصل الرابع عشر.

أما الفصل الخامس عشر فقد انفرد بأعمال صلاح الدين باعتباره وزيراً في مصر، وبالعقبات التي واجهته وأسبابها، وتغلبه عليها، وبموقفه من تحالف الصليبيين مع البيزنطيين لإرسال حملة مشتركة من جنودهما للقضاء على صلاح الدين والاستيلاء على مصر، لأن الصليبيين أيقنوا أن نجاح صلاح الدين في مصر، ووجود نور الدين محمود بقواته القوية في الشام، سيوقعهم بين شقي الرحى، ويصبحوا محصورين من الشمال والجنوب. وصلت الحملة المشتركة فعلاً إلى دمياط، التي صمدت وقاومت مقاومة الأبطال، وأنزلت بأسطول البيزنطيين أضراراً بالغة، فاضطرت الحملة بقيادة الملك إملري (عموري) من الانسحاب، والعودة إلى القدس ، خصوصاً وأن نورَ الدين هاجم ممتلكاتهم في الشام، وأنزل بها خسائر فادحة، وبذلك أصبح فشل هذه الحملة نقطة تحول في تاريخ منطقة الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية، إذ تحولت القوى الإسلامية من خطة الدفاع إلى خطة الهجوم على المدن الصليبية في الشام، وسيؤثر هذا بطبيعة الحال في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في تلك الفترة من العصور الوسطى. لم يلبث صلاح الدين أن أسقط الخلافة الفاطمية من حكم مصر، بتعليمات من نور الدين محمود، وأعلن تبعيتها للخليفة العباسي في

بغداد، وساعدته الظروف بأن الخليفة الفاطمي العاضد كان على فراش الموت، فلم تحدث معارضة من القصر الفاطمي، ولا من الشعب المصري، الذي ظل متمسكاً بالمذهب السني طوال حكم الفاطميين لمصر.

وفي الفصل السادس عشر تناولت الدراسة إصلاحات صلاح الدين الداخلية في مصر، وإقامة مؤسسات عسكرية، ومدارس سنية، ومستشفيات استعداداً للمواجهة الكبرى ضد الصليبيين، ولحسن حظ صلاح الدين، وربما لحسن حظ العالم الإسلامي بأجمعه أن توفي نور الدين محمود بعد فترة حدث فيها بين الرجلين جفوة، وأمكن لصلاح الدين أن يسوي مشكلة الحكم مع خلفاء نور الدين محمود وورثته، فضم جزءاً كبيراً من الشام إلى مصر، واستكمل تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة وأخذ يستعد لإعلان الجهاد ضد الصليبيين لطردهم من البلاد الإسلامية التي اغتصبوها.

وقد اشتمل الفصل السابع عشر على المرحلة الأولى من جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، والشروع في بداية الحرب الشاملة ضدهم،وقد مهدت لهذه الدراسة بالأحوال التي كانت عليها الإمارات الصليبية، حيث أخذت تخطو أولى خطواتها في مسيرة الضعف والتفكك، بسبب انعدام التعاون بين الإمارات الصليبية الثلاث، وما أصاب الأمراء من اختلاف في الرأي وما شاع بينهم من حقد وتنافس، خاصة بين بوهيمند وريموند وبلدوين الأول وداجوبرت مبعوث البابا، كما لعبت المرأة دوراً كبيراً في إضعاف دولة الصليبيين، لأن قانون وراثة العرش كان يسمح للوريثة أن تنقل عرش المملكة إلى زوجها، مما زاد في شقة الصراع بين الأمراء.

وبينما كانت هذه هي أحوال القوى الصليبية، كانت الجبهة الإسلامية على عكس ذلك تماماً، فقد أحس المسلمون باشتداد بأسهم، وزيادة الشعور الوطني عندهم، وأدركوا أنه من العار والهوان أن يتركوا هذه الإمارات الصليبية، وهي أجزاء من وطنهم، ومدن من بلادهم، في أيدي أجانب غرباء عن المنطقة

وأهلها، لأنهم احتلوها في وقت أصيب فيه العالم الإسلامي بالهزال والضعف. أما وقد عادت للمسلمين وحدتهم، واستردوا قوتهم، وسرت في نفوسهم عزة المؤمنين، فلا بد من استرداد هذه الأراضي إلى أيدي المسلمين أصحابها الأصليين، ثم إن بقاء القدس الشريف بما له من منزلة روحية دينية في نفوس المسلمين أثار مشاعر القوى الإسلامية ضد الصليبيين عامة، ووجدوا أنه عار ما بعده عار، ومذلة لا يعادلها مذلة، إن هم لم يطردوا منه هذه الشرذمة التي عملت على تدنيس المقدسات الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك فإن المسلمين أرادوا أن يغسلوا عنهم مرارة الهزائم التي أصابتهم على أيدي هؤلاء الصليبيين، ولن تزول هذه المرارة من نفوسهم إلا بإنزال هزيمة مرة بالصليبيين، وإحراز نصر مؤزر عليهم، ووقفت الأقدار إلى جانب المسلمين فهيأت لهم موارد الميرة والتموين والإمدادات البشرية من البلدان الإسلامية في محيط الشرق الأدنى بأكمله في تلك الفترة، بينما كانت إمدادات الصليبيين تأتيهم من أوروبا. وكانت المغامرة التي ارتكبها أرناط (ريجنالد دي شاتيون) حاكم الكرك، وانتهاكه الهدنة المبرمة بين المسلمين والصليبيين، حيث تعرض للقوافل، وحاول مهاجمة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فتوترت العلاقات بين الجانبين، واندلعت الحروب بينهما، وأحرز المسلمون الانتصارات تلو الانتصارات، فدحروا الصليبيين وهزموهم في صفورية وطبرية، واستولى المسلمون عليهما وعلى المدن الساحلية، فاستردوا عكا وحيفا والناصرة وقيسارية وغيرها. وقد توجت هذه الانتصارات بالنصر الأكبر لصلاح الدين، وهو استرداد بيت المقدس وعودته إلى أيدي المسلمين في ليلة ٢٦ رجب ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م وهي ليلة ذكرى الإسراء ذات الأثر العظيم في نفوس المسلمين، وهكذا غسل صلاح الدين بجهاده العظيم عن الدولة الإسلامية عار الذل والمهانة التي ظلت تكسوها أكثر من ثمانين عاماً.

وفي الفصل الثامن عشر تعرضت بالدراسة إلى الحملة الصليبية الثالثة،

التي كانت أثراً مباشراً لسقوط القدس في أيدي صلاح الدين والمسلمين، فقد أحس الغرب الأوروبي ببداية النهاية لمملكتهم اللاتينية في المشرق العربي الإسلامي، حيث تمكن المسلمون من استرداد القسم الأكبر من هذه المملكة، وأضحى الأمر واضحاً أنه لا محالة من طردهم من الوطن العربي الإسلامي بعد استرداد أنطاكيا وطرابلس، فطلب البابا إتوسنت الثالث من الملوك والأمراء في أوروبا حماية المسيحية في الشرق من الزوال، فتحرك ثلاثة من كبار ملوكهم وأقدرهم في النواحي الحربية هم: فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا، وفيليب أوجسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا على رأس حشود من جيوشهم، وكان بربروسا أول السائرين بقواته، ولكنه لقي حتفه في أحد فروع أنهار قيليقيا (٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م)، وكانت معظم قواته قد تبعثرت وفنيت أثناء عبورها أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، ولم يصل منهم إلى الأرض المقدسة بفلسطين إلا شرذمة ضعيفة. ولم تلبث الخلافات أن دبت بين فيليب وريتشارد، ووصل فيليب أولاً إلى مدينة صور، ثم لحق به ريتشارد ووصل إلى عكا في أسطول كبير، كما توالت الإمدادات البشرية والمادية من معظم دول أوروبا إلى الصليبيين، الذين أحكموا الحصار حول عكا حتى ساء موقف المسلمين فيها، واضطروا إلى عقد الصلح وتسليم المدينة. ولكن الصليبيين لم يحترموا اتفاقهم ولم يفوا بتعهداتهم فقتلوا آلاف المسلمين الذين كانوا بداخل عكا غدراً وعدواناً.

ولكن سرعان ما دب الخلاف ووقع النزاع بين الأمراء الصليبيين بعضهم بعضاً من جانب، وبين ملك فرنسا وملك انجلترا من جانب آخر، فغادر ملك فرنسا عكا عائداً إلى بلاده، وترك ملك انجلترا ليتحمل كل ما تمليه عليه الظروف السياسية والحربية في المنطقة. وقد نتج عن زيادة حدة الخلافات أن فشلت الحملة الصليبية الثالثة، ولم تحقق الغرض الأساسي وهو استرجاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، فعلى الرغم من الهزيمة التي أصابت المسلمين في أرسوف على أيدي ريتشارد قلب الأسد، إلا أنه لم يستطع الاستيلاء على القدس كما كان

الصليبيون يأملون، وانتهى الأمر بصلح الرملة بين صلاح الدين والصليبيين، وأبرمت معاهدة أدت إلى استقرار الأحوال في منطقة الشرق الأدنى لمدة زمنية، فكانت هذه المعاهدة بمثابة الهدنة المسلحة، كل جانب يعد نفسه للدخول في حرب أخرى ضد الجانب الآخر، سواء طال وقت هذه الهدنة أم قصر. وفي خلال هذه الهدنة أصاب المرض البطل المجاهد صلاح الدين وهو بدمشق، وتوفي في صفر سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م، فطويت صفحة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية.

أما الفصل الأخير (التاسع عشر) فقد تناول حياة الصليبيين ونظمهم في الشام، وقد هدفت أن أضع بين يدي الدارس صورة حية عن النظم السياسية (شكل الحكم) والعسكرية، والإدارية والمالية، والاقتصادية، والقضائية، وقدمت لهذه النظم بالتركيب الطبقي للمجتمعات الصليبية في المملكة اللاتينية ببيت المقدس، ليقف الدارس على مدى ما لعبته هذه الطبقات من تخريب في هذه النظم حتى انهارت مملكتهم تماماً على أيدي سلاطين المماليك العظام مثل الظاهر بيبرس، وقلاوون، وابنه الأشرف خليل ومن جاء بعدهم. وسوف نعالج بالدراسة العلاقات بين المسلمين والصليبيين على عهد دولة المماليك في جزء ثان لهذا الكتاب إن شاء الله. ولم يفتني عند تقديم هذه الصورة أن أجعل قسماً منها للحياة الاجتماعية التي عاشتها طبقات المجتمعات الصليبية المتعددة في المملكة اللاتينية ببيت المقدس، وكيف أصبح هؤلاء المعدمون الذين جاءوا من أوروبا هرباً من الفقر والجوع ووطأة الأمراض والمجاعات التي أصيبوا بها في أوطانهم، كيف أصبحوا هنا في بلاد المسلمين سادة وأصحاب قصور وضياع، ويمتلكون البيوت والفرش الوثير... الخ. وقد بينت كذلك كيف تأثر الصليبيون بالعادات الشرقية الطيبة، وإلى أي مدى تغيرت بعض طباعهم القاسية، واستقام مسلكهم المعوج بعض الشيء نتيجة احتكاكهم بالمسلمين، ومعاشرتهم لهم، ووقوفهم على طيبة قلوبهم، وسلامة مسلكهم، كما تعرضت بإيجاز شديد لأثر الحضارة

العربية الإسلامية على الجوانب المتعددة لهذه الحياة، التي كان لها الفضل الأول في قيام الحضارة الأوروبية، التي أضحت بمثابة الأساس الذي قامت عليه مدنية الغرب المعاصرة بكل مشتملاتها.

وفي ختام هذه المقدمة أود الإشارة إلى أن موضوع العلاقات بين الشرق والغرب موضوع شديد التعقيد، متشعب الجوانب، تختلف آراء المؤرخين على كثير من دوافعه وأسبابه، وقد دفعني إلى الكتابة فيه أمران: **الأول**: لا تمتلك المكتبة العربية إلا أقل القليل فيما كتب فيه منذ أكثر من ربع قرن من الزمن. **الثاني**: أن ما كتب من قبل فهو يمثل وجهة نظر المدرسة الأوروبية، والكتاب الذي أقدمه اليوم يمثل وجهة نظر المدرسة الإسلامية مع عدم إغفال وجهة النظر الأخرى. وكل ما قصدته هو سد جزء من فراغ كبير في هذا الجانب، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد وفقني في إخراج الكتاب بالطريقة وبالصورة التي رجوتها له.

والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الأحساء ـ المملكة العربية السعودية

الأربعاء غرة المحرم سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٢٦ سبتمبر ١٩٨٤م

المؤلف: دكتور أحمد الشامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أحوال الشرق الأدنى السياسية
قبل الحملات الصليبية

تعرضت منطقة الشرق الأدنى خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلى عدة ظواهر سياسية كان لها أثر كبير في تاريخها، فقد تحكمت في تاريخ هذه المنطقة وأثرت في العلاقات بين بلدانها ثلاث قوى رئيسية هي:

أولاً - القوى الإسلامية:

وتتمثل في الخلافة العباسية في بغداد، وظهور دويلات إسلامية قوية في المشرق مثل الدولة السامانية، والدولة الغزنوية، والدولة البويهية، وظهور الأتراك السلاجقة الذين لعبوا دوراً بارزاً في تاريخ هذه المنطقة وتاريخ العلاقات بين دولها وبين الامبراطورية البيزنطية من جانب، وبين الغرب المسيحي من جانب آخر. وفي أعقاب الأتراك السلاجقة تظهر دولة الأتابكة على مسرح الأحداث التاريخية والسياسية في هذه المنطقة، ومن خلال دولة الأتابكة يظهر صلاح الدين الأيوبي على المسرح التاريخي، حيث تصل العلاقات بين المسلمين والصليبيين إلى نقطة حاسمة هي استرجاع المسلمين لبيت المقدس من أيدي الصليبيين، فتكون بداية النهاية لهذه العلاقات التي ستنتهي تماماً في أواخر عصر دولة المماليك في مصر.

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك خلافة فاطمية شيعية في مصر، يمتد ملكها إلى أجزاء من مدن الشام، وقد أدى اختلاف المذاهب الدينية بين الخلافتين العباسية والفاطمية إلى وجود بعض الجماعات المتطرفة، مثل طائفة الإسماعيلية الباطنية، التي لعبت دوراً يكاد يكون مستتراً وخطيراً في تاريخ العلاقات بين

المسلمين والصليبيين في تلك الفترة، وبالتالي أدى إلى انحدار في العلاقات بين الدول الإسلامية، وكان عاملاً من عوامل الضعف والاضمحلال الذي أصابها.

ثانياً ـ القوى المسيحية في الشرق:

ونعني بها الامبراطورية البيزنطية والصراع المستمر بينها وبين القوى الإسلامية للحفاظ على نفوذها، وتوكيد سلطانها على المناطق التي كانت بأيدي المسلمين، والتي كانت تحيط بحدود الامبراطورية أو بممتلكاتها، سواء من جانب الخلافة العباسية في أعالي ما بين النهرين (الجزيرة)، أو من جانب الخلافة الفاطمية في مصر وممتلكاتها في الشام.

ثالثاً ـ القوى المسيحية في الغرب الأوروبي:

وهذه قد اندفعت إلى الشرق الإسلامي بحملاتها الصليبية لأسباب ودوافع متعددة، ونجحت في الاستقرار في هذه المنطقة، وكونت لنفسها أربع إمارات هي الرها وأنطاكيا وطرابلس وبيت المقدس. وقد أدى وجود القوى الصليبية هذه إلى ازدياد حدة الصراع، وتذبذب العلاقات وتشابكها من جوانب متعددة، مما كان له أثره البارز في تاريخ العلاقات بين المسلمين وبين المسيحيين شرقيين وغربيين.

فإذا ما تناولنا القوى الإسلامية بالدراسة نجد أن الخلافة العباسية كانت في مرحلة من الضعف ظاهرة، وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأمراء من البويهيين ومن الأتراك السلاجقة. وكثرت الثورات وتعددت في مناطق مختلفة في الدولة، وانتشرت حركات مذهبية متباينة في اتجاهاتها الدينية بسبب جذورها الفارسية أو للاختلاف السياسي فيما بينها، مما سبب القلق والاضطراب، وأصبح من أهم أسباب ضعف الدولة الإسلامية، ونتج عن ذلك ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب وحدة الدولة وتماسكها، ففي المشرق ظهرت الدولة الطاهرية

في خراسان[١]، ثم الدولة الصفارية[٢]، والدولة السامانية[٣]، والدولة الغزنوية[٤]. وفي المغرب ظهرت دولة الأدارسة، ثم دولة الأغالبة في تونس[٥]، كما استقلت مصر عن الخلافة العباسية في عهد الطولونيين[٦]، ووقع الحلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك الذين كان لهم النفوذ الفعلي في الدولة بفعل هيمنتهم على قيادة الجيش، وإدارة الدولة، وإحاطتهم بالخلفاء.

وزاد أمور الدولة سوءاً أن تدخلت بعض النساء التركيات في تصريف شئونها، مثل أم الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ ـ ٩٣٢م) التي سميت بالسيدة لسطوتها وسيطرتها على شئون الحكم. لدرجة أن عينت قهرمانتها ـ وصيفتها ـ (تومال) صاحبة للمظالم، فكانت تجلس في الرصافة، وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، وتحضر الأعيان والقضاة في مجلسها، وتوقع هي على المظالم، فاستهتر العامة من الشعب بالخلافة، ونظروا إلى تلك الأحكام نظرة احتقار وازدراء، وقد سجل لنا ابن طباطبا[٧] ذلك في قوله: «واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه، ولاستيلاء سائه عليه، فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء، فخربت الدنيا أيامه، وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة، ثم أعيد، ثم قتل».

---

(١) نسبة إلى مؤسسها طاهر بن الحسين، وكانت بدايتها سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م وبقيت إلى سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م.

(٢) أسسها يعقوب بن الليث الصفار، وخلفت الدولة الطاهرية سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م وظلت حتى سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م.

(٣) نسبة إلى سامان، وهو نبيل فارسي انحدر من بهرام جوبين، وبقيت من سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م إلى ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م.

(٤) أسسها محمود الغزنوي، وقد استمرت هذه الدولة من سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م إلى سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م.

(٥) ينسبون إلى الأغلب بن سالم بن عقال، راجع دائرة المعارف، جـ٣ص٧٩٣.

(٦) نسبة إلى أحمد بن طولون (٢٥٤ـ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ـ٩٠٥م).

(٧) الفخري، ص ٢٤٠.

وكان لظهور البويهيين أثره في إضعاف الخلافة العباسية، فقد استأثروا بالنفوذ والسلطة دون الخليفة العباسي، منذ أن تولى عماد الدولة علي بن بويه الحكم في بغداد سنة ٣٣٤ هـ/[١] ٩٤٥ م، وظلوا يسيطرون على مقاليد الدولة، ويتصرفون في شئونها، فأمير الأمراء في العصر البويهي كان يتحمل كل المسئولية، والخليفة لم يكن مسئولاً قط عن الخزانة، ولا عن الإدارة المالية، ولا عن الجند، ولا عن السياسة، وإنما هو الذي يعطي كل تصرفات البويهيين صفتها الشرعية، حتى ظهروا وكأنهم أوصياء على الخلفاء العباسيين، وأضحى الخليفة رمزاً لا يتولى من حقيقة السلطان شيئاً قابلاً لأن ينازعه أحد عليه.

ومن الدلائل على عجز الخليفة العباسي، وعدم قدرته على الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية أن أهل البصرة ثاروا، وأخرجوا منها نواب بهاء الدولة البويهي، وكان للأتراك دور كبير في تحريك هذه الفتنة وإشعال الثورة، وتمكن الأتراك بزعامة قائدهم يشكرستان أن يستقل بالبصرة، وأن يقتل من أهلها الكثيرين، وأن يسلبهم كثيراً من أموالهم. وعلى الرغم من محاولة بهاء الدولة البويهي إخماد هذه الفتنة ، إلا أن الدلائل تشير إلى ضعف الدولة العباسية، وقصور قوتها العسكرية عن حفظ وحدتها، وعجزها عن استتباب الأمن فيها[٢].

كذلك ثار أهل الموصل وتمكن المقلد العقيلي[٣] من استمالة البويهيين (الديلم)، وكاتب بهاء الدولة على أن يضمن له البلد بألفي دينار، ورغم ذلك فإن رجال المقلد العقيلي أغاروا على بغداد، وطلب بهاء الدولة الصلح مع المقلد العقيلي بشرط أن يدفع له عشرة آلاف دينار، وقبل العقيلي ذلك في مقابل أن يُقْطَع الموصل والكوفة، وأن يُخْلَع عليه، ويلقب بحسام الدولة، وبعد أن تم الصلح لم يف بشيء من ذلك.

---

(١) ابن خلدون. تاريخ، جـ٣ ص٣٩٥-٣٩٦.

(٢) ابن الأثير. الكامل جـ٩ ص١٢٦ وما بعدها.

(٣) كان فاطمياً شيعياً، أظهر الدعوة العلوية بالكوفة والموصل والأنبار والمدائن، راجع ابن خلدون: تاريخ، جـ٣ ص٤٤٢.

كما شهدت بغداد عاصمة الخلافة ألواناً من الفتن بين أهل السنة والشيعة الذين قويت شوكتهم وناصروا الفاطميين. ففي عام (٣٩١ هـ/ ١٠٠٠م) ثار الأتراك على أبي نصر سابور نائب السلطان فهرب منهم، ووقعت الفتنة بين الأتراك والعامة من أهل الكرخ، فساعد السنيون إخوانهم الأتراك على أهل الكرخ فقتلوا منهم خلقاً كثيراً[١]. ثم تجددت هذه الفتن سنة (٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠م) في عهد القائم بأمر الله، وانتهت بقتل جموع من أهل الكرخ، وحرت أسواق العروس والصفارين والنماط والدقاقين وأحرقت[٢].

ولم تكن هذه الفتن وتلك الثورات قاصرة فيما بين السنة والشيعة، بل حدثت كذلك فيما بين الشيعة وأنفسهم، وعانت بغداد الكثير من جراء هذه الصراعات. فبعد موت بهاء الدولة البويهي خلفه ابنه سلطان الدولة شجاع فأسند ولاية البصرة إلى أخيه جلال الدولة أبي طاهر، ويبدو أن بني بويه لم يستريحوا إلى شخصية سلطان الدولة، فأوقعوا بين الأخوة، وزادت حدة الصراع عندما دخل الأخ الثالث قوام الدولة أبو الفوارس في دائرة هذا الصراع[٣]. وكان من نتيجته أن ضعفت دولة بني بويه، وتمرقت أوصال الجيش الإسلامي، وانشغل الجنود بالحروب الداخلية التي هدت كيان الدولة، ونخرت عظام الجيش، وأصابت الجنود باليأس والضعف، لدرجة أن أطفال بني بويه تولوا عرش السلطنة في بغداد.

وبلغت درجة الضعف التي وصل إليها الخلفاء العباسيون في هذه الفترة أن الخليفة القادر بالله حلف لوزيره بهاء الدولة البويهي على الوفاء والإخلاص، وأشهد على نفسه أنه قلده ما وراء بابه[٤]، أي فوضه في الحكم، كل ذلك مقابل أن بهاء الدولة حلف للخليفة الذي ولاه الوزارة على الطاعة، والقيام بشروط البيعة، وهذا أمر يتحتم على كل وزير أوأمير في الدولة أن يعمل بهما، كما تنص على ذلك

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٩ ص ١٦٨.
(٢) ابن الأثير: نفسه ص٤١٨-٤١٩.
(٣) ابن خلدون، تاريخ: جـ٣ ص٤٤٣.
(٤) ابن الأثير: نفسه، ص٨١.

التشريعات الفقهية، والنظم الإسلامية. ومن ثم ازداد نفوذ بهاء الدولة، فاستبد بالسلطة، واستشعر الناس نفوذه وسطوته، لأنه هو الذي أجلس الخليفة في دست الخلافة، ولذلك حلف الخليفة له على الولاء والإخلاص.

ولم يكتف سلاطين بني بويه بمثل هذه السيطرة واتساع نفوذهم إلى هذا الحد، بل تمادوا في إساءتهم للخلفاء، فقد كانوا يحددون للخليفة راتباً يسلم له يومياً يسمى (مياومة) كما لو كان عاملاً أو أجيراً، ومع كل ذلك فلم يسلم الخليفة في بعض الأحيان من مصادرة ممتلكاته، وكانت تسلب داره، ويؤخذ ما فيها من نفائس[1]. وهذا يفسر لنا إلى أي حد وصل ضعف الخلفاء العباسيين، وإلى أي مدى وصلت سيطرة بني بويه عليهم وتحكمهم في أمورهم وأمور الدولة معاً، ويعبر ابن خلدون[2] عن استبداد بني بويه بالسلطة والنفوذ في عهد العباسيين فيقول: «ولم يزل نطاق الدولة العباسية يتضايق شيئاً فشيئاً وأهل الدولة يستبدون واحداً بعد واحد إلى أن أحاطوا ببغداد، وصاروا ولاةمتعددين ،وكان من أقرب المستبدين إلى مقر الخلافة بني بويه بأصبهان وفارس والموصل والجزيرة، ولم يبق للخلفاء إلا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات».

والحقيقة أن آراء المؤرخين تختلف في تبيان العلاقة ما بين بني بويه، وبين الخلفاء العباسيين. فأكثر المؤرخين يميلون إلى القول بأن البويهيين أذلوا الخلفاء بسبب اختلاف المذهب الديني، فالعباسيون سنيون، بينما البويهيون شيعة علويون. وأنهم سلبوهم سلطانهم وجعلوا منهم ألعوبة في أيديهم، يجلسونهم على عرش الخلافة متى شاءوا، ويعزلونهم متى أرادوا. ففي عام ٣٨١ هـ / ٩٩١م **قبض بهاء الدولة البويهي على الخليفة العباسي الطائع لله**؛وخلعه من الخلافة، وبايع للقادر بالله، وسلمه الخليفة المعزول (الطائع)، فأنزله القادر بالله حجرة خاصة، ووكل به بعض خدمه ممن يثق فيهم ليقوموا على خدمته، وأحسن ضيافته[3]. وهكذا لم يترك بني بويه للخلفاء العباسيين سوى ذكر أسمائهم في الخطبة، ونقش أسمائهم على السكة كرمز للخلافة.

(١) ابن الأثير. الكامل، جـ٨ ص١٦١.

(٢) تاريخ؟ جـ٣ ص ٤١٩ وما بعدها.

(٣) ابن الأثير. نفسه، جـ٩ص٩٢، ٩٤.

ويحاول نفر من المؤرخين تبرئة البويهيين والتماس الأعذار لهم، باعتبار أنهم ورثوا ذلك الوضع الذي كانت عليه الخلافة العباسية ممن سبقوهم، ولم يكن لهم يد فيما وصلت إليه أمور الخلافة في بغداد[1]. وكل الذي زاد عليهم هو لقب شاهنشاه أو (ملك) الذي أضفوه على أنفسهم، ويبدو أن حلال الدولة البويهي أراد أن يحصل على فتوى تجيز للبويهيين أن يتلقبوا بهذا اللقب (شاهنشاه ـ ملك الملوك) وطلب ذلك من الفقيه الشافعي الماوردي ـ صاحب كتاب الأحكام السلطانية ـ فرفض إصدار مثل هذه الفتوى، وأفتى ضد هذا اللقب، ولكن حلال الدولة حصل على الفتوى من فقهاء آخرين[2].

ويستند أصحاب هذا الرأي إلى أن الخليفة العباسي الراضي قد ألجأته الضرورة إلى إنشاء منصب أمير الأمراء عندما ارتبكت أحوال الخلافة في عهده، فكتب إلى أبي محمد بن رائق وهو بواسط بموافقته على ما تقدم به إليه من دفع النفقات وأرزاق الجند ببغداد[3]. ومن الطبيعي كانت فرصة لابن رائق أن يسيطر على أمور الدولة، فتوجه إلى الخليفة الراضي في احتفال كبير، ورحب الخليفة به، وقلده إمارة الجيش، وجعله أمير الأمراء، فأخذ ابن رائق يصرّف شئون الدولة كلها هو وكاتبه، وتوقف عمل الوزارة، وبطلت الدواوين، وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون، ويطلقون للخليفة ما يرون، وبطلت بيوت المال.

والحقيقة التي نراها أن البويهيين أمسكوا بالعصا من منتصفها ـ كما يقول المثل ـ فهم انتزعوا كل سلطات الخليفة، وتسلطوا على شئون الدولة، ولكنهم تظاهروا باحترامه أمام عامة المسلمين وقد مكنتهم سياستهم هذه من أن يعلنوا مذهبهم الشيعي الزيدي الذي يعتنقونه، بينما هم يعيشون في ظلال دولة سنية المذهب. وتم لهم ذلك على يد بهاء الدولة البويهي سنة (٣٩٨ هـ / ١٠٠٨م)[4].

---

(١) حسن محمود: العالم الإسلامي، ص٥١٨-٥٢١.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص٤٥٩.
(٣) ابن الأثير: نفسه، جـ٨ ص١١٢.
(٤) Arnold; The Caliphate, p. 68

ويرى أصحاب هذا الرأي أن البويهيين هم الطائفة الشيعية الوحيدة التي واءمت نفسها لتعيش مع أهل السنة في سلام، وبدون نزاع مذهبي، ويستدلون على ذلك برسائل الصاحب ابن عباد[1]، وبمعايشة المذهب الشيعي الزيدي، مع المذهب السني أصبح الخليفة العباسي خليفة لأهل السنة وأصحاب المذهب الشيعي على حد سواء.

ولكن ينبغي ألا ننسى أن البويهيين كثيراً ما كانوا يحدثون الشغب، ويحركون الفتن، بدليل ما تذكره المصادر التاريخية «. . . فتشغب الجند في هذا الوقت، وتجددت الفتن، وغلت الأسعار ببغداد، وتعرض القضاة ورجال الدولة للسجن والإهانة والتعريض بهم، وزالت هيبة السلطنة، واحترقت المحال، واستمر الفساد»[2]، ومن الراجح أن البويهيين شغبوا نظراً لاشتداد سطوة الأتراك وزيادة نفوذهم وتسلطهم في بغداد، لدرجة أنهم ثاروا على جلال الدولة البويهي وعزلوه سنة (٤٢٦ هـ / ١٠٣٤م)، وأسقطوا اسمه من الخطبة، واستدعوا أبا كاليجار ليتولى السلطنة في بغداد، ولكنه رفض، فأعادوا حلال الدولة البويهي إلى منصبه[3]. وكان من الطبيعي أن يعمل جلال الدولة على المحافظة على مركزه في السلطنة، فلجأ إلى عزل الوزراء البويهيين بعد فترات قصيرة كما حدث مع أبي القاسم بن ماكولا، واعتزال أبي سعيد بن عبد الرحيم وغيرهما. وتلك دلائل صريحة على تخبط سياسة البويهيين، وعجز الخليفة العباسي عن اتخاذ موقف حازم ينهي به العنف والفوضى اللذين أشاعهما البويهيون في بغداد.

واستعمل البويهيون البساسيري[4] على بغداد، ليقضي على الفوضى التي انتشرت في المدينة، ولكنه لم يتمكن من ذلك، بل ازدادت الفوضى وخرج الجنود سنة (٤٢٦ هـ / ١٠٣٤م) يعيثون فساداً في القرى المجاورة للمدينة، ينهبون

(١) راجع الرسالة الخامسة من الباب السادس، ص٩١، والرسالة السادسة ص٩٢-٩٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ص٩١.
(٣) ابن خلدون: تاريخ، جـ٣ ص٤٤٨.
(٤) هو الأمير المظفر أبو الحارث أرسلان بن عبد الله، مقدم الأتراك في بغداد. راجع القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٨٧. وكذلك ابن تغري بردي. النجوم، جـ٥ ص٥.

ويحرقون ويسلبون كل ما وجدوه في طريقهم من مال ومتاع[1]. ولم يكتف هؤلاء الجنود بذلك، بل ساعدوا العيارين حتى استفحل أمرهم، وأخذوا يستولون على الأموال ليلاً ونهاراً، ووقفوا ضد السلطان البويهي ونوابه، وعجز السلطان عن التصدي لهم، كما انتشر الأعراب في البلاد فنهبوا النواحي، وقطعوا الطرق، وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وسلبوا النساء ملابسهن في المقابر[2].

واصل البويهيون مسيرتهم في شئون الدولة على هذا النمط إلى أن ضعف البيت البويهي لعدم احتفاظهم بتضامنهم الذي كانوا عليه، فنزع إلى الاستقلال كل فرد منهم ممن آل إليه جزء من هذا الملك، واعتبر أن ما بيده ملكاً خاصاً موروثاً، فتهدمت أركان المصلحة العامة للدولة، وتفسخت أعمدة التضامن التي قام عليها حكم أسرة بني بويه. فبعد وفاة جلال الدولة البويهي سنة (٤٣٥ هـ / ١٠٤٤م) أخذ النفوذ الديلمي في الانحسار، فقد تولى ابنه الملك العزيز بعده، ولكنه عجز عن دفع رواتب الجند ومال البيعة، فسحب الجنود تأييدهم له، واستدعوا أبا كاليجار الذي ولي سلطنة بغداد سنة (٤٣٦ هـ / ١٠٤٥م)، ولكن حكمه لم يدم طويلاً، فخلفه ابنه أبو نصر إبراهيم الملقب بالملك الرحيم[3]، فكان آخر سلاطين البويهيين، حيث دخل السلاجقة بغداد في عهده سنة (٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م).

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ص٤٤٠، وابن خلدون: نفسه ص٤٥٨-٤٦٠.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، جـ٣ ص ٤٦٤.

(٣) يذكره البعض أبو نصر خسرو فيروز. راجع: عاشور: الحركة الصليبية جـ١ ص٨٠-٨١.

الفصل الثاني

ظهور الأتراك السلاجقة

ينتسب السلاحقة إلى قبيلة (قنق) وهي إحدى القبائل الأربع والعشرون التي تمثل قبائل التركمان المعروفة باسم (الغز)[1]. وينكر الدواداري[2] عليهم هذا النسب، ويقول إنهم من السامانية، وترجع أصولهم إلى الفرس ملوك العجم، ونحن نرجح القول الأول. كانوا يسكنون السهوب الممتدة من شواطىء بحر الخزر إلى الصين. وقد اكتسب السلاحقة اسمهم عندما ظهر سلجوق بن دقاق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وعمل على توحيد أفراد هذا الفرع من الغز، ونجح في ذلك فانتسبوا إليه[3] وسموا أنفسهم السلاجقة. ثم رحلوا من موطنهم الأصلي إلى بلاد ما وراء النهر في بداية الربع الأخير من القرن الرابع الهجري (حوالي ٩٨٥م)[4].

وفي بلاد ما وراء النهر (على حدود نهر سيحون) اعتنق السلاجقة الإسلام[5] على مذهب أبي حنيفة النعمان، ويبدو أنهم تأثروا في ذلك بجيرانهم السامانيين. وكان سلجوق شديد الغيرة على الإسلام، فاندفع يحمي المسلمين من القبائل التركية غير المسلمة في المناطق المجاورة له، فذاع صيته، وكثر أتباعه، وازدادت قوته بشكل ظاهر، مما لفت نظر السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، فخشي على نفسه وعلى نفوذه، فبدأ يعد العدة للتخلص من هذه القوة المنافسة له، ولكنه

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٢-٣.
(٢) ابن أيبك الدواداري: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، ص٢٠-٢١.
(٣) دائرة المعارف: (مادة سلجوق)؛ Lewis; The Arabes in History, P. 147
(٤) الراوندي: راحة الصدور، ص١٤٥ وما بعدها.
(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ص٤٧٤.

توفي، وترك لابنه السلطان مسعود القيام بهذه المهمة، ويبدو أن السلاجقة شعروا بما تدبره لهم الدولة الغزنوية فرحلوا إلى إقليم بخارى، وظلوا تابعين للغزنويين[1]، ولكنها كانت تبعية غامضة، إلى أن ثاروا عليهم بقيادة زعيمهم طغرلبك محمد، الذي أنزل بجيش مسعود الغزنوي هزيمة منكرة، ولم يلبث السلاجقة أن استولوا على نيسابور ومرو وسرخس بعد معركة دندانقان سنة ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م[2]، وتقلص نفوذ الغزنويين وأصبح قاصراً على أفغانستان. وقد ساعد السلاجقة على هذه الانتصارات انشغال الغزنويين بفتوحاتهم الجديدة في الهند[3]، إلى جانب شدتهم في الحرب.

واصل السلاجقة - بعدما قضوا على الغزنويين - توسعهم، وتوغلوا في إيران للقضاء على نفوذ بني بويه (الديلم) فيها، ونجحوا في الاستيلاء على عدة مدن من ضمنها أصبهان، التي اتخذها طغرلبك عاصمة له سنة (٤٤٣ هـ[4]/ ١٠٥١م)، وفي خلال أربع سنوات تمكن السلاجقة من بسط نفوذهم على بلاد الفرس، وأصبحوا على أهبة الاستعداد لدخول العراق[5].

تفاقم الموقف بين آخر ملوك البويهيين في بغداد، وهو الملقب بالملك الرحيم، وبين السلاجقة سنة (٤٤٧ هـ/ ١٠٨٤م)، ولم يجد السلاجقة إلا أن يقضوا على ما بقي من الوجود البويهي في بغداد، ونجحوا في ذلك بعد حكم استمر خمس وعشرين ومائة سنة للبويهيين. وبدخول السلاجقة بغداد بعد أن قضوا على قوة البويهيين التي كان لها وزنها وتأثيرها في توجيه دفة الحكم والسياسة، ليس في العراق فحسب، بل في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة من العصور الوسطى، تغير ميزان القوى تغييراً جذرياً، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ العالم الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ الدولة العباسية بصفة خاصة، حيث يصبح السلاجقة قوة تستند إليها الخلافة العباسية، لأنهم يعتنقون المذهب السني، نفس

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ص٤٨٢-٤٨٣، عاشور: العلاقات ص٣٥.
(٢) البيهقي: تاريخ، ص٦٨٩-٦٩٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ص٤٨٥.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٨ ص١٥١؛ والذهبي: دول الإسلام، جـ١ ص٢٦١.
(٥) أبو الفداء: المختصر، جـ٢ ص١٧٦.

مذهب العباسيين، وسوف يكون لهذه القوة الجديدة تأثيرها وأثرها في مجرى الأحداث التاريخية والسياسية في المحيط الدولي.

واصل طغرلبك مسيره لإخضاع ما تبقى من معاقل تابعة للبويهيين، فاغتنم البساسيري هذه الفرصة ودبر مؤامرة مع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، واستولى على بغداد سنة (٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) ورفع الأعلام الفاطمية بها، وخطب للمستنصر في مساجد بغداد. فاستنجد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالسلاجقة ضد البساسيري، فعادوا إلى بغداد ودخلوها سنة (٤٥١ هـ/ [١] ١٠٥٩ م)، وقضوا على هذه الفتنة، وقتل البساسيري حيث ضربت عنقه بعدما أعيد الخليفة العباسي إلى بغداد[٢] بعد عام من حكم البساسيري لها.

بعد أن استقرت الأمور في بغداد عاود طغرلبك قتال بقايا البويهيين فقضى عليهم وعلى دولتهم، وأعلن السلاجقة طاعتهم وولاءهم الكامل للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وعبروا بصراحة عن موقفهم العدائي من الخلافة الفاطمية في مصر، فتوثقت صلتهم بالخليفة، وأخذ يعمل على تأييدهم، ويقرهم على كل ما فتحوه من بلدان، واعترف بدولتهم لأنهم كانوا سنيين مثله، وتبادل الجانبان الصلات الودية والهدايا، وأمر الخليفة بذكر اسم طغرلبك بعد اسمه في خطبة الجمعة على منابر بغداد، ونقش اسمه على السكة[٣]. وبذلك حل السلاجقة محل البويهيين وأصبحوا كما لو كانوا أوصياء على الخلافة العباسية، فدفعهم هذا إلى أن يضموا إليهم بلاد الفرس، والجزيرة ، وآسيا الصغرى، ومناطق كثيرة في الشام التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية في مصر. ومن ثم بدت الدولة العباسية في عهد السلاجقة وكأنها دولة قوية موحدة الأملاك من جديد، وسوف يكون لذلك أثره في التغييرات السياسية والعلاقات الدولية التي حدثت نتيجة لظهور السلاجقة ودخولهم بغداد.

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، حـ٨ ص ١٦٤.

(٢) الفارقي. تاريخ، ص١٥٦-١٥٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حـ٩ ص٦٤٠، والراوندي: راحة الصدور، ص١٦٩.

والحقيقة أن ظهور الأتراك السلاجقة ـ في تلك الفترة ـ على مسرح الأحداث التاريخية كان فاتحة عصر جديد، ليس في التاريخ الإسلامي فحسب، بل في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام[1]، أو بتعبير أدق تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ومن الواضح أن ظهور الأتراك السلاجقة في تلك الفترة كان من حسن حظ العالم الإسلامي، لأنهم كانوا أسبق في الظهور من قوى أخرى، سوف تظهر وتسيطر هي الأخرى على أجزاء كثيرة من بلدان هذه المنطقة، وسوف يتصدى الأتراك السلاجقة لهذه القوى، ونعني بها قوى الصليبيين الذين اتجهوا بحملاتهم صوب الشرق الأدنى، ومن الراجح أنه لو قدر للصليبيين أن يتقدموا في الظهور على السلاجقة لتغير وجه التاريخ.

واصل السلاجقة توسعاتهم خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فضموا إليهم ما تبقى من أراضي فارس، وتوغلوا إلى بلاد ما بين النهرين[2] حتى وصلوا إلى حدود الأفغان شرقاً، وحدود الامبراطورية البيزنطية والدولة الفاطمية غرباً، وقد برز من سلاطين السلاجقة الأول ثلاثة عظام، هم: طغرلبك محمد، وألب أرسلان، وملكشاه، وهؤلاء اتبعوا في سياستهم الخارجية أسلوب القوة القائم على الحرب، وخاصة مع الأمبراطورية البيزنطية، التي أحرزوا عليها كثيراً من الانتصارات الحربية، ومن أهمها النصر الذي أحرزه ألب أرسلان على الامبراطور البيزنطي رومانوس دايوجينس الرابع في الموقعة الفاصلة عند ملاذكرد (مانزيكرت) سنة (٤٦٤هـ/ أغسطس ١٠٧١م)[3].

وترجع أسبابها إلى أن الامبراطور رومانوس الرابع كان قد خرج سنة (٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩م) إلى بلاد الشام في عسكر كثيف، ونزل على منبج ونهبها، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً وتصدت له جموع العرب في الشام فهزمهم، وضرب على المدينة الحصار، فطالت مدته، وقلت الأقوات عند البيزنطيين. فرجع إلى

---

(١) Cam. Med – Hist. Vol.IV P.299.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، جـ٣ ص٤٥٢-٤٥٣.

(٣) Cam. Med – Hist. Vol.IV, PP. 306-7 وتقع مانزيكرت إلى الشمال من بحيرة فان Van، وهي مدينة من أعمال خلاط.

القسطنطينية، وحشد جنوده حتى بلغت مائتي ألف جندي من الزنج والروم والروس والبجناك والكرخ والفرنج وغيرهم، وخرج في احتفال مهيب إلى خلاط، ومنها وصل إلى ملاذكرد (مانزيكرت). وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة خوي من أذربيجان بعد عودته من حلب، فأرسل أهل بيته مع وزيره نظام الملك إلى همذان، وسار على عجل في جيش لم يزد تعداده عن خمسة عشر ألف جندي[1]، والتقت مقدمة جيشه عند خلاط بجزء من جيش رومانوس، وكانوا عشرة آلاف جندي من الروس، فأصيبوا بالهزيمة، ووقع أميرهم أسيراً، فأمر ألب أرسلان بحبسه.

وصل ألب أرسلان بجيشه إلى مانزيكرت يدفعه حرارة وحماس النصر الذي أحرزه عند خلاط، ولكنه عندما رأى الأعداد الرهيبة في جيش رومانوس لجأ إلى طلب الصلح، فأبى الامبراطور البيزنطي وأصر على القتال، فثارت حمية ألب أرسلان، وبث في جنوده روح الاستماتة في القتال وشجعهم على الصمود، ودارت رحى الحرب بين الفريقين شديدة صارمة، وسقطت الألوف من الروم قتلى حتى امتلأت الأرض بجثثهم[2]، كما استشهد عدد كبير من المسلمين، ووقع الامبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً، فوجه ألب أرسلان إليه التأنيب والتوبيخ، ولكنه قبل الفدية الكبيرة التي افتدى الامبراطور رومانوس نفسه من الأسر بها، بعد أن اشترط عليه إطلاق جميع أسرى المسلمين الموجودين في بلاد الروم[3].

النتائج التي ترتبت على موقعة مانزيكرت:

تعتبر موقعة مانزيكرت نقطة تحول خطير في التاريخ البيزنطي، حيث ترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية. وعدم قدرتها على الصمود أمام التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى. ويرجع السبب في ذلك إلى أن جيش الامبراطورية البيزنطية كان في معظمه من الجنود المرتزقة، الذين يحاربون لمغانمهم ولمصلحتهم الشخصية بغض النظر عن مصلحة الدولة البيزنطية. وليس

---

(١) ابن خلدون: جـ٣ ص٤٧٠-٤٧١.
(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٦٥-٦٦.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، جـ١ ص٨٨، وتوفيق. الدولة البيزنطية، ص٧٤.

أدل على ذلك من أن كتيبة الجنود الأتراك في الجيش البيزنطي حينما رأوا أن القتال في صالح الأتراك السلاجقة انحازوا إليهم بدافع عصبية الدم[1]، وتركوا مواقعهم في الجيش البيزنطي مما سبب الارتباك، وكان من عوامل الهزيمة.

وتعتبر موقعة مانزيكرت سنة ١٠٧١م دليلاً على نهاية الدور الذي كانت تقوم به الدولة البيزنطية لحماية المسيحية من ضغط الإسلام، وحراسة المدخل الشرقي لأوروبا من غزوات الآسيويين، وبذلك أصبح الغرب الأوروبي ملزماً بأن يقوم بدوره في هذا المضمار، بدلاً من اعتماده حتى ذلك الوقت على الامبراطورية البيزنطية[2]. وهكذا نجد أن السلاجقة نفخوا في العالم الإسلامي بمنطقة الشرق الأدنى روحاً جديدة مكنت الخلافة العباسية من الصمود في وجه الروم، بل مهاجمتهم في عقر دارهم، وقد عبر ابن الأثير[3] عن ذلك بقوله: «فلما ملك السلجقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس، لا سيما في وزارة نظام الملك[4]، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها» ومن نتائجها كذلك تقلص ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في جنوب إيطاليا، فقد وجد النورمان الذين استقروا في المدن البيزنطية بجنوب إيطاليا منذ أواسط القرن الحادي عشر الميلادي الفرصة متاحة لهم للاستيلاء على هذه المدن، فتحالفوا مع البابوية، وتمكنوا بقيادة روبرت جيسكارد من وضع أيديهم على ممتلكات الدولة البيزنطية في إيطاليا، ولم تنجح محاولات جورج ماتياكس الحاكم البيزنطي في إيطاليا في وقف هذا التقدم النورماني. وكانت مدينة باري الواقعة في أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية آخر المدن التي استولى النورمان عليها، وتم لهم ذلك في نفس

---

(١) عاشور: العلاقات، ص ٤٤ Vasiliev.A History of the Byzantine Empire; Vol. I, P.356

(٢) عاشور: نفسه، ص٤٥.

(٣) الباهر، ص٥١.

(٤) هو أبو الحسن بن إسحق الطوسي، كان سنياً متشدداً، يميل إلى العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين، والفقهاء، وحفظة القرآن، والعلماء، مما أغضب الشيعة فقتلوه في حريف عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. راجع ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٢١، وكذلك ابن العبري: مختصر، ص١٩٢.

الوقت الذي أصيبت فيه جيوش بيزنطة بالهزيمة المرة في ملاذكرد سنة ١٠٧١م

وبعد موت ألب أرسلان سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م)[(١)]، تولى أخوه ملكشاه الحكم (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) فاستغل فرصة الارتباك والفوضى اللتان غرقت فيهما الدولة البيزنطية نتيجة لهزيمتها في موقعة مانزيكرت، واللتان استمرتا حتى اعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية سنة ١٠٨١م[(٢)] وأخذ ملكشاه يتوسع في آسيا الصغرى دون أن يجد مقاومة تذكر.

ومن الطبيعي أن تغري حالة الفوضى التي كانت عليها الدولة البيزنطية الجنود السلاجقة إلى أن يعيثوا فساداً في المدن البيزنطية، فعبثوا بها، ونهبوها وأحرقوا بعضها، ودمروا البعض الآخر. وقد بلغ من قوة الأتراك السلاجقة ونفوذهم أن استعان بهم نقفور الثالث حاكم إقليم نيقية ضد الامبراطور ميخائيل السابع، وتمكن السلاحقة من الاستيلاء على كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميدياوخلقدونيا والبسفور، وبذلك غدا السلاحقة هم السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى حيث امتد ملكهم من الفرات شرقاً إلى بحر مرمرة غرباً.

ولكن بعد موت السلطان ملكشاه سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م) دب النزاع بين أولاده بركياروق[(٣)] ومحمود وسنجر ومحمد على السلطة، وبدت دولة السلاجقة في حالة من الفوضى والاضطراب السياسي والانقسام الأسري، وشرعت تتفتت إلى وحدات سياسية صغيرة، بسبب الصراع الذي دب بين أبنائه على السلطنة، وتكفي الإشارة إلى أن الحروب التي نشبت بين بركياروق وأخيه محمد استمرت حتى سنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٤م).

ومن ناحية أخرى فقد طمع عمه تتش في أن يكون له حكم الشام كلها، ولم يقبل أن يكون آقسنقر البرسقي حاجب ملكشاه أميراً على حلب ويقاسمه حكم

---

(١) قتل ألب أرسلان أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر (جيحون).

(٢) توفيق: الدولة البيزنطية، ص١٧٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص٢١٤ـ٢١٦.

الشام، وكان السلطان ملكشاه قد منحه تلك الإمارة قبل وفاته، ولذلك أسرع تتش بالاستيلاء على بعض مدن الشام، وانضم إليه آقسنقر نفسه ودخل في طاعته وسلمه حلب، وكتب إلى ياغي سيان أمير أنطاكية، وإلى بوران صاحب الرها وحران ورغبهما في الدخول في طاعة تاج الدولة تتش، لأن الصراع كان لا يزال مستمراً بين أبناء ملكشاه، ولكن تتش لم يلبث أن قتل في الحرب التي دارت بينه وبين بركياروق[1]. وبعد ان توفي بركياروق استقرت أمور السلطنة لأخيه محمد بن ملكشاه[2]. ولكن الضعف أخذ يدب في أوصال الدولة السلجوقية، فانقسمت بعد وفاته إلى خمس دويلات صغيرة هي: سلطنة فارس (أصبهان) وكانت لبركياروق أكبر أبناء ملكشاه، وسلطنة خراسان وما وراء النهر، وكانت لأبي الحارس سنجر، ومملكة حلب، وكانت لرضوان بن تتش، وسلطنة دمشق، وكانت لشمس الملوك دقاق أخي رضوان، وأخيراً سلطنة سلاحقة الروم في آسيا الصغرى، وكانت لتاج أرسلان بن سليمان بن تتش[3]. والحقيقة أن ضعف دولة السلاجقة واضمحلالها، كان ضعفاً للدولة العباسية وبداية لنهايتها، وبالتالي كان من الأسباب التي مهدت لنجاح الصليبيين في حملتهم الأولى.

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣ ص١١٩، وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٠.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص١٢؛ وأبو شامة: الروضتين، جـ١ ص٦٠.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، جـ١ ص١١٤؛ والشيخ: الجهاد، ص٣٦.

الخلافة الفاطمية

لم تكن الخلافة الفاطمية في مصر أحسن حالاً من الخلافة العباسية في بغداد، فقد بلغت هي الأخرى درجة كبيرة من الضعف، فانسلخت عنها أقاليم كثيرة في الشام، ففي عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) عصى أهل صور وأمروا عليهم رجلاً ملاحاً، وعصى كذلك المفرج بْن دغفل بن الجراح ونزل الرملة وعاث في البلاد فساداً، كما أصيبت البلاد بالكوارث والنكبات الاقتصادية وسوء الحكم واضطراب الأمور بسبب صراع الوزراء على الحكم[1]، وتعدد عناصر الجيش الفاطمي، وكثرة الحروب بين هذه الفرق المتصارعة، وكانت بداية هذا الضعف في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) حيث صادفت الدولة الفاطمية أخطر العقبات في تاريخها، وهي الأزمة الاقتصادية العارمة التي وصفها المؤرخون بسنوات الشدة، وأطلقوا عليها سنوات الغمة[2]، لدرجة أن الخليفة المستنصر بالله باع محتويات قصره من ذخائر وأثاث وسلاح، وجلس على الحصير، وتعطلت الدواوين في عهده، ولجأ الخليفة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي لينقذ الدولة مما تردت فيه، وبدأ بدر الجمالي وزارته بمواجهة ساخنة وحاسمة لمشكلات مصر الاقتصادية والسياسية. ويعبر المقريزي[3] عن تلك الحالة السيئة بقوله: «...

(١) الشيال: مصر الإسلامية، جـ١ ص٢٤٣.

(٢) راجع المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة (تحقيق الشيال).

(٣) الخطط: جـ١ ص٣٨١-٣٨٢.

والرخاء قد آيس منه، والصلاح لا مطمع فيه، ولواته[1] قد امتلكت الريف والصعيد بأيدي العبيد، والطرقات قد انقطعت براً وبحراً إلا بالخفارة الثقيلة، فلما قتل في بلد كوش [2] ناصر الدولة بن حمدان، كتب المستنصر إليه ـ يعني بدر الجمالي ـ ليستدعيه من عكا، ليكون المستولي لتدبير دولته». فلما ولي بدر الجمالي الوزارة إلى جانب إمارة الجيوش تحكم في أمور الدولة كلها، واستبد بالحكم، ولم يبق للخليفة المستنصر معه شيء من الحكم.

ومع كل محاولات أمير الجيوش بدر الجمالي لإخراج الدولة الفاطمية في مصر موقف الضعف الذي أصابها فإنه لم ينجح، وحتى إذا صادف نجاحاً في أول الأمر وامتلك مدينة أو حصناً، لا يلبث أهل هذه المدينة أو جنود هذا الحصن أن يعلنوا ثورتهم، ويدخلون في صراع وقتال حتى يجلوا الفاطميين من عندهم، تكرر هذا على عهد الخليفة المستنصر بالله. ففي ربيع الآخر سنة (٤٥٦ هـ / ١٠٦٣م) تمكن أمير الجيوش بدر الجمالي من أن يضم دمشق إلى الخليفة الفاطمي في مصر، ولكن جند دمشق ثاروا عليه، وانضمت العامة إلى الجند، فضعف أمر الفاطميين واضطروا إلى الجلاء عن دمشق في شهر رجب[3]. ومن الغريب أن بدر الجمالي يكرر المحاولة في سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٧م)، ويضرب الحصار على دمشق، وكان عليها تاج الدولة تتش السلجوقي، وشدد الجمالي الحصار على دمشق، وضيق الخناق على أهلها، ودخل في قتال شديد مع جنودها، ولكنه لم يحرز النصر المنشود، فعاد إلى مصر بعسكره[4].

وفي سنة (٤٦٢ هـ / ١٠٧٠م) سار أمير الجيوش بدر الجمالي من مصر على رأس جيش كبير العدد واتجه إلى مدينة صور، وضرب عليها الحصار، وكانت في يد القاضي عين الدولة بن أبي عقيل، الذي استغاث بالسلاجقة المقيمين بالشام، فقاموا بنجدته، وفكوا حصار الجيش الفاطمي عن صور. ولكن ما لبث أن عاود

---

(١) اسم قبيلة عربية.

(٢) كوش: من قرى فلسطين. راجع البغدادي: مراصد الاطلاع، حـ٣ ص١١٨٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل حـ١٠ ص٣٠.

(٤) ابن الأثير: نفسه ص١٤٥.

بدر الجمالي ضرب الحصار عليها، وظل محاصراً لها في هذه المرة براً وبحراً قرابة عام، ولكنه لم يحظ من صور بطائل لمناعتها، فانصرف عنها ورحل.

وكان من الطبيعي وبسبب كثرة ما أنفق على الإعداد لهذه الغزوات أن ازدادت حدة الغلاء الفاحش في مصر والذي استمر سبع سنوات وانتشرت مجاعة كبيرة، حتى أكل الناس الجيفة، وفارق كثير منهم البلاد واتجهوا إلى بغداد هرباً من شدة الجوع، وكان من بينهم أم المستنصر وبناته[1] وبعض التجار، الذين كانوا يحملون بعض ثياب الخليفة الفاطمي المستنصر، وبعض أمتعته التي نهبت من داره، وقد وجد من بينها بعض الأشياء التي كانت قد نهبت من دار الخلافة العباسية ببغداد، وبعض الأشياء التي كانت قد نهبت من دار البساسيري. ونتيجة لهذه الصورة القاتمة تشجع أهل مكة المكرمة فأسقطوا اسم الخليفة الفاطمي المستنصر من الخطبة، وذكروا اسم الخليفة العباسي القائم بأمرالله، والسلطان السلجوقي ألب أرسلان. وتبعهم في ذلك أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس، فأسقط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة في السنة التالية (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م)، وجعلها للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[2].

وكان لتدخل المرأة في شئون الدولة، وسيطرتها على مقاليد الحكم في الدولة الفاطمية أثره البارز في ضعفها، واضمحلالها، فقد تغلبت أم الخليفة المستنصر الفاطمي على أمور الدولة، فقد عينت لها وزيراً (كمستشار) يهودياً هو أبا سعيد إبراهيم التستري، الذي أشار عليها بتعيين أبي نصر الفلاحي في الوزارة، فعينته، وصارت الأمور بين الرجلين على وفاق، ولكن أبا نصر الفلاحي ما لبث أن انفرد بالحكم، وحدثت بينهما فجوة، خاف من أجلها الفلاحي، وتوقع أن يفسد التستري أمره مع أم الخليفة، فلجأ إلى اصطناع الغلمان الأتراك واستمالهم إلى جانبه، وأكثر لهم العطاء، حتى وثق منهم، فأوعز إليهم بقتل التستري مستشار أم الخليفة، ففعلوا ذلك وقتلوه، فعظم ذلك على أم المستنصر، ودفعت ابنها الخليفة

---

(١) راجع تفصيل ذلك في ابن تغري بردي: النجوم، جـ٥ ص٢ وما بعدها وقد استمرت المجاعة من ٤٥٧ إلى ٤٦٤هـ.

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٠ ص ٦١ - ٦٣.

فقبض على الفلاحي، وأودعه السجن، فأرسلت هي من قتله في نفس الليلة.

عينت أم الخليفة المستنصر أبا البركات حسن بن محمد في الوزارة بعد التستري، ثم ما لبثت أن عزلته لعدم استجابته لما أمرته به من تحريض العبيد على الأتراك الذين قتلوا وزيرها ومستشارها. فلما ولي أبو محمد اليازوري - من أهل الرملة بفلسطين - الوزارة، أمرته بنفس الشيء، فلم يفعل، وأخذ يصانعها لعله يصلح أمر الدولة، ولكنه قتل. فلما وزر أبو عبد الله الحسين البابلي وأفضت إليه برغبتها، نفّذ لها ما تريد، فكان من أسباب قيام الفتن والحروب بين العبيد والأتراك التي انتهت بانهيار الدولة الفاطمية[1].

فقد ترتب على اندلاع هذه الفتن والحروب أن تكرر ظهور المجاعات في مصر، فغلت الأسعار بدرجة جنونية، وامتدت أيدي الجنود إلى النهب والقتل، واشتد الجوع على الأهالي وكثر الموت فيهم بسببه، وبسبب الوباء الذي انتشر وعظم أمره، لدرجة أن أهل البيت الواحد كانوا يموتون كلهم في ليلة واحدة.

شجعت هذه الأحوال المضطربة في مصر ناصر الدولة ابن حمدان، الذي كان طامعاً فيها، فأكثر من إغاراته على مدنها، وقام بنهبها، وأحرق كثيراً من أطرافها، ثم أسقط اسم الخليفة المستنصر من الخطبة على منابر الاسكندرية ودمياط وفي قرى كثيرة من ريف مصر. وأرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله العباسي يطلب منه الخلع ليخطب له في مصر. ويبدو أن القائم بأمر الله تباطأ في إجابة مطلب ابن حمدان، فأرسل رجلاً من أتباعه إلى المستنصر الفاطمي يطلب منه أموالاً، فلما وصل الرجل وجد المستنصر جالساً على حصير، وليس حوله غير ثلاثة من الخدم، فلما أبلغه بمطلب ابن حمدان قال له: أما يكفي ناصر الدولة ابن حمدان أن أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟ فبكى الرسول، وعاد إلى ناصر الدولة ابن حمدان وأبلغه بما رأى وسمع، فقرر للمستنصر مائة دينار في كل يوم، وعاد إلى القاهرة وحكمها وأذل من بها من الحكام، وكان ابن حمدان يميل إلى المذهب السني، وانحاز المغاربة الموجودون في مصر إليه، فقوي أمره

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٨٠ و٨٢.

وقبض على أم المستنصر، وصادر أموالها، ولم تكن تزيد على خمسين ألف دينار، وتفرق عن الخليفة المستنصر الفاطمي أهله وأتباعه وأولاده، واتجهوا إلى المغرب، وتفرقوا في البلاد، ومات الكثير منهم جوعاً[1].

ومع كل ما أصاب الدولة الفاطمية في مصر من ضعف وتفكك، فقد أتاح لها النزاع الدائر بين أفراد البيت السلجوقي، والحروب المشتعلة بينهم من أجل السلطة، والتي كانت بداية لنهاية الدولة السلجوقية، أتاح لها أن تستعيد شيئاً من أنفاسها، وتسترد بعضاً من مظاهر قوتها ـ ولو لوقت غير طويل ـ فقد تمكنت من ضم بعض مدن الشام الساحلية، ففي سنة (٤٨١ هـ/١٠٨٨م) خرجت العساكر الفاطمية من مصر بقيادة أمير الجيوش بدر الجمالي، فوصلت إلى مدينة صور وضربت عليها الحصار، وكان صاحبها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل، وكانت صور قد امتنعت على الفاطميين من قبل، فلما توفي ابن عقيل، ووليها أولاده، عاود جيش مصر الفاطمي الكرة وضرب على صور الحصار، فاستسلم أبناء عين الدولة، وسلموا المدينة إلى بدر الجمالي. ثم واصل الجيش الفاطمي مسيره إلى مدينة صيدا وضرب عليها حصاراً سريعاً انتهى باستيلائه عليها. ومنها توجه إلى مدينة عكا، وحاصرها وشدد الخناق على أهلها، فاستسلموا إلى الفاطميين وسلموهم المدينة. ثم واصلوا تقدمهم إلى مدينة جبيل فملكوها كذلك. ووضع أمير الجيوش بدر الجمالي في كل بلد من يتولى أمرها، ويحفظ الأمن والنظام بها، ثم عاد ببقية جنوده إلى مصر[2].

كان أمير الجيوش بدر الجمالي قد عين الأمير منير الدولة الجيوشي على مدينة صور، ولما استقرت أمورها له أعلن الخروج على الخليفة المستنصر وعلى أمير الجيوش بدر الجمالي، فأرسل بدر الجمالي جيشاً من مصر إلى صور وصلها في جمادي الآخرة سنة (٤٨٦ هـ/١٠٩٣م) فضرب الحصار عليها، فثار أهلها على منير الدولة الجيوشي، ونادوا بشعار الخليفة الفاطمي، فدخل جنوده المدينة

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) ابن الأثير. نفسه، ص١٧٦.

أثناء هذه الاضطرابات، وقبضوا على الجيوشي ومعاويه، وسيقوا إلى مصر حيث ضربت أعناقهم جميعاً[1].

وبعد بدر الجمالي تولى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه في عهد الخليفة المستعلي بالله بن المستنصر. ولم يسلم المستعلي من الثورات والفتن، ففي ربيع سنة (٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م) أظهر كتيلة، الوالي الفاطمي على صور، الخروج على المستعلي، فسير إليه الأفضل جيشاً كثير العدد/حاصر المدينة، وقاتل أهلها بضراوة وفتحها عنوة، وقبض على كتيلة أسيراً، وأرسل إلى مصر حيث ضربت عنقه.

وزادت الحرب الأهلية التي نشبت في مصر بين (المستعلية) أنصار الخليفة المستعلي، وبين (النزارية) أنصار أخيه نزار، الذي كان والده الخليفة المستنصر قد عهد بالإمامة (الخلافة) إليه من بعده، ولكن أخاه المستعلي انتزعها منه، واضطر نزار إلى الهرب في الاسكندرية وتحصن بها، وساعده قاضيها جلال الدولة بن عمار، ولكن المستعلي حاربه في الاسكندرية وقبض عليه وعلى مؤيديه فقتلهم وأمر ببناء حائط على أخيه فمات[2]. وقد لعب الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي دوراً بارزاً في هذه الحرب، مما زاد في سلطانه وتسلطه على أمور الدولة، وبلغ في ذلك شأواً كبيراً أكثر مما كان لأبيه وتلك إشارة واضحة تدل على ما وصل إليه الخلفاء الفاطميون في أواخر حكمهم من ضعف، وعدم قدرة على تسيير شئون الدولة.

وقد ترتب على هذه الفتن وهذه الحروب أن ازدادت مصر والخلافة الفاطمية ضعفاً على ضعفها، فقد قتل خلق كثير، وضاعت أموال عظيمة، ولم ينته الصراع بين أنصار المستعلية والنزارية وأتباعهما، مما أحدث شرخاً عميقاً في صلب الدعوة الفاطمية الشيعية التي انقسمت على نفسها، فقد خرج أتباع نزار من مصر

---

(١) ابن خلدون: تاريخ، جـ ٤ ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٢٣٨.

بعد قتله، واتجهوا إلى قلعة الموت في إيران[1]، حيث استقروا بها، أما المستعلية فقد ظلوا على ولائهم وتأييدهم للخليفة المستعلي حتى قدم الصليبيون إلى المشرق الإسلامي، وكونوا إماراتهم الصليبية في الشام.

وكان للانقسام المذهبي دوره الفعال في ازدياد ضعف الدولة الفاطمية، ذلك لأنها تعرضت لهذا الانقسام في فترتين متقاربتين، فعقب وفاة المستنصر بالله سنة (٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م) حدث الانقسام الأول، وعقب وفاة الآمر بأحكام الله سنة (٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م) حدث الانقسام الثاني، فقد انقسمت الشيعة الإسماعيلية إلى حافظية وطيبية (نسبة إلى الحافظ ابن عم الخليفة الآمر بأحكام الله، وإلى الطيب بن الآمر بأحكام الله)، وقد أدى هذا الانقسام إلى اتساع الشقة بين أتباع المذهب الفاطمي نفسه. وقد سبق أن حاول السلاجقة طرد الفاطميين نهائياً من الشام، بل فكروا في غزو مصر، والقضاء على المذهب الشيعي، فقد أمر السلطان ملكشاه قسيم الدولة آقسنقر البرسقي - صاحب حلب - أن ينضم بعساكره إلى بوزان - صاحب الرها - ويسير الجميع مع تاج الدولة تتش - صاحب دمشق - للاستيلاء على ممتلكات الخليفة الفاطمي المستنصر بسواحل الشام، ثم إلى مصر لامتلاكها[2].

ولم يكن هذا الخلاف المذهبي قاصراً على داخلية الدولة الفاطمية، ولكنه كان قائماً بين الدولتين الإسلاميتين، العباسية في بغداد، والفاطمية في مصر، وقد نتج عنه ضعفهما واضمحلالهما وتفككهما، لأن انشقاق المسلمين على أنفسهم، ووجود مذهب سني في بغداد، وآخر شيعي في مصر[3] زاد في حدة الصراع بينهما، خاصة عندما تآمر بنو بويه مع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله للقضاء على

---

(١) شيد هذه القلعة حسن الصباح زعيم الشيعة الإسماعيلية في الشام، وكانت موقعاً استراتيجياً هاماً ومركزاً شيعياً خطيراً، لعب دوراً بارزاً في الصراع مع أهل السنة، ابن الأثير، الكامل جـ١٠ ص٢٧ـ٢٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل جـ١٠ ص٢٠٢ وكذلك Cam Med. Hist, Vol V, P.60

(٣) من الجدير بالذكر أن المصريين في مجموعهم ظلوا معتنقين للمذهب السني الذي عرفوه منذ الفتح العربي لمصر، ولم يغير وجود خلافة فاطمية شيعية في مصر من استمساكهم بهذا المذهب السني.

الخلافة العباسية، وضم بغداد إلى الدولة الفاطمية في مصر، واضطر الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م) إلى الاستنجاد بالسلاجقة(١) لكي يساعدوه في الدفاع عن المذهب السني، الذي كانوا قد اعتنقوه عند إسلامهم، وبذلك قضى السلاجقة على مخطط الفاطميين، وفشلت تلك المؤامرة، وكانت النتيجة أن وقف الفاطميون من السلاجقة السنيين موقفاً عدائياً، وكرهوهم، ودفعهم هذا الكره إلى الاعتقاد أن قيام دولة صليبية في الشام سوف يكون حاجزاً يحول دون زحف السلاجقة إلى مصر وضمها إلى ممتلكاتهم(٢).

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، جـ١ ص٨٠-٨١.

(٢) العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص٦.

الفصل الثالث

القوى المسيحية في المشرق

الامبراطورية البيزنطية

أخذت الامبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) تستعيد قوتها ومركزها أمام القوى الإسلامية في الشرق، فقد تمكن الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩م/ ٣٠١ - ٣٤٨ هـ) من شن حروبه ضد المسلمين، وكان يرنو ببصره لاسترداد الأراضي المقدسة التي كان المسلمون قد فتحوها منذ قرون مضت، وقد برز هذا النفوذ السياسي بشكل واضح خلال النصف الأول من عهد الأسرة المقدونية إلى وفاة الامبراطور باسيل الثاني سنة (١٠٥٢م/ ٤٤٤ هـ) ففي هذه الفترة تمكنت الامبراطورية البيزنطية من أن تصل إلى درجة كبيرة من الاستقرار السياسي، والتقدم والازدهار الحضاري، وأصبحت عاصمة الامبراطورية واحدة من أهم المراكز الحضارية في العالم آنذاك، لأنها استعادت مكانتها كقوة لها وزنها الدولي أمام العالمين الإسلامي والمسيحي. فقد هاجمت بيزنطة جيوش المسلمين في ثغورهم في آسيا الصغرى، واستعادت مناطق كثيرة منها، وامتدت حدودها إلى شمال العراق وأرمينيا، ووصلت إلى مشارف الشام. ففي سنة (٣٣٠ هـ/ ٩٤١م) وفي عهد الخليفة العباسي المتقي أغارت عساكر الدولة البيزنطية على بلاد الشام، ووصلوا إلى مشارف حلب، وعاثوا فساداً في القرى والمدن القريبة منها، وسبوا ما يقرب من خمسة آلاف امرأة[1].

ثم أخضعت الروس والبلغار، وقويت قبضتها على ممتلكاتها في جنوب

---

(١) ابن خلدون. تاريخ، جـ٣ ص٤١٧.

إيطاليا[1]. كما أنها قضت على الحركات الانفصالية التي قام بها نبلاء الإقطاع في آسيا الصغرى بسبب ما فرض عليهم من ضرائب قررها باسيل الثاني عرفت باسم (نظام اللاا جيون) . The Allelengyon system والتي كان من الممكن أن تؤدي إلى تدمير طبقه النبلاء سياسياً وروحياً[2].

وعندما توفي قسطنطين السابع خلفه ابنه رومانوس الثاني (٩٥٩ - ٩٦٣م/ ٣٤٨ - ٣٥٢ هـ). فأرسل قائده نقفور فوكاس سنة (٩٦٠م/ ٣٤٩ هـ). لاسترداد جزيرة كريت من أيدي المسلمين، ونجح نقفور فوكاس في ذلك سنة (٩٦١م/ ٣٥٠ هـ). واستعادت الامبراطورية سيطرتها ومركزها الاستراتيجي والاقتصادي شرقي البحر الأبيض المتوسط[3].

وكان مسلمو الأندلس قد فتحوها في عهد ميخائيل الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩م/ ٢٠٥ - ٢١٤ هـ)، عندما استغلوا انشغال أساطيل الامبراطورية وجيوشها في إخماد الحركات الثورية التي انتشرت في أرجاء بيزنطة، واستولوا على جزيرة كريت سنة (٨٢٥م/ ٢١٠ هـ)، وأسسوا بها مدينة جديدة أحاطوها بخندق، وعرفت المدينة باسم الخندق، وأصبح علماً على الجزيرة أو على أكبر مدنها[4]، وقد حاول الامبراطور ميخائيل الثاني استرداد كريت من أيدي المسلمين في محاولتين بذلهما، ولكنه فشل فيهما، وبقيت كريت في أيدي المسلمين مدة تزيد على قرن وربع إلى أن استعادها نقفور فوكاس سنة (٩٦١م/ ٣٥٠ هـ). ثم أخذ نقفور بعد ذلك في مهاجمة الحمدانيين وتمكن من استرداد بعض الحصون والقلاع الهامة في قيليقية.

ومع أن نفوذ الامبراطورية في تلك الفترة كان آخذاً في الازدياد، إلا أن علاقتها بالمسلمين في شمال أفريقية (الدولة الفاطمية) كانت تتأرجح بين العداء والمهادنة، ففي سنة (٣٥٠ هـ/ ٩٦١م) طلبت الدولة البيزنطية تحديد الهدنة التي

(١) Setton; The Byzantine Empire, PP.177-178

(٢) Vasiliev, op, cit PP. 345-349

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١ ص٤٠٩.

(٤) Vasiliev; op, cit, Vol.I P.367 وعاشور: أوروبا، حـ١ ص٤٠٠.

كانت بين الدولتين، وبمقتضاها تدفع بيزنطة جزية متفق عليها للفاطميين، ولكن عندما تولى نقفور فوكاس عرش الامبراطورية[1] رغب في عدم دفع هذه الجزية، ولكنه عاد وأقر بدفعها بعدما هزمت أساطيله في صقلية في موقعتي رمطة والمجاز عامي (٣٥٣ - ٣٥٤ هـ[2]/ ٩٦٤ - ٩٦٥م).

وكان المسلمون قد وجهوا أسطولهم بقيادة الأمير أحمد بن علي للاستيلاء على قلعة طرمين في جزيرة صقلية ،وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية، وكانت طرمين قلعة حصينة، وتمكن المسلمون من حصارها، وقطعوا عنها المياه، فطلب أهلها الأمان، فلم يجبهم قائد الأسطول الإسلامي، فعادوا وطلبوا تأمين دمائهم، فأجابهم المسلمون على أن يكونوا رقيقاً لهم، وتكون أموالهم فيئاً للمسلمين، الذين امتلكوها وأطلقوا عليها اسم قلعة المعزية ، نسبة إلى المعز الفاطمي صاحب أفريقية[3].

وأراد نقفور أن يثأر لما أصاب جيوشه في صقلية فشدد ضرباته على مدينة المصيصة[4] وحاصرها ثلاثة شهور سنة (٣٥٣ هـ / ٩٦٤م). ومنع عن أهلها الميرة والزاد حتى اضطروا إلى أكل لحم الميتة، فانتشرت فيهم الأوبئة، واستسلمت المدينة إليه[5] وحينما رأى أهل طرطوس[6] ما أصاب المصيصة وأهلها، طلبوا السلامة، وسلموا مدينتهم إلى الامبراطور نقفور فوكاس، وبذلك وضع البيزنطيون أيديهم على مداخل الشام.

ولم يلبث البيزنطيون أن توجوا نشاطهم الحربي ضد القوى الإسلامية في المشرق باستيلائهم على مدينة أنطاكية سنة (٣٥٩ هـ / ٩٧٠م)، وكانت في أيدي

(١) راجع تفاصيل هاتين المعركتين في ابن الاثير الكامل، جـ٨ ص٥٥٥ وما بعدها

(٢) حكم نقفور فوكاس ست سنوات (٩٦٣-٩٦٩) وقد تزوج من أرملة رومانوس الثاني وتسمى ثيوفانو، وكانت وصية على ولديها الصغيرين باسل الثاني، وقسطنطين الثامن - راجع عاشور: أوروبا، جـ١ ص ٤١٠.

(٣) ابن الأثير الكامل، جـ٨ ص٥٤٣.

(٤) المصيصة: على شاطىء جيحان بين أنطاكيا وبلاد الروم بالقرب من طرسوس - ياقوت، جـ٥ ص١٤٤-١٤٥.

(٥) ابن الأثير نفسه، ص٥٥٢ وما بعدها.

(٦) طرطوس: من ثغور الشام بين أنطاكيا وحلب وبلاد الروم. ياقوت جـ٤ ص٢٨.

المسلمين منذ فتحوها سنة (١٤ هـ / ٦٣٥م)، وبذلك حصلوا على مدينة هامة لها مكانتها الاستراتيجية باعتبارها مدخلاً لبلاد الشام، ولها مركزها الاقتصادي، لعلاقتها التجارية مع بلدان آسيا الصغرى ومدن الشام، وجزر البحر الأبيض المتوسط، كما أنها كانت ذات منزلة روحية عند المسيحيين، وقد بقيت أنطاكيا تابعة للامبراطورية البيزنطية إلى أن استعادها الأتراك السلاجقة سنة (٤٧٧ هـ / ١٠٨٤م).

وقد ترتب على سقوط مدينة الرها في أيدي البيزنطيين أنهم ضربوا الحصار على مدينة حلب، فاضطر حاكمها قرغويه مولى سيف الدولة الحمداني إلى إقناع سيده بدفع الجزية للبيزنطيين سنوياً، وأبرمت بين الطرفين معاهدة أقرت فيها الهدنة، وبقي قرغويه يحكم حلب باسم البيزنطيين، وقد وصل ضعف الحمدانيين في تلك الفترة إلى أنهم قبلوا شروطاً مهينة منها: أن يعين الامبراطور البيزنطي من يشاء على المدينة بعد وفاة قرغويه وبكجور. وألا يختار المسلمون حاكماً منهم على المدينة، ولا يطلبوا مساعدة من المسلمين لتغيير تلك الشروط أو تبديلها. كما حددت الاتفاقية المدن التي تدخل في أعمال حلب، والمدن التي تكون ملكا للامبراطورية البيزنطية[1].

أما في خلال النصف الثاني من حكم الأسرة المقدونية فقد كانت الامبراطورية البيزنطية في حالة من الاضطراب والفوضى وتفاقم المشكلات الداخلية، واستمرت على هذه الحالة قرابة ربع قرن (١٠٥٦ - ١٠٨١م)، وذلك لعدم وجود أباطرة أقوياء يكون لهم أثرهم في مجريات الأحداث، وكان للمرأة دورها في هذا الضعف الذي أصاب الامبراطورية في تلك الفترة فقد تآمرت تيوفانو أرملة الأمبراطور رومانوس الثاني وزوجة نقفور فوكاس مع عشيقها حنا شمشقيق[2](John Tzimisces I) على نقفور لفظاظته مع ولديها الصغيرين باسيل

(١) راجع نص الاتفاقية كاملاً في ابن الأثير: الكامل، جـ٨ ص٦٠٤، وكذلك توفيق: الدولة البيزنطية، ص١٤٦ وما بعدها.

(٢) لفظ أرمني بمعنى قصير القامة ـ راجع ابن العبري: مختصر ص١٦٩؛ وعاشور: أوروبا جـ١ ص٤١١.

الثاني، وقسطنطين الثامن، اللذان كانا تحت وصايتها، ونجحت المؤامرة وقتل نقفور فوكاس أثناء نومه، وأعلن حنا الأول امبراطوراً سنة ٩٦٩م، وبدلاً من أن يتزوج حنا الأول شريكته في المؤامرة وعشيقته ثيوفانو، أخذ يتوجس منها خيفة وخشي أن تفعل به مثلما فعلت مع نقفور فأمر باعتقالها في أحد الأديرة. وبعد وفاة قسطنطين الثامن سنة ١٠٢٨م ترك ابنتان هما زوي وثيودورا وكان لكل منهما دورهما في إضعاف وتفكك الأمبراطورية.

فقد اعتلت زوي Zoe أرملة الامبراطور باسيل الثاني عرش الامبراطورية، ولعبت دوراً هاماً وخطيراً في توليه الأباطرة عرش البلاد، فقد تزوجت خلال اثنين وعشرين سنة (١٠٢٨ ـ ١٠٥٠) ثلاث مرات، وفي كل مرة تختار من يتزوجها ليشاركها حكم الامبراطورية، وكانت فترة حكمها مع زوجها الأخير قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤)[١] من أحلك أيام الامبراطورية وأشدها ضعفاً، حيث تمكن النورمان من القضاء على النفوذ البيزنطي في إيطاليا، وازدادت روح التذمر بين أهالي الامبراطورية نتيجة للضرائب القاسية المفروضة عليهم. وبعد موت زوي سنة ١٠٥٠م خلفتها أختها ثيودورا Theodora وكانت تختلف عنها، ربما لتقدم الحياة بها، وبحكم حياتها الطويلة في أحد الأديرة مما أكسبها صلابة في الرأي، واستقامة في الحياة، ولكنها توفيت بعد ثلاث سنوات (١٠٥٧) ولم تتمكن من إصلاح أي شيء. وبذلك تعرضت الدولة البيزنطية إلى أخطار متعددة في الداخل والخارج.

ففي الداخل تعرضت حكومة الأمبراطورية إلى ثورة نبلاء الإقطاع والعناصر العسكرية التى اندلعت في الأقاليم، والتي انتهت بانتصار الأقاليم والعناصر العسكرية، وتوليه ألكسيوس كومنين عرش الأمبراطورية سنة ١٠٨١م. وتكفي الإشارة إلى اضطراب الأمور وعدم الاستقرار السياسي في الدولة إلى أن ستة من الأباطرة تولوا عرش بيزنطة خلال هذه المدة (٢٥ عاماً)، فقد أجبر البلاط

---

(١) Vasiliev; op. Cit Vol. I, P. 400

الأمبراطوري ثيودورا على اختيار امبراطور للدولة، فاختارت ستراتيو تيكوس ميخائيل السابع، وقد توفيت ثيودورا في عهده (١٠٥٧م) ومن بعده تولى إسحق الأول لمدة عامين (١٠٥٧-١٠٥٩) ثم قسطنطين العاشر لمدة تزيد على ثمان سنوات (١٠٥٩-١٠٦٧)، ثم رومانوس ديوجينس الرابع (١٠٦٧-١٠٧١) الذي هزم في موقعة مانزيكرت، ومن بعده حكم ميخائيل السابع مرة ثانية (١٠٧١-١٠٧٨) ثم نقفور الثالث (١٠٧٨-١٠٨١) وبوفاة نقفور الثالث تنتهي فترة الاضطرابات والفوضى التي استمرت منذ النصف الثاني من عهد الأسرة المقدونية، حيث يتولى مسئولية الحكم في الامبراطورية البيزنطية أسرة جديدة تبدأ بحكم الامبراطور ألكسيوس كومنين، الذي تمكن من القضاء على حالة الفوضى والاضطراب التي كانت سائدة في الدولة.

وفي الخارج تعرضت الامبراطورية إلى ضغوط من أعدائها في الشرق والغرب، فانتقصوا من ممتلكاتها كما فعل النورمان في إيطاليا، والبجناك[1] في الشمال، والأتراك السلاجقة في الشرق.

النزاع المذهبي:

إلى جانب الفتن والثورات والاضطرابات الداخلية، والضغوط الخارجية من أعداء الامبراطورية البيزنطية كان هناك النزاع المذهبي بين الكنائس الشرقية داخل الامبراطورية وممتلكاتها، فقد ساعد هذا النزاع المذهبي على وقوعها تحت سيطرة الكنيسة الرومانية الغربية، وبالتالي مهد لانتصار الصليبيين في الشرق الأدنى، وساعدهم في تكوين دولة مواطنوها من المسيحيين الكاثوليك المعارضين للمذهب الأرثوذكسي الذي يعتنقه البيزنطيون. فقد بلغ عداء الكنائس الشرقية بين البيزنطيين

---

(١) أقوام من الترك بدويون اشتهروا بحبهم الشديد للحرب، أغاروا على شمال بلغاريا، وأصبحت منازلهم قريبة من نهر الدانوب. راجع Bury: Eastern Roman Empire, PP 242-425, والعريني: الدولة البيزنطية ص ٣٧٦ •

والأرمن والسريان واليعاقبة أشده في أعقاب حركة التوسع البيزنطية في الشرق منذ القرن العاشر الميلادي، فبعد قليل من ضم أنطاكية إلى الدولة البيزنطية في عهد الامبراطور حنا الأول (شمشقيق) أخذ رجال الدين البيزنطيون (الأرثوذكس) يضطهدون إخوانهم رجال الدين الأرمن (الكاثوليك) ، وبعد أن اتخذ الأرمن مدينة آني [1] عاصمة لهم، وقع الاضطهاد على بطرس الأرمني، ثم على ابن أخيه جاجلك الأول (٩٩٠ ـ ١٠٢٠م)؛ بقصد إجبارهم على التسليم بمبادىء الكنيسة الأرثوذكسية التي يعتنقها البيزنطيون.

وجد الملوك الذين تنازلوا عن ممالكهم الوراثية للامبراطورية البيزنطية، وأخذوا بدلاً منها إقطاعات في كبادوكيا، وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين ليجبروهم على اعتناق المذهب الأرثوذكسي، وترتب على ذلك ازدياد التصدع بين أصحاب المذهبين من المسيحيين الشرقيين أبناء الامبراطورية البيزنطية، وعدم تماسكهم وظهور روح البغضاء لبعضهم، وقد وضح ذلك فيما أبداه المؤرخون المعاصرون من الأرمن (مثل متى الرهاوي) من ارتياح عندما حلت الهزيمة المرة بالبيزنطيين في مانزيكرت. بل لقد بلغت بهم درجة تشفيهم في إخوانهم البيزنطيين إلى مديح السلطان ملكشاه السلجوقي، والأمراء السلجوقيين لما حققوه للأرمن من هدوء وراحة بال. وقد ترتب على ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وجهت الاتهام إلى الأرمن المشتركين في موقعة مانزيكرت بأنهم تقهقروا أمام السلجوقيين، أو بمعنى آخر تشككت في وجود تواطؤ بين الأرمن والسلاجقة.

وكان من الطبيعي أن ينتقم المهاجرون الأرمن لأنفسهم، فانتهزوا فرصة هزيمة البيزنطيين في مانزيكرت وصبوا جام غضبهم وشديد انتقامهم على رجال الكنيسة الأرثوذكسية في كبادوكيا. فقد قبض جاجك الثاني ملك الأرمن السابق في آني على مطران قيصرية الأرثوذكسي وحبسه في جوال محكم، ومعه كلب شرس

---

(١) أول عاصمة للأرمن في موطنهم الجديد في جنوب شرقي آسيا الصغرى، ثم نقلوا عاصمتهم بعد ذلك إلى مدينة سيس. راجع Vasiliev; op. cit I p.314

حتى قضى نحبه[1]. وكان رد البيزنطيين على ذلك تصيدهم لجاحك الثاني وقتله سنة ١٠٩٧م.

ولم يكن حنق المسيحيين السريان على البيزنطيين أقل شدة من حنق الأرمن، لا سيما بعد أن استرد البيزنطيون أنطاكية والرها. فقد أساء رجال الكنيسة الأرتوذكسية (البيزنطيون) إلى رجال الكنيسة المحلية (الكاثوليك من السريان)، ولذلك فعندما أصيب الامبراطور رومانوس الثالث بالهزيمة بالقرب من حلب سنة ١٠٣٠م على أيدي السلاجقة المسلمين، عبر السريان عن فرحتهم في البيزنطيين، وأخذ المؤرخ ميخائيل السرياني يعبر عن تلك الفرحة في كتاباته وأعرب عن تفضيل السريان لحكم السلاجقة على البيزنطيين، لأن السلاجقة ينهبون ويسلبون في الحروب، ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة، بينما اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكاية وأسوأ أثراً[2].

وهكذا يتضح لنا أن ما قامت به الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر وبداية الحادي عشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها في شرقي آسيا الصغرى وبلاد الشام نتج عنه استياء جميع العناصر السكانية، التي كان من الممكن أن تظل على ولائها للامبراطورية ضد المسيحيين الكاثوليك الغربيين. وقد ساعد شعور الاستياء بين هذه العناصر السكانية في تسهيل وتيسير قيام الإمارات الصليبية الأربع في المنطقة الشامية، لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بالكراهية والنفور حيال الصليبيين الكاثوليك مثلما شعروا بها حيال البيزنطيين الأرثوذكس. وسوف تشهد فترة الحروب الصليبية تقارباً ملحوظاً بين الكنيسة الأرمينية والبابوية، ونتيجة للمعاملة الطيبة التي أبداها الصليبيون للأرمن والسريان أصبح هؤلاء حلفاء لهم، ليس ضد المسلمين فحسب، بل ضد البيزنطيين كذلك.

وقد وصل ضعف الامبراطورية البيزنطية أمام ضربات السلجوقيين وضغطهم عليها في ممتلكاتها وتوسعهم في آسيا الصغرى إلى أن يطلب الامبراطور ميخائيل

---

(١) عاشور، العلاقات، ص٧٧.

(٢) Runciman; op. cit. P. 75 عاشور: نفسه، ص٧٨.

السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٩) عقد اتفاقية مع سليمان بن قتلمش قائد جيش السلطان ملكشاه سنة ١٠٧٤م، سلم فيها الامبراطور بحق السلاجقة في حكم الأراضي التي فتحوها فعلاً في آسيا الصغرى.

ويبدو ما كان عليه سلاطين السلاجقة من قوة وسعة نفوذ، وضغطهم الشديد على الامبراطورية البيزنطية، أن السلطان ملكشاه كان في أصبهان يعد العدة متجهاً لفتح سمرقند، لأن أهلها استغاثوا به من ظلم حاكمهم أحمد خان، وفي أثناء تجهيز جيوشه حضر إليه بأصبهان رسول الامبراطور البيزنطي يحمل إليه الجزية المقررة عليه، فأخذه نظام الملك وزير السلطان معه ليشهد فتح ما وراء النهر، فلما وصل السلطان والوزير والجيش إلى منطقة كاشْغر[1]، أذن له نظام الملك في الانصراف وقال: «أحب أن يذكر عنا في التواريخ أن رسول ملك الروم حمل الجزية وأوصلها إلى باب كاشغر، لينهي إلى الامبراطور اتّساع دولة السلطان فيعظم خوفه منه، ولا تحدثه نفسه بخلاف الطاعة له»[2]. ومع ذلك استنجد الامبراطور ميخائيل السابع بالبابا جريجوري السابع (بابا روما) ووعده بأنه سيعمل على إزالة الخلاف بين الكنيسة الشرقية (بيزنطة) والكنيسة الغربية (روما) في مقابل ما يقدمه جريجوري من مساعدات لبيزنطة ضد السلاجقة، العدو الذي أرق حكام الامبراطورية. وفعلاً استجاب البابا جريجوري السابع أملاً في التقارب بين الكنيستين، وأرسل إلى ملوك أوروبا وأمرائها يوضح لهم حقيقة موقف المسيحية في الشرق، وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من متاعب ومصاعب وآلام، وما تنتظره من أخطار نتيجة للتوسع الإسلامي الذي يتم على أيدي السلاجقة، ولكن ملوك أوروبا وأمراءها أعرضوا عنه. ويرجع السبب في ذلك إلى الصراع القائم بين البابوية في روما وبين الامبراطور هنري الرابع حول التقليد العلماني، وقد ترتب على ذلك وقوف الامبراطورية البيزنطية وحدها أمام خطر السلاجقة.

وحتى بعد أن عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩م، وجلس الامبراطور نقفور

---

(١) كاشغر: في وسط بلاد الترك، يسافر إليها من سمرقند ـ ياقوت، جـ٤ ص٤٣٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٠ ص١٧١.

الثالث على عرش الامبراطورية فإن حكمه لم يدم سوى أقل من ثلاث سنوات (١٠٧٩ - ١٠٨١م) حيث أطاحت به ثورة الجيش، وأعلنت تولية ألكسيوس كومنين امبراطوراً للدولة البيزنطية سنة ١٠٨١م.

ومع كل المحاولات التي قام بها ألكسيوس كومنين لإصلاح الامبراطورية، فلم تتوان عنها ضربات السلاجقة، حيث زادت توسعاتهم في آسيا الصغرى، ولم تمنع وفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢، ولا النزاع القائم بين أولاده على تقسيم الدولة فيما بينهم من استمرار قبضة الأتراك السلاجقة على أراضي الدولة البيزنطية. ولم يجد الامبراطور ألكسيوس كومنين وسيلة لدفع هذا الخطر إلا الالتجاء إلى البابوية في روما عدة مرات، وأخيراً أرسل بعثة من عنده إلى البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام ليثير الناحية الدينية في مسيحيي أوروبا ضد المسلمين في الشرق، مما أدى إلى إرسال الحملات الصليبية، وتكالب الصليبيين على الشرق الإسلامي.

الفصل الرابع

ظهور دولة الأتابكة

كلمة (أتابك) تركية الأصل، وهي مركبة من لفظين، (أتا) بمعنى مربي (وبك) بمعنى أمير، ومعناهما معاً مربي الأمير، أو الأمير الوالد[1]. وكانت لقباً يطلق على الأمراء والقواد العسكريين الذين يعهد إليهم بتربية أبناء سلاطين السلاجقة، وتعليمهم وتدريبهم على شئون الحكم، وفنون الحرب؛ وأول من تلقب بهذا اللقب الوزير نظام الملك[2] عندما فوض إليه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان تدبير المملكة سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م).

ويرجع السبب في ظهور الأتابكيات إلى وجود بعض الأمراء صغار السن من السلاجقة الذين أسندت إليهم امارة بعض الدويلات السلجوقية في أواخر عصرها، وكان من الطبيعي أن يكون مع كل أمير من هؤلاء أتابكاً يرعى شئونه، لأنهم كانوا بمثابة الأوصياء أو المشرفين على مصالح هؤلاء الأمراء، وانتهز هؤلاء الأتابكة فرصة ضعف الدولة السلجوقية وتفككها، واستبدوا بحكم هذه الدويلات وكونوا لأنفسهم جيوشاً لحماية أتابكياتهم، واستعانوا بالقبائل، فلما أخذت هذه الأتابكيات صفة الدوام، استقلوا بها، فتكونت أتابكيات كثيرة بداية من أواخر

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة (أتابك)، وشمس الدين سامي: قاموس الأعلام (تركي) جـ١ ص٧٤-٧٥. وكذلك Persian English Dictionary, P. 18

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٨٠؛ القلقشندي. صبح الأعشى، جـ١ ص١٦٧، جـ٤ ص١٨.

القرن الخامس وخلال القرن السادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، وقد ترتب على ظهور الأتابكيات أنه أصبح عاملاً من العوامل التي أدت إلى نهاية الدولة السلجوقية[1].

من أهم هذه الأتابكيات أتابكية دمشق[2]، وتنسب إلى ظهير الدين طغتكين، الذي كان أحد قواد الجيش السلجوقي، ومملوك السلطان تتش، وبعد مقتل تتش أصبح طغتكين أتابكاً لولده شمس الملوك دقاق بن تتش، وبعد وفاة دقاق سنة (٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ - ١١٠٤ م) عهد إلى طغتكين بأتابكية دمشق والوصاية على ابن دقاق ويسمى تتش (الصغير)، وقد استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى سنة (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م) عندما استولى عليها نور الدين محمود زنكي من صاحبها مجير الدين محمد بن بوري بن طغتكين.

وأتابكية الموصل: وتنسب إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر، وقد أسندت إليه في رمضان سنة (٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م)[3] كما ضمت إليه الجزيرة (العراق) ونصيبين، وما لبث عماد الدين أن وسع ملكه فضم إليه سنجار والخابور وحران، وكانت الرها وسروج ومدن أخرى من ديار الجزيرة في أيدي الصليبيين الذين ساموا أهل هذه المدن الكثير من العذاب، فلما سمعوا بمقدم عماد الدين زنكي، قويت نفوسهم، وراسلوه بالطاعة، واستحثوه على سرعة الوصول إليهم، فجد عماد الدين في السير، ونزل بساحتهم. وقد بقيت هذه الأتابكية إلى حوالي منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وسوف يلعب كلٌ من عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود دوراً كبيراً وخطيراً في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة التي شهدت مقدم الفرنجة وحملاتهم الصليبية على الشام.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٢٤، حلمي: السلاجقة، ص١٨٤.

(٣) ابن الأثير: الباهر، ص١٢٤؛ وابن الجوزي: المنتظم، جـ١٠ ص٥.

ومن الأتابكيات المهمة كذلك أتابكية فارس[1]، وأتابكية خوارزم[2]، وأتابكية أرمينية[3]. وقد كثرت هذه الأتابكيات وانتشرت بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م)، نتيجة لانقسام السلاجقة على أنفسهم، وتصدع الدولة السلجوقية، فاستقل كل أمير بمقاطعته (أتابكيته)، وعمل كل واحد منهم على توسيع منطقة نفوذه على حساب القوى المجاورة وضمها إلى بلاده، حتى أصبحت مظهراً من مظاهر الحكم السلجوقي وعنصراً هاماً من نظمهم السياسية والاجتماعية[4].

أما الظاهرة الأخيرة:

في تاريخ منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة، فهي الحملات الصليبية التي قام بها الأوروبيون في أواخر القرن الخامس الهجري، حيث بدأوا هجومهم في

(١) تنسب أتابكية فارس إلى سلغر قند إحدى قبائل التركمان التي هاجرت إلى خراسان، وانضمت إلى طغرلبك، فعين سلغر في بلاطه، ثم استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، فوسع بلاده، ومد نفوذه إلى كرمان، واتخذ شيراز حاضرة له، وقد خضعت هذه الأتابكية لجنكيز خان ثم لهولاكو عندما اجتاح المغول الأراضي الإسلامية. راجع حمدي. الشرق الاسلامي، ص ١٠٩-١١٠، وكذلك الجميلي: دولة الأتابكة، ص ٣٠ هـ٣.

(٢) تنسب أتابكية خوارزم إلى محمد خوارزم شاه بن أنوشتكين، وكان أنوشتكين ساقياً في بلاط السلطان ملك شاه، ثم تدرج في مناصب الدولة. وكان ابنه محمد (علاء الدين) اكتسب شهرة واسعة في الآداب والعلوم، فعينه السلطان بركيارق بن ملك شاه حاكماً على إقليم خوارزم، ومنحه لقب شاه (ملك)، وقد اتسعت هذه الأتابكية وشملت العراق الفارسي بعد هزيمة طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، وزاد اتساعها في عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦-٦١٧هـ/ ١١٩٩-١٢٢٠م) فشملت بلاد ما وراء النهر، وسيطرت على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي، ثم على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد الاستيلاء على غزنه سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وقد سقطت هذه الأتابكية في أيدي المغول بعد أن قتل جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م بجبال كردستان. راجع الذهبي: تاريخ، جـ٢ ص١٠١، وحسين أمين. العراق، ص٢٦٨-٢٦٩، والجميلي: الأتابكة، ص٢٩ هـ٢ وابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٢٦٧-٢٦٨. ص ٢٦٧-٢٦٨

(٣) أسسها سقمان القطبي مملوك قطب الدين إسماعيل الحاكم السلجوقي في مدينة (مرند) إحدى مدن أذربيجان، ثم استولى سقمان على خلاط سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م. راجع ابن الأثير: الكامل جـ١٠ حوادث ٤٩٢هـ.

(٤) حسين أمين. العراق، ص٢٠٩، حمدي: مرجع سابق، ص٩٤.

سنة (٤٩٠ هـ/ ١٠٩٥ م) على المدن الواقعة على السواحل الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط وتمكنوا من إقامة دويلات صليبية أربعة هي إمارة الرهاء، وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس[١].

ويرى بعض المؤرخين[٢] أن سبب مجيء هذه الحملات على الشرق الأدنى يرجع إلى أن أباطرة القسطنطينية عندما ضاقت بهم السبل أمام حملات السلاجقة وانتصاراتهم المتكررة على الامبراطورية البيزنطية، أرسلوا إلى الكنيسة الغربية يستغيثون بها وبمسيحييها، ولكن ما نراه هو أن الأسباب الحقيقية لهذه الحملات تكمن في نواحي دينية وسياسية واقتصادية[٣]، بل هناك أسباب شخصية كذلك[٤].

---

(١) Runciman; Die Kreuzzüge, S. 65

(٢) Barker; Hist. of the Crusades, P. 16

(٣) Runciman; op. cit, S. 72

(٤) يوسف: الأسباب الشخصية للحملات الصليبية (بحث في مجلة كلية الآداب/ اسكندرية ١٩٦٣).

الفصل الخامس

أسباب الحروب الصليبية

لا شك أن الحروب الصليبية التي شنها مسيحيو الغرب الأوروبي على المسلمين في المشرق العربي كان لها أثر كبير في مجريات الأحداث التاريخية في العصور الوسطى، حيث صبغتها بطابع خاص ميزها عن غيرها. وتختلف آراء المؤرخين حول طبيعة هذه الحروب، والدوافع الحقيقية التي أججتها، والأسباب التي دفعت بهذه الحملات الصليبية نحو المشرق الإسلامي، لأنها أسباب وعوامل معقدة متشابكة ومتداخلة، بعضها رئيسي وبعضها ثانوي، منها عوامل مباشرة وأخرى غير مباشرة، بل بعضها ظاهر على مسرح الأحداث السياسية والبعض الآخر خفي غير مرئي. ومن أهم هذه العوامل نظرة الغرب إلى الشرق منذ أقدم العصور باعتباره مركز الأديان السماوية، ونبع العلوم والمعرفة، ومهد الحضارات، ومركز الإشعاع الثقافي الذي اغترف الغرب منه حضارته.

فبعض المؤرخين يرى أن الحروب الصليبية كانت الذروة التي وصلت إليها حركة الإصلاح الديني خلال القرن الحادي عشر الميلادي، والتي نبعت من دير كلوني في برجنديا (بفرنسا) في أوائل القرن العاشر، والتي دعت إلى نشر العفة والصلاح والنظام، ثم أضحت بعد ذلك منهجاً للإصلاح الكنسي العام.

والمعاصرون لهذه الحروب اعتبروها حرباً مقدسة نتيجة للحماسة الدينية التي اتسمت بها تلك العصور، التي أطلقوا عليها اسم عصور الإيمان[1]، وتلمسوا لها أسباباً منها:

---

(1) Bar Ker, Hist, of the crusades. P.9

١ ـ استعادة الصليب المقدس الذي صلب عليه المسيح عيسى (عليه السلام) وكان محفوظاً في بيت المقدس، الذي في حوزة المسلمين.

٢ ـ تأمين طريق الحجاج المسيحيين[١] الوافدين من أوروبا لزيارة كنيسة القيامة في القدس، حيث توجد مزارة المسيح، وذلك بالقضاء على سوء معاملة الأتراك السلاجقة[٢]ـ كما تزعم البابوية ـ لهؤلاء الحجاج، الذين بعثوا بشكاويهم إلى الكنيسة.

٣ ـ وجدت البابوية في هذه الحروب الهدف الوحيد للاستيلاء على بيت المقدس لتحقيق أطماعها الشخصية وأطماع الكنيسة الغربية وذلك بإقامة مملكة لاتينية مقدسة في بيت المقدس يكون رئاستها للبابا أو أحد كبار رجال الكنيسة، وكان من الطبيعي أن تتعلق بهذا الهدف، وتحاول أن تسير به قدماً حتى تحققه.

٤ ـ وجدت البابوية في هذه الحروب الوسيلة لنشر المسيحية في أرجاء العالم المعروف وقتذاك، باعتبارها عامل فعال وقوي من عوامل الإحياء الديني التي عملت على إذكائها.

٥ ـ سوف تساعد هذه الحروب البابوية في تحقيق مطامعها في بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية ودمجها مع الكنيسة الغربية في روما بحيث تصبح كنيسة روما هي الكنيسة العالمية صاحبة النفوذ الفعلي في العالم الغربي المسيحي، وفي نفس الوقت تكون خاضعة لنفوذ وسلطان البابا؛ أي أن البابا هو السلطة العليا للعالم المسيحي خاصة بعد أن تدهورت أحوال الامبراطورية البيزنطية مما كان سبباً في قيام الحركة الصليبية واندفاعها نحو الشرق[٣]. وقد ساعد البابوية على السير في هذا المضمار عاملان هما:

Barker, op. cit. P. 20

(١) ـ ..

(٢) ينفي رانسيمان هذا الزعم بقوله إن كبار امراء الإقطاع في الغرب كانوا يصحبون معهم حرساً مسلحاً، وإن كثيرا من الحجاج كانوا ينضمون إليهم، ومع ذلك لم يكن هناك من الأخطار ما يهدد الحجاج إذا ساروا فرادى أو في جماعات صغيرة. Runciman, op. cit, S. 50

(٣) Vasiliev; op; cit vol I, P. 351

أ ـ إن المسيحية سبق لها أن استردت الأراضي التي كان المسلمون قد فتحوها في المشرق العربي وأخذ هذا الاتجاه يسير حينذاك بخطوات واسعة وناجحة منذ أكثر من مائة عام على يد الامبراطورية البيزنطية في المشرق العربي، قبل نشوب الحرب الصليبية الأولى، ففي سنة ٩٧٠م تمكن الامبراطور نقفور فوكاس، والامبراطور حنا رسكيس من استرداد بعض الممتلكات التي كان المسلمون الفاتحون قد استولوا عليها، بل تمكنا من مد توسعاتهما ـ ولو أنها لفترة قصيرة ـ إلى أنطاكيا والرها، واحتلت الجيوش البيزنطية بيت المقدس لفترة مؤقته. ولكن الدولة السلجوقية استعادت قوتها، وعادت مرهوبة الجانب، متسعة السلطان والنفوذ، فلم يجرؤ الغرب الأوروبي على التفكير في مهاجمة المسلمين، ولكن عندما ضعفت الدولة السلجوقية بعد موت السلطان محمد ملكشاه سنة (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م)، وانقسمت الدولة بين خلفائه، جرؤ الغرب الأوروبي وعلى رأسه البابا والكنيسة في الجهر بعداوتهم للدولة الإسلامية وفكروا في تنفيذ حروبهم التي بدأوها في أسبانيا.

ولقد ساعدت طائفة الإسماعيلية الباطنية في الشام على تفتيت وحدة الصف الإسلامي بما بذرته من خلافات وشقاقات بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين أصحاب المعتقدات الأخرى، فنشرت التفرقة، وبثت الذعر، وأشاعت القلق والاضطراب، مما سهل على الغرب الأوروبي توجيه حملاته الصليبية إلى منطقة الشرق الأدنى.

أما في غرب البحر الأبيض المتوسط فقد أخذ نجم الدولة الأموية بالأندلس في الأفول واعتراها الضعف، وأخذت فكرة الحروب المسيحية المقدسة ضد العرب المسلمين في الغرب الأوروبي تنمو منذ القرن التاسع الميلادي حتى قيام الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر. ففي سنة ١٠١٨م شرع المسيحيون الأوروبيون يساعدون إخوانهم الإسبان المسيحيين في حروبهم ضد المسلمين لطردهم من إسبانيا، وأصبحت هذه الحرب أول الحروب الصليبية ضد المسلمين. وقد بدأت هذه الحرب عندما توجه روجر توسني Roger de Tosni سنة ١٠١٨ م على رأس جيش من النرمنديين إلى كتالونيا لمساعدة الإسبان

المسيحيين، وفي سنة ١٠٨٥ م تمكن الإسبان بقيادة الأدفونس من استعادة مدينة طليطلة من أيدي المسلمين بعد حصار دام سبع سنوات[١].

وفي الجزء الأوسط من البحر الأبيض المتوسط استمر القتال بين المسلمين والمسيحيين زمناً طويلاً، فقد تمكن البيازنة (أهل بيزا) من استرداد جزيرة سرديبيا سنة ١٠١٦م بتشجيع من البابا بنيدكت الثامن، ثم انتزعت صقلية كذلك من المسلمين بواسطة النرمنديين بقيادة روجر توسني (روجار) بعد حرب دامت ثلاثين عاماً (١٠٦٠ ـ ١٠٩٠م)[٢] وقد اعتبر نفر من المؤرخين حرب صقلية حرباً صليبية لحرص البابوية على تشجيعها وتأييدها[٣] بل اعتبروها دافعاً جديداً للمحاولة التي قام بها بوهيمند لانتزاع سوريا من المسلمين سنة (٥٢٣ هـ / ١١٢٩م)، وتفكيره في تأسيس مملكة له في الشرق الإسلامي، وأحد العوامل التي شجعت الصليبيين على القيام بمثل هذه الحروب

ب ـ الضعف الذي أصاب الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمتها في موقعة مانزيكرت سنة ١٠٧١م اضطرها إلى الاستنجاد بالغرب المسيحي، وقد توقعت البابوية ذلك الأمر، وقدرت خطتها على أساسه، ويرى كثير من المؤرخين أن موقعة مانزيكرت ١٠٧١م كانت السبب فيما حدث ١٠٩٥م في الغرب الأوروبي من دعوة للحرب الصليبية ضد الشرق الإسلامي، باعتبار أن الدعوة لهذه الحرب هي رد فعل للكارثة المؤلمة التي حلت بالامبراطورية البيزنطية حامية المسيحية في الشرق سنة ١٠٧١م.

أما الأسباب الاقتصادية للحروب الصليبية فكانت تهدف إلى تحقيق مصالح تجارية كبيرة للمدن التجارية في إيطاليا (مثل جنوى والبندقية وغيرهما)، فقد حرصت هذه المدن على أن تحصل على منتجات الشرق بأسعار رخيصة، وبطريق مباشر بدون وسيط، وذلك عن طريق تأسيس مستودعات تجارية كبيرة في شرقي

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ١٤٢، ٢٧٢.
(٢) رسلان: الحضارة الإسلامية في صقلية، ص ١٩ ـ ٢٠؛ وابن الأثير: نفسه، ص ١٩٣ ـ ١٩٨.
(٣) Runciman; op.cit., S-98.

البحر الأبيض المتوسط. وفي مقابل هذه الامتيازات قدمت مدن إيطاليا التجارية كثيراً من التسهيلات للمشتركين في الحروب الصليبية، كما قدمت سفنها لنقل الجنود والعتاد من أوروبا إلى مسرح الحروب الصليبية في منطقة الشرق العربي.

على أن هناك من يفسر استمرار حالة الحرب بين المسلمين والمسيحيين الغربيين بعد انتهاء الحملات الصليبية إلى زحف الأتراك العثمانيين على أوروبا (قرن ١٧م) وإغلاقهم منافذ الطرق التجارية في وجوه الأوروبيين، مما اضطرهم إلى البحث عن طرق جديدة، والطواف حول رأس الرجاء الصالح، وتحملوا بسبب ذلك كثيراً من الصعوبات، فكان رد الفعل لما أصابهم على يد الأتراك العثمانيين هو التفكير في الاستيلاء على طرق التجارة ومراكزها في الشرق العربي، ولم يجدوا وسيلة لتحقيق ذلك إلا الحروب التي تستروا تحت شعاراتها الدينية والتي اعتبرها البعض امتداداً للحروب الصليبية، ومن الآراء في الأسباب الاقتصادية ما يشير إلى أن الحروب الصليبية كانت إحدى الوسائل الجديدة المباشرة للاتصال بطرق التجارة الشرقية، وأنها السبب فيما يسمى باكتشاف آسيا في القرن الثالث عشر. والحقيقة التي نراها هي أن الحروب الصليبية كانت إحدى مظاهر الاستعمار عن طريق التوسع وامتلاك البلدان الإسلامية في المشرق والسيطرة الاقتصادية على أسواق الشرق في العصور الوسطى. والذي يفسر لنا ذلك، الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة، ونعني بها حالة الضنك والضيق التي عاشها أهل الغرب المسيحي وقتذاك، وخاصة بعد أن أصيبت أوروبا بالوباء الذي انتشر فيها سنة ١٠٩٤م، والذي امتد من الفلاندرز إلى بوهيميا، ثم المجاعة التي حدثت في اللورين في العام التالي (١٠٩٥)، ولذلك كان تفكير العامة والدهماء والسوقة في أوروبا محصوراً في الاشتراك في هذه الحروب الصليبية تخلصاً من حياة الفقر والعوز التي يحيونها، فخرجوا بالآلاف يشتركون في هذه الحروب[١] هرباً من حياة القسوة والحرمان وشظف العيش التي كانوا يعيشونها. على أن هناك رأياً

---

(١) Barker: op. cit. P. 22

يقول إن الحروب كانت منفذاً للرومان يهربون منه خوفاً من الاعتراف بتدهور الدولة والمجتمع الروماني، خصوصاً بعد أن سيطرت عليهما العناصر الجرمانية. ولكن فيما يبدو أن العناصر الجرمانية رأت في هذه الحروب فرصة يظهرون فيها ولاءهم للمسيحية وللكنيسة، ويرضون نزعتهم المحبة للحروب والارتحال[1].

ولم تخل دوافع الحروب الصليبية من الأغراض الشخصية[2]، ولتحقيق هذه الأغراض ابتكرت الكنيسة الحرب الصليبية الأولى. وهي التي أطلقت اسم الحرب المقدسة على هذه الحروب[3] لتبرير وتحقيق المصالح والمطامع التي كان الباباوات يهدفون إليها، والتي كانت مخالفة لأغراض الكنيسة. ومعنى هذا أن الأغراض الشخصية للبابوية ساقت المسيحيين لخوض غمار هذه الحروب تحت ستار من الدين، وبواجهة تحمل اسم الكنيسة.

وقد بدأت البحوث التاريخية مؤخراً تركز حول هذا الموضوع، باعتبار أن قيام الحركة الصليبية كان مرده أولاً وآخراً إلى أطماع البابوية ورجال الكنيسة الذين اندفعوا بفعل العوامل الشخصية لتحقيق أغراض بعيدة عن الجوانب الدينية. وأن ما ذكره المؤرخون المعاصرون للحروب الصليبية عن أسبابها وعواملها فيه اختلاف كبير، وتحيط به الشكوك، وتغمره الأساطير. فإلى وقت قريب كان الاعتقاد السائد أن الحملة الصليبية الأولى إنما تحركت صوب المشرق بناء على طلب الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، الذي أرسل خطاباً إلى الكونت روبرت أمير الأراضي الواطئة (هولندا) يطلب فيه إغاثة الامبراطورية أمام هجمات الأتراك السلاجقة وتوسعاتهم في أراضي الدولة البيزنطية.

والحقيقة أن الاختلاف كبير بين علماء التاريخ، فالمؤرخون الألمان ينادون بصحة هذا الخطاب ويرون أنه إن لم يكن هو النص الأصلي، فهو على الأقل صورة أخرى منه تحوي نفس المعنى، وإن كان بأسلوب مغاير. ويؤيد هذا الرأي المؤرخان المعروفان (هاجنماير) Hagenmeyer ورورريشت Rohricht[4].

(١) عاشور: العلاقات ٤ ص ١٢

(٢) يوسف: الدافع الشخصي (بحث بمجلة كلية الآداب/ اسكندرية ١٩٦٣).

(٣) Barker, op, cit. P.21

(٤) Grousset, Crois, I, p.2 and n2 (راجع مناقشة هذه الآراء بالتفاصيل).

ويقف المؤرخون الفرنسيون معارضين تماماً لهذا الرأي، وينفون تماماً أن الامبراطور ألكسيوس قد أرسل أي خطاب إلى الكونت روبرت، ويؤيد هذا الرأي مؤرخان معروفان هما (شالندون) Chalandon وشارل ديل Charl Diehl، وقد تابعهما كثير من المؤرخين المحدثين من أمثال Vasiliev وراسمان Runciman، وأستروجورسكي Ostrogorsky، ومما يذكر في هذا الصدد ما كتبته المؤرخة الإغريقية أنا كومنين ابنة الامبراطور ألكسيوس في كتابها عن حياة أبيها[1] حيث قالت إن أباها لم يكن يعرف شيئاً عن الحركة الصليبية، وأنه علم بقدوم الفرنج عن طريق الإشاعات والأقاويل، وتذكر بصراحة أن الصليبيين الغربيين اتخذوا من مسألة الاستيلاء على أورشليم (بيت القدس) ستاراً يخفون وراءه مطامعهم التي أجمعوا عليها، ألا وهي خلع الامبراطور البيزنطي والاستيلاء على عاصمة ملكه.

ومن أمثلة هذه الأغراض الشخصية تكوين إمارة في الشرق لأمير مغامر هو الابن الأصغر لـ (جويسكارد)، وكان بوهيمند المنفذ لهذه الفكرة ـ كما أشرت إلى ذلك سابقاً ـ.

ومن الأمثلة على الدوافع الشخصية كذلك أن البابوية أخذت تعمل على تحويل الحروب الإقطاعية الخاصة لصالحها، فبدأت تنادي بالمحافظة على ما أسمته سلام الله (Peace of God) وهدنة الله (Treuga Dei)[2]، ثم وجهت هؤلاء المحاربين وكانوا من الفرسان إلى الانخراط في سلك الحروب الصليبية، واعتبرت ذلك مرحلة من مراحل الإصلاح الديني للمقاتلين العلمانيين.

وثمة من يرى أن الأسباب التاريخية كان لها دورها هي الأخرى في إذكاء هذه الحروب الصليبية وتوجيهها إلى منطقة الشرق الأدنى، وترجع جذور هذه الأسباب إلى زمن الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب، وسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين سنة ٦٣٧م، ويبدو لنا أن تسامح العرب الفاتحين الذين أبقوا على اتصال الكنيسة البيزنطية في القدس بالمسيحيين الغربيين لعب

---

(١) Anna Comnen; Alexiad, p. 250

(٢) Barker; op, cit, p, 12 nots 2

دوره في إخفاء روح الكراهية التي كانت كامنة عند البيزنطيين والتي انتقلت إلى الأوروبيين لامتداد موجة الفتوحات الإسلامية ولم يتمكنوا من إشعال نار الحرب مرة أخرى لعدة قرون، وإن كان ذلك يرجع في حقيقة أمره إلى قوة ونفوذ العالم الإسلامي وسيطرة روح الإسلام على المجتمعات التي دخلت في الإسلام رغبة وليست رهبة، وإلى ضعف واضمحلال العالم المسيحي وسقوطه في أيدي المسلمين في الشرق، ثم في الغرب بعد ذلك.

ولذلك يرجع بعض المؤرخين بداية الحروب الصليبية إلى منتصف القرن العاشر الميلادي حينما وجه الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩م) حروبه ضد المسلمين في الشرق لاسترداد الأراضي المقدسة، التي كان المسلمون قد فتحوها منذ بضع قرون مضت، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ الفرنسي Rambud أن قسطنطين السابع بدأ بأعماله هذه عصر الحروب الصليبية بالنسبة للشرق والغرب على حد سواء[1].

والحقيقة أن الحروب الصليبية ليست وليدة عامل واحد من هذه العوامل، وإنما هي نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة، حيث لعبت دورها في توجيه هذه الحروب، والتحكم في مصائرها. وقد دفعت هذه الحروب الصليبية الألوف العديدة من المسيحيين الذين هرعوا إلى حمل الصليب وتعليقه على ملابسهم أو في أعناقهم، وكان ذلك مؤشراً إلى نوبة الحماس الديني المتدفق، كالذي قام به المبشرون وجماعات إحياء المسيحية بعد الحرب العالمية الثانية.

وكانت النتيجة الطبيعية التي تمخضت عن سياسة البابوية هي ظهور روح العداوة والبغضاء على نطاق واسع بين الشرق والغرب، ذلك العداء الذي لم يخمد في نفوس المسيحيين الغربيين، وظل متأججاً أكثر من ألف عام خشية امتلاك المسلمين للغرب الأوروبي. فمنذ ظهور الإسلام وبداية انتشاره سنة ٦٢٢م وحتى وصول الجيوش العثمانية إلى أبواب فيينا سنة ١٦٣٨م والفكرة المسيطرة على أذهان الأوروبيين أن المسلمين سوف يستولون على الغرب الأوروبي، ولذلك

---

(١) توفيق: الدولة البيزنطية، ص١٣٨.

كانت الحروب الصليبية بمثابة رد فعل من قبل الغرب ضد ضغط الشرق الإسلامي، ليحمي نفسه من ازدياد نفوذ الإسلام، الذي تجدد على يد الخلافة العثمانية.

وثمة نتيجة أخرى كان لها أكبر الأثر في تقدم الغرب الأوروبي في مجالات الحضارة، فمملكة بيت المقدس الصليبية كانت مكاناً لالتقاء الحضارة الغربية الأوروبية بالحضارة الشرقية الإسلامية، وقد نقل الغربيون الأوروبيون الكثير من جوانب الحضارة الإسلامية، وتعلمت أوروبا الكثير من الحضارة الإسلامية في كل فروعها، وقد اعترف غير قليل من المعتدلين من المستشرقين بهذا الأمر[1]، فقد نقل المشتركون في الحروب الصليبية إلى بلادهم، خلال القرن الثالث عشر الميلادي، الكثير من علوم المسلمين وثقافتهم وصناعاتهم وطرق معيشتهم إلى غير ذلك من الجوانب الحضارية التي كانت الركيزة الأساسية والأعمدة القوية التي بنى الغرب الأوروبي حضارته عليها. فعن طريق ما نقله الصليبيون من حضارة الشرق الإسلامي إلى الغرب الأوروبي تخطت أوروبا مرحلة حضارة العصور الوسطى التي كانت لا تزال وليدة في مهدها ودخلت مرحلة النهضة والحضارة الحديثة. والشواهد على ذلك جزيرة صقلية التي تفوقت على إمارة بيت المقدس الصليبية في كثير من جوانب الحضارة، ومدن إسبانيا الإسلامية (غرناطة، وقرطبة، وطليطلة) وغيرها، وما غرسه المسلمون فيها من علوم وفنون وثقافة كانت إحدى الركائز الأساسية لعلوم وثقافة الغرب الأوروبي.

---

(١) راجع، هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب (مترجم من الألمانية)، ميتز: الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري (مترجم من الألمانية)-Gottschalk, Al-Kamil von Egypten-Vorwort

الفصل السادس

الحملة الصليبية الأولى

أرسل الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بالاستغاثة إلى البابا أوربان الثاني، فوصلت إليه أثناء انعقاد مجلس كليرمون الديني في نوفمبر سنة ١٠٩٥م (ذي الحجة ٤٨٨ هـ)، ومن الواضح أن الامبراطور ألكسيوس تعمد إرسال هذه الاستغاثة في هذا الوقت بالذات، لكي يثير حماس البابا أوربان الثاني وبقية أعضاء المجمع الديني ضد السلاجقة، وقد تناسى ألكسيوس ما كان قائماً بينه وبين الامبراطورية الرومانية الغربية وكنيستها من عداوة، وكانت الاستغاثة تتضمن الدعوة إلى نصرة المسيح، واسترداد بيت المقدس من أيدي المسلمين حيث يوجد به الصليب المقدس[١] الذي صلب عليه المسيح[٢] - كما يقولون -.

انتهز البابا أوربان الثاني فرصة هذه الاستغاثة، وبعث بندائه التاريخي إلى كل المسيحيين الغربيين في أوروبا لنجدة الكنيسة الشرقية، واستخلاص الصليب المقدس (كما يزعمون)، ودعا إلى الاستعداد لحرب مقدسة ضد المسلمين، واستند فيما دعا إليه من الإعداد لهذه الحرب المقدسة إلى بعض الأخبار التي كانت تزعم سوء معاملة السلاجقة للحجاج المسيحيين الغربيين، وتوسع السلاجقة في أراضي الامبراطورية البيزنطية واستيلائهم على أنطاكية ذات المكانة الروحية العالية عندهم، وطرد البيزنطيين منها[٣]، وألهب بطرس الراهب مشاعر الناس بخطبه الحماسية، وكلامه الملتهب، فالتف من حوله الألوف من الرجال والشباب يؤيدون قيام هذه الحملات الصليبية، ويشتركون فيها.

---

(١) Runciman; op. cit. P. 99

(٢) Barker; op. cit. P. 9

(٣) Cam. Med. Hist, Vol V; 270; Thompson; Hist; of Mid. Ages, P. 198

تكونت الحملة الصليبية الأولى من قسمين، عرف القسم الأول منها باسم حملة الشعوب، أو حملة الفقراء.

والقسم الثاني باسم حملة الأمراء، وكان بطرس الناسك على رأس الحملة الأولى، فأخذ يلهب حماس الفقراء بخطبه الحماسية، وقد امتطى حماراً ينتقل به من مدينة إلى أخرى، فاجتاز فرنسا، وسار على امتداد نهر الراين، وتمكن بفضل أسلوبه الفصيح أن يجذب إليه حشوداً كثيرة من الفقراء، تكونت منهم خمسة جيوش في إبريل سنة ١٠٩٦ م، لقي الجيش الأول وكان يقوده فولتسر، صديق أورليان، والجيش الثاني وكان يقوده جوتشالك، الدمار الكامل على أيدي الهنجاريين (أهل المجر) بسبب ما ارتكبه جنود هذين الجيشين من أعمال السلب والنهب والتخريب أثناء مرورهم بأراضي هنجاريا، أما الجيش الثالث فقد دخل مع اليهود الموجودين في المدن الواقعة في وادي نهر الراين في قتال أسفر عن قتل حوالي عشرة آلاف منهم، وتبددت جنود هذا الجيش الصليبي، وتبعثرت بقيته في بلاد الهنجار (المجر).

أما الجيشين الأخيرين فكان أحدهما بقيادة والتر المفلس Walter the Penniless، والثاني بقيادة بطرس الناسك نفسه Peter the Frommer وقد تمكن هذين الجيشين من الوصول إلى القسطنطينية دون أن يدخلا في صراع أو قتال مع بلغاريا أو المجر، إلا أن جيش بطرس الناسك قد نقص عدده، وساءت حالة جنوده، بسبب متاعب الارتحال وعدم كفاية المؤن. ولكن بمجرد وصول هذين الجيشين إلى القسطنطينية ارتكب جنودهما الكثير من الفظائع في داخل الامبراطورية البيزنطية نفسها، على الرغم من المعاملة الطيبة التي قدمها الامبراطور ألكسيوس كومنين إليهم (١٠٨١-١١١٨م/ ٤٧٤-٥٧٢هـ) إلا أن هذين الجيشين لقي جنودهما الهلاك كذلك على أيدي الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى، ولم يبق من آثارهما سوى تلال من العظام لتكون خير شاهد على ما انتهت إليه حملة الشعوب، على أن القدر أبعد بطرس الناسك من هذا المصير، لأنه كان قد تخلف في القسطنطينية.

موقف الامبراطور البيزنطي من الصليبيين

عرف القسم الثاني من الحملة الصليبية الأولى باسم حملة الأمراء، حيث كانت بقيادة عدة أمراء، لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة، مما جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عدة حملات، ربما عملت أحياناً في اتجاهات متعارضة[١]، وسلكت طرقاً مختلفة في مسيرها وقد ضمت هذه الحملة أربع حملات (مجموعات) كبيرة هي:

الحملة الأولى: ضمت فرسان منطقة اللورين الفرنسية، وزعيمها الدوق جودفري دي بوايون وأخوه بلدوين البولوني.

الحملة الثانية: ضمت الفرسان النورمانيين من المملكة النورمانية (النورمندية) التي نشأت في جنوب إيطاليا، وأميرها بوهيمند بن روبير جويسكارد ومعه ابن أخيه تنكريد.

الحملة الثالثة: ضمت فرسان منطقة بروفانس في جنوب فرنسا، وأميرها ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس، وكان يرافقه المندوب البابوي أديمار تعبيراً عن زعامة البابوية للحركة الصليبية في الشرق[٢].

الحملة الرابعة: ضمت فرسان المنطقة الشمالية من فرنسا، وفرسان دوقية نورماندیا الفرنسية، وأميرها روبيرت دوق نورمانديا[٣]

سلكت الحملة الأولى الطريق البرية المحاذية لنهري الراين والدانوب، أيْ أنها سلكت طريق هنغاريا (المجر الحالية)، وكان الهنغاريون ما زالوا يحملون الكثير من الكراهية والحقد والضغينة للصليبيين، بسبب ما ألحقته بهم حملة

---

(١) حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص٦٥.
(٢) Grousset; op. cit. I P. 24-25.
(٣) Setton; op. cit I, P. 268

الشعوب التي قادها بطرس الناسك، وفولكمار، وإميخ[1]. ورأى جودفري أمير الحملة (المجموعة) الأولى أن يطمئن أهل هنغاريا تجاه الحملة التي يقودها، فاجتمع مع كولمان ملك هنغاريا على الحدود الهنغارية الألمانية، وقدم أخاه بلدوين البولوني كرهينة لديه حتى تعبر القوات الصليبية دون ارتكاب حوادث سلب ونهب.

وصل جودفري بقواته الصليبية إلى حدود الدولة البيزنطية في نوفمبر سنة (١٠٩٦م/ ٤٨٩ هـ)، وبوصوله بدأ صراع المصالح وتصادمها بين المسيحية الشرقية والمسيحية اللاتينية الغربية، أو ما يسميه البعض (المسألة الصليبية في تاريخ الامبراطورية البيزنطية)[2]. فقد وضع الامبراطور الكسيوس كومنين لنفسه سياسة ثابتة نحو الصليبيين، سار عليها خلفاؤه من الأباطرة البيزنطيين مدة قرن من الزمن.

تتلخص هذه السياسة في استغلال الحركة الصليبية وتسخيرها لتحقيق أهداف الامبراطور من حيث استعادة كل الأراضي البيزنطية التي استولى المسلمون عليها منذ بداية عهد الفتوحات الإسلامية. وأن تكون هذه الحملات الصليبية تحت قيادته، تعمل بأوامره، وتحمل رايته. لأنه كان ينظر إلى هذه الحملات باعتبارها نجدات سريعة وقوية وكبيرة أرسلت لنجدة المسيحية في الشرق في معركتها ضد المسلمين لطرد السلاجقة من الأراضي التي استولوا عليها في آسيا. لا سيما وأن الدولة البيزنطية تحملت وحدها الضربات المتتالية من هؤلاء السلاجقة أثناء توسعاتهم في أراضيها، وأنها وحدها تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة في الشرق ضد إغارات المسلمين طوال عدة قرون، فلا أقل من أن يتولى الامبراطور البيزنطي قيادة الجيوش الصليبية التي أخذت تفد من الغرب الأوروبي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي لمحاربة المسلمين.

وصل جودفري بقواته وعسكر أمام أسوار القسطنطينية في ديسمبر (١٠٩٦م/ ٤٩٠ هـ) وخشي الامبراطور البيزنطي من كثرة عدد جنود هذه الحملة

---

(١) فرج. أوروبا العصور الوسطى، ص٢١٣-٢١٤.

(٢) عاشور. العلاقات، ص٩٩

(١٥٠٠٠ جندي)، وقدر خطورتها على دولته، وعلى مصالحه الشخصية، ووجد أن خير وسيلة لتجنب هذه الأخطار هي أن ينفذ سياسته التي رسمها للتعامل مع الصليبيين، فأرسل إلى جودفري مرحباً به وطلب منه الحضور إليه ليقسم يمين الولاء للامبراطور، وأن يكون هو وقواته تابعاً له، وأن يتعهد برد كل الأراضي التي يستولي عليها من المسلمين إلى الدولة البيزنطية[١].

رفض جودفري تلبية الدعوة لأنه لا يستطيع أن يقسم مثل هذا اليمين وهو تابع للامبراطور هنري الرابع في الغرب الأوروبي، ثم إنه لا يستطيع أن يكون تابعاً للامبراطور البيزنطي حامي الكنيسة الأرثوذكسية، بينما هنري الرابع وجودفري نفسه كاثوليكي المذهب، وأنه خرج على رأس الحملة تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثاني حامي المذهب الكاثوليكي[٢]، وما بين الامبراطوريتين والكنيستين من خصومة غير خاف على أحد. لذلك أخذ جودفري يماطل ويسوف في قبول دعوة الامبراطور ألكسيوس كومنين حتى تصل بقية الحملات الصليبية التي خرجت معه، ليتخذ الأمراء الصليبيون موقفاً موحداً تجاه رأي الامبراطور البيزنطي، وحتى لا ينفرد جودفري بمثل هذا القرار فيصبح سابقة خطيرة، وأمراً ملزماً للحملات التي تجيء بعده ـ على أن بعض المراجع تنسب تسويف ومماطلة جودفري في قبول دعوة ألكسيوس كومنين إلى خوفه على نفسه من غدر الامبراطور، ولذلك طلب جودفري رهائن تبقى لدى قواته لحين عودته من عند الامبراطور سالماً، وهو الطلب الذي اعتبره الامبراطور ألكسيوس كومنين إهانة له، ومساساً بشرفه[٣].

لجأ الامبراطور ألكسيوس كومنين إلى الضغط على جودفري ليرغمه على حلف اليمين، فمنع عنه وعن قواته الصليبية التموينات التي كان يرسلها إليهم، فرد الصليبيون على الامبراطور بنهب وسلب وتخريب ضواحي العاصمة (القسطنطينية)، فاضطر الامبراطور ألكسيوس إلى العدول عن قراره، وسمح للصليبيين بالإقامة في ضاحية بيرا Pera ـ من ضواحي العاصمة ـ حماية لهم من قسوة البرد والشتاء، وربما ليسهل عليه مراقبتهم ومعرفة تحركاتهم.

(١) Runciman; op. cit. I.P. 149

(٢) عاشور: العلاقات، ص١٠٢.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol V P. 281

في هذه الأثناء وصلت أخبار قدوم المجموعة الثانية (الحملة) بقيادة بوهيمند عن طريق مقدونيا وخشي الامبراطور ألكسيوس من التقاء هذه القوات الصليبية معاً، فمنع التموينات مرة أخرى عن جودفري في إبريل (١٠٩٧م/ ٤٩٠هـ) فأدى هذا إلى التصادم بين الصليبيين والبيزنطيين، فقام الصليبيون بسلب ونهب بيرا Pera ثم أحرقوها، ورحفوا إلى أسوار القسطنطينية نفسها، واضطر الامبراطور البيزنطي أن يأمر بالهجوم على الصليبيين وإبعادهم عن أسوار عاصمته منعاً لأخطارهم وحماية لبلاده، ولم يصمد جودفري وقواته أمام ضربات البيزنطيين ففروا جميعاً، واصطروا إلى مسالمة الامبراطور ألكسيوس كومنين، وتعهد جودفري بتسليمه كل الأراضي التي كانت ملكاً للدولة إلبيزنطية قبل موقعه مانزيكرت[1] والتي سيستردها الصليبيون من السلاجقة الأتراك، وحلف له يمين الولاء، وبذلك تحقق هدف الامبراطور البيزنطي ووضع الحملة الصليبية في خدمته وخدمة الدولة البيزنطية. ولكي يعبر الامبراطور الكسيوس كومنين عن رضائه عن جودفري غمره بالهدايا الثمينة، والأموال، وأمده بخيول مطهمة، وزاد في تموينات القوات الصليبية زيادة كبيرة، ثم سمح له ولقواته بعبور البسفور إلى الشاطىء الأسيوي، قبل أن تصل حملة بوهيمند بقليل، وبذلك نجح الامبراطور ألكسيوس كومنين في تنفيذ سياسته وتحقيق هدفه في جعل جودفري وقواته تابعين له، ومنع التقاء قوات الحملتين الصليبيتين معاً (جودفري وبوهيمند) وتجمعهم أمام أسوار القسطنطينية ليتمكن من مفاوضة كل فريق على حدة.

الحملة الثانية (بوهيمند):

خرج بوهيمند على رأس مجموعته من النورمان الموجودين في جنوب إيطاليا وصقلية، فوصلوا إلى أفلونا Avlona على شاطىء ألبانيا، ومنها إلى البلقان ثم إلى مشارف القسطنطينية. وقد سببت أخبار هذه الحملة قلقاً بالغاً في الامبراطورية البيزنطية، نظراً لوجود بوهيمند أكبر أبناء روبرت جويسكارد الذي ما زالت محاولته غزو الدولة البيزنطية وتهديده للقسطنطينية سنة

---

(١) Runciman; op. cit, I P. 151

(١٠٨١م/ ٤٧٤ هـ) ماثلة في الأذهان، والحقيقة أن بوهيمند لم يكن طامعاً في القسطنطينية مثل والده، ولكنه كان يطمع في إقامة إمارة صليبية له وللنورمان في آسيا الصغرى على حساب الأتراك السلاجقة والبيزنطيين معاً[١] وكان يرنو ببصره إلى مدينة أنطاكيا على وجه الخصوص.

ونتيجة لعدم اعتداء قوات بوهيمند على أهالي المناطق التي مروا بها في البلقان وبيزنطة أمر الامبراطور ألكسيوس كومنين بإمداد هذه القوات بما تحتاج إليه من تموينات حتى تصل إلى القسطنطينية.

وصل بوهيمند بقواته إلى مشارف العاصمة البيزنطية بعد وقت قصير من مغادرة جودفري وقواته لها (إبريل ١٠٩٧م/ ٤٩٠ هـ)، وسمح الامبراطور لبوهيمند بالدخول إلى العاصمة بمفرده لمقابلته، لأنه كان يرى في بوهيمند أنه أخطر الزعماء الصليبيين وأذكاهم وأشدهم مراساً للحرب، ولأن قواته كانت على جانب كبير من حسن الإعداد والنظام والتسليح[٢]، ولكي يحقق بوهيمند هدفه في تكوين إمارة له، دخل في طاعة الامبراطور البيزنطي وأقسم له يمين الولاء، فغمره الامبراطور بالهدايا والأموال مثل سلفه جودفري، إلا أن بوهيمند طلب من الامبراطور أن يمنحه إقطاعاً كبيراً في أنطاكيا، فوافق الامبراطور على طلبه، ووعده بمنطقة إقطاع واسعة حول أنطاكيا، وهكذا احتاط بوهيمند لنفسه لكي يحقق الهدف الذي جاء من أجله على رأس الحملة. ويعتبر هذا الاتفاق المبرم بين الامبراطور ألكسيوس كومنين وبوهيمند تحديداً لمولد إمارة أنطاكيا النورمانية التي لعبت دوراً بارزاً وخطيراً في تاريخ الصليبيين بالشام. وقد سمح الامبراطور لبوهيمند أن ينتقل مع قواته إلى الشاطىء الآسيوي في أواخر إبريل ١٠٩٧م حيث انضموا إلى جودفري دي بوايون وقواته لحين وصول بقية الحملة.

الحملة الثالثة (ريموند)

ارتحلت الحملة الثالثة وعلى رأسها الأمير ريموند في أكتوبر

---

(١) عاشور: العلاقات، ص١٠٧.

(٢) Runceman, op. cit, I. P. 157.

١٠٩٦م/ ٤٨٩هـ فعبرت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية، وقد صادفت قوات هذه الحملة بعض العقبات أثناء حصولها على التموينات، نظراً لشعور العداء لدى البيزنطيين تجاه الصليبيين. وعندما وصلت الحملة إلى خارج القسطنطينية سمح الامبراطور ألكسيوس بدخول ريموند بمفرده للعاصمة لمقابلته، ثم طلب منه أداء اليمين بالتبعية للامبراطورية البيزنطية كما فعل سابقوه. فرفض ريموند هذا الطلب صراحة وبشدة قائلاً للامبراطور: إنني لم أحمل الصليب لأخضع لسيد غير السيد المسيح، ولم أغادر بلادي لأحارب من أجل سيد غير السيد المسيح. ولكنه أعرب عن موافقته لإعلان تبعيته للامبراطور البيزنطي إذا خرج الامبراطور بنفسه على رأس القوات الصليبية وقادها في حروبها ضد المسلمين[1].

تأزمت الأمور بين ريموند والامبراطور ألكسيوس، ووصلت حدتها إلى توقع حدوث صدام مسلح بين الجانبين، وتدخل جودفري وأقنع ريموند بعدم جدوى الصراع، وانتهز بوهيمند هذه الفرصة ليتقرب إلى الامبراطور البيزنطي فأعلن بصراحة عن وقوفه إلى جانب الامبراطور ألكسيوس كومنين، ويرجع السبب في ذلك إلى العداوة المستحكمة بينه وبين ريموند، عندئذ اضطر ريموند أن يقسم على احترام حياة الامبراطور وشرفه، وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسيء إليه، وبذلك تخلص من حلف يمين الولاء والتبعية للامبراطور.

الحملة الرابعة (روبرت):

خرج روبرت أوف فلاندرز أمير منطقة نورماندیا ـ وهو ابن وليم الفاتح ـ زعيماً على قواته من الصليبيين وجلهم من الفرنسيين، ومرت الحملة بإيطاليا وباركها البابا أوربان الثاني، ثم أبحرت في إبريل (١٠٩٧م/ ٤٩٠ هـ) في سفن إلى البلقان، ومنها سارت في البر إلى القسطنطينية ولم ترتكب قوات هذه الحملة من أمور السلب والنهب والتخريب مثلما ارتكبت الحملات السابقة لها، ولم يمانع زعيم الحملة روبرت ومعه صهره ستفن من أداء يمين الولاء والتبعية

Cam – Med. Hist. Vol. V, p.283. (1)

للامـراطور ألكسـيوس كومنين، ولذلك أغدق الامبراطور عليهما وعلى جنودهمـا الكثير من الأموال والإمدادات والتموينات، ثم سمح لهـم بالعبـور كذلك إلـى شاطىء آسيا الصغرى ليلحقوا بزملائهم الصليبيين، الذين كانوا قد بدأوا في ضَرب الحصار على مدينة نيقية.

الفصل السابع

تأسيس الإمارات الصليبية

الحرب ضد الأتراك السلاجقة

سقوط مدينة نيقية:

تتابعت القوات الصليبية وضربت حصاراً شديداً على مدينة نيقية، عاصمة الأمير قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش[1]، ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون التقدم داخل آسيا الصغرى تاركين نيقية خلفهم بأيدي السلاجقة، مما يهددهم ويهدد خطوط مواصلاتهم مع الامبراطورية البيزنطية لأخطار جسيمة. وقد ساعدت الظروف الصليبيين لأنهم وجهوا ضربتهم إلى نيقية في وقت كان أميرها قلج أرسلان ومعظم جنوده غائبين عنها، حيث كانوا يدافعون عن الحدود الشرقية لإمارتهم ضد إغارات الدانشمند جبرائيل[2]، الذي اعتدى على مدينة ملطية.

ويبدو أن الأمير قلج أرسلان استهان بقوة الصليبيين عندما وصلته أخبار حصارهم لبلده نيقية، باعتبار أنه سبق أن قضى تماماً على أتباع بطرس الناسك، وأن هذه المجموعة الصليبية لا تعدو أن تكون مثل سابقتها، وربما زاد في اطمئنان قلج أرسلان ما وصله من أنباء كاذبة دسها الامبراطور البيزنطي عليه بواسطة جواسيسه، تفيد بأن الخلاف مستحكم بينه وبين الصليبيين حتى يؤخذ على فجأة. وقد ترتب على استهانة قلج أرسلان أن ضرب الصليبيون الحصار بشدة على نيقية في مايو (١٠٩٧ م/ جمادى الأولى ٤٩٠ هـ) ودخل الفريقان في معركة كبيرة قتل فيها من الجانبين أعداد كثيرة من الجنود.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٢٧٤.

(٢) فرع من فروع قبائل الأتراك السلاجقة.

واصل الامبراطور البيزنطي مساعداته وإمداداته للصليبيين حسب الإتفاقية الشاملة التي عقدها مع الصليبيين قبل تحركهم إلى نيقية، ويئست حامية نيقية السلجوقية وفكرت في الاستسلام، ولكنهم خشوا على أنفسهم من انتقام الصليبيين منهم نظراً لما أنزلوه بهم من القتل فاتصلوا سراً بالامبراطور البيزنطي، وأعلنوا استعدادهم لتسليم نيقية إليه، وكان الامبراطور لايزال متخوفاً من تنكرد وريموند اللذان رفضا أن يقسما يمين الولاء والتبعية له، ووجدها فرصة ففاوض أهل نيقية سراً، وتعهد لهم بتأمين أرواحهم وممتلكاتهم، ولم يلبث الصليبيون أن فوجئوا بالأعلام البيزنطية مرفوعة فوق المدينة، وبذلك تسلم البيزنطيون المدينة يوم ٢٦ يونيه (١٠٩٧م/ رجب ٤٩٠ هـ) بعد أن مكثت في أيدي السلاجقة ست عشره سنة منذ أن فتحوها، وبعودة نيقية إلى البيزنطيين عادت إليهم كل الأراضي التي كانت في حوزة المسلمين بتلك المنطقة[١].

موقعة ضورليوم:

ترتب على سقوط نيقية أن ارتفعت الروح المعنوية عند الصليبيين، وتشجعوا على مواصلة الزحف للاستيلاء على ضورليوم، وقد شاركهم في هذا الزحف قوة بيزنطية صغيرة بقيادة تاتيكوس تعبيراً عن مشاركة الامبراطور البيزنطي لهم في هذه الحرب. وعند مرتفعات ضورليوم التقت جموع من الصليبيين بزعامة بوهيمند وتنكرد بقوات السلاجقة الأتراك الذين نبذوا خلافاتهم واتحدوا لمواجهة هذا الخطر الداهم عليهم، ودخل الفريقان في معركة سريعة كادت الهزيمة أن تصيب الصليبيين فيها، لولا وصول نجدات سريعة إليهم غيرت مجرى المعركة، وقلبت موازين الحرب، وأحرز الصليبيون انتصاراً كبيراً على السلاجقة وأبناء عمومتهم الدانشمند وسقطت ضورليوم في يوليه ١٠٩٧م، واستولى الصليبيون على كثير من الغنائم والمؤن، وبهذه الموقعة أصبح واضحاً أن قوة جديدة هي قوة المسيحيين الغربيين ظهرت على مسرح التاريخ في منطقة الشرق الأدنى، بعد أن هزموا قوة الأتراك السلاجقة التي عجزت الامبراطورية البيزنطية عن هزيمتها.

---

(١) Stevenson; Med Hist, p. 299.

سقوط هرقلة:

ما أحرزه الصليبيون من نصر دفعهم إلى مواصلة زحفهم إلى مدينة هرقلة وهم في طريقهم إلى الشام. وعند هرقلة التقى الصليبيون بجيش من السلاجقة بقيادة الأمير حسن أمير كبادوكيا، ودخل الفريقان في حرب خاطفة، قاد فيها الأمير بوهيمند القوات الصليبية بحذق ومهارة، فأنزل الهزيمة بجيش السلاجقة، وفرت جموع من الجنود طلباً للحياة.

وصلت قوات من الصليبيين نحو قيليقية جنوب شرقي آسيا الصغرى، واتخذت بقية القوات مسيرها نحو قيصرية في الشمال الشرقي، ونجحت هذه القوات في الاستيلاء على قيصرية في سبتمبر (١٠٩٧م/ ٤٩٠ هـ)، ثم اتجهت بعد ذلك إلى مرعش، وكان معظم أهلها من الأرمن المسيحيين، وهؤلاء قدموا كثيراً من المساعدات للبيزنطيين والصليبيين، وقد أبقى القائد البيزنطي تاتيكوس على حكم مرعش نظير ما قدمه من مساعدات، بعدما دخلتها القوات البيزنطية والصليبية في أكتوبر ١٠٩٧م.

عند مرعش انفصل بلدوين بقواته واتجه نحو تل باشر قاصداً الرها Edessa بينما واصلت بقية القوات الصليبية بقيادة بوهيمند النورماني زحفها مستخدمة الطريق السريع Quicke Road [1] متجهة نحو أنطاكيا. وبذلك بدأت الحرب الصليبية في الشام.

تأسيس إمارة الرها (بلدوين):

اعتمد بلدوين البولوني في تنفيذ خطته لتأسيس إمارة صليبية في الرها على العناصر المسيحية التي تسكن المنطقة، وركز اهتمامه في الاتصالات مع الأرمن، لميلهم إليه ونظرتهم له باعتباره محرراً لهم. وعن طريق مساعدة العناصر المسيحية تمكن بلدوين من الاستيلاء على الراوندان وتل باشر، حيث جاءته سفارة من ثوروس حاكم مدينة الرها تدعوه لدخول المدينة، وكان ثوروس رجلاً مسناً ليس له من يرث الحكم بعده، وكان معيناً على الرها من قبل الأتراك السلاجقة منذ أن

---

(١) السراوي العلاقات السياسية، ص١٣٧ معتمدة على كتاب الأكسياد، لآنا كومنين.

تمكن من استردادها من أيديهم سنة (١٠٩٤م/٤٨٧ هـ)، لأن معظم أهلها من الأرمن المسيحيين، والمسلمون بها قليل[١]، ولكنه كان مكروهاً من المسيحيين والمسلمين، ويبدو أنه أراد أن يدعم مركزه في المدينة عن طريق اتصاله ببلدوين، الذي أخذت انتصاراته تمهد له الطريق، ولأنه كان لا يريد للمسلمين أن يسيطروا على المدينة من بعده. ولهذا تضافرت الظروف السياسية في المنطقة مع خطة بلدوين في تحقيق هدفه حيث دخل مدينة الرها في فبراير (١٠٩٨م/ ٤٩١ هـ)، يحيط به ثمانون فارساً وسط ترحاب أهلها وحفاوتهم به، وغبطة رجال الكنيسة الأرمينية واستقبالهم له.

ويبدو أن ثوروس أراد أن يتخذ من القوات الصليبية جنوداً مرتزقة تعمل بأوامره، وأن يجعل من بلدوين قائداً له، ولكن بلدوين رفض هذه الفكرة، ورحب بأن يكون وريثاً وشريكاً له في الحكم، وقبل توروس بهذه الشروط[٢] التي لا تضيره طالما هو على رأس الحكم. ولكن أهالي الرها دبروا مؤامرة ليتخلصوا من ثوروس، ومع أن جمهرة من المؤرخين ترى تبرئة بلدوين من تدبير هذه المؤامرة، إلا أنه كان يعلم بها تماماً، ويعرف أهدافها لأن المتآمرين اتصلوا به سراً وأطلعوه على خطتهم التي تتفق ومصلحته الشخصية، وإن لم يشترك فيها.

نجح المتآمرون في حصار قصر ثوروس، الذي طلب السماح له ولأسرته باللجوء إلى ملطية ورفض المتآمرون طلبه، وهجموا عليه وقتلوه، وقلد أهالي الرها الإمارة إلى بلدوين، الذي أعلن قيام أول إمارة صليبية في الشام في مارس (١٠٩٨م/ ٤٩١ هـ)[٣].

استعمل بلدوين سياسة التقارب والملاينة مع أهل الرها، وتزوج الأميرة أردا Arda الأرمينية، ولكن هذه السياسة لم تدم طويلاً، نظراً لتعالي الصليبيين عليهم، وعدم الاختلاط بهم، ومحاولة الظهور بمظهر الارستقراطية الحاكمة، فقام أهل الرها بتدبير مؤامرة للتخلص من بلدوين وقواته، واتصلوا بالأراتقة سراً

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٢٧٠
(٢) Runciman, op. cit .I, P.204
(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٤٦.

للحصول منهم على المساعدة، ولكن المؤامرة اكتشفت في ديسمبر (١٠٩٨م/ ٤٩٢ هـ) وأنزل بلدوين أشد العقاب بالمتآمرين، فصادر ممتلكاتهم، واستولى على أراضيهم ووزعها على قواته، لترداد قوتهم، وتتم لهم السيطرة على حكم الرها.

تأسيس إمارة أنطاكيا (بوهيمند)

وصلت القوات الصليبية بقيادة بوهيمند النورماني إلى أنطاكية، يساعده روبرت دوق نورمانديا Robert of Flanders وريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس Rimond of Saint Jeel ، واقتحمت الطريق المؤدي إلى القلعة وكانت أغلبية أهالي المدينة من المسيحيين مع وجود أقلية من اليونان والأرمن والسريان والمسلمين، وضربوا على المدينة الحصار، وكان يحميها نطاق قوي من الأسوار الممتدة على طول الروابي المحيطة بها، تلك الأسوار التي أقامها جستنيان، ورممها البيزنطيون، وأعاد تحصينها المسلمون فأصبحت أنطاكيا من المناعة والتحصين بحيث لا يمكن مقارنتها إلا بالقسطنطينية[1]، وأرسل ياغي سيان[2] أمير أنطاكيا يستجد دقاق حاكم دمشق، ويستصرخ كربوقا أتابك الموصل، ويطلب مساعدة أمير حمص، كما أرسل إلى الخليفة العباسي لنجدة المسلمين في أنطاكيا[3] وتحصن هو وقواته في قلعة المدينة استعداداً لحصار طويل، ويبدو أن ياغي سيان خاف من السريان والأرمن الموجودين في المدينة، فأخرجهم منها، وتحفظ على نسائهم وأولادهم، فانضم هؤلاء إلى الصليبيين في حصار أنطاكيا، وأمدوهم بالمعلومات والأسرار الخاصة بدفاع المدينة وتحصيناتها، وقد استمر هذا الحصار سبعة شهور[4] (من أكتوبر ١٠٩٧ إلى ٣ يونيه ١٠٩٨).

حاول ياغي سيان شن هجوم مفاجيء على الصليبيين، فانتهز فرصة ابتعاد

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ص٤٩١، ياقوت. المعجم، حـ١ ص٢٦٧.

(٢) تذكره بعض المراجع، باغي بسان ـ راجع زامباور: معجم الأنساب، ص٢٢١، وقد آثرنا الاسم الشائع عنه.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٤.

(٤) عند ابن الأثير الكامل، حـ١٠ ص٢٧٤ (تسعة أشهر).

الصليبيين في أثناء غاراتهم على المناطق المجاورة لنهبها والحصول منها على الميرة والتموينات، ولكنه لم ينجح في محاولته لصعوبة الموقف، والكثرة الهائلة لعدد الصليبيين، ومهارة ريموند في القيادة.

انقسم أمراء الحملة الصليبية على أنفسهم، واختلفت آراؤهم، فقد رأى ريموند ضرورة مباغته القلعة ومهاجمتها، وخالفه خصمه العنيد بوهيمند متعللاً بقرب وصول تنكرد وقواته من الاسكندرونة بالإضافة إلى وصول إمدادات أخرى من أوروبا عن طريق البحر، وفعلاً وصلت قوات تنكرد وارتفعت الروح المعنوية لدى الصليبيين عامة، وشنوا هجومهم على أنطاكيا، وهزموا الأتراك السلاجقة، واستولوا على المدينة، وبقي الحصن (القلعة) مستعصياً عليهم. واستمرت الهجمات من الجانبين، ولم يحرز أيهما نصراً حاسماً على الآخر.

لجأ بوهيمند إلى المناورة السياسية فأعلن في يناير (١٠٩٨م/ صفر ٤٩١ هـ) عن رغبته في العودة إلى إمارته بإيطاليا، لأن وجوده في بلده أصبح ضرورياً، وقد دفعه إلى القيام بهذه المناورة السياسية أنه وقواته أصبحوا بمثابة العمود الفقري للقوات الصليبية التي تحاصر أنطاكيا، وكان غرض بوهيمند إثارة مشاعر الصليبيين نحوه، والتمسك بوجوده بينهم، ليضمن لنفسه إمارة أنطاكيا، وقد نجح فعلاً في مناورته، لأن زعماء الصليبيين - ما عدا ريموند - أسرعوا إليه متوسلين ألا يتركهم أمام أنطاكيا في هذا الوقت العصيب، ووعدوه بتسليم أنطاكيا له فور الاستيلاء عليها، خاصة بعد أن رجع تاتيكوس Tatikios مندوب الامبراطور البيزنطي إلى القسطنطينية تاركاً الساحة لبوهيمند الذي اتهمه بالتآمر مع الأتراك السلاجقة ضد الامبراطور ألكسيوس كومنين، ليجبره على الفرار والعودة.

وفي نفس الوقت أقنع بوهيمند معظم الأمراء الصليبيين بطلب العون من الفاطميين في مصر، لأن الفاطميين كانوا على عداء مع السلاجقة بسبب ما بينهم من صراع على مدن الشام، ولأن السلاجقة قضوا على نفوذ الفاطميين في الشام. وأرسل الأمراء الصليبيون بعثة لتتفاوض مع الخليفة الفاطمي المستعلي في مصر، وكان رأي الخليفة أن تقسم بلاد الشام إلى قسمين، شمالي (أنطاكيا وما حولها) تحت سيطرة الصليبيين، وجنوبي (بيت المقدس وما يحيط به) تحت سيطرة

الفاطميين[1]، ومن المؤسف حقاً أن الفاطميين أرسلوا سفارة إلى الصليبيين بأنطاكيا لعرض مشروع هذا الاتفاق عليهم، ومعنى تبادل السفارات هو اعتراف سياسي بتواجد الصليبيين في الأراضي المقدسة. وفعلاً وضع الاتفاق موضع التنفيذ، وعبرت حدود الفاطميين إلى جنوب فلسطين، ودخلوا بيت المقدس سنة (١٠٩٨م/ ٤٩١ هـ) واستولوا عليه من سكمان الأرتقي[2] وواصلوا تقدمهم حتى وصلوا إلى نهر الكلب.

طارت أخبار هذا التحالف بين الفاطميين والصليبيين إلى القوى الإسلامية الأخرى في العراق والشام، ونجحت هذه القوى في إعداد نجدات كبيرة على عجل لمساعدة ياغي سيان وإنقاذ أنطاكيا من أيدي الصليبيين. وأطلت الخيانة برأسها، وانتقلت أخبار هذه النجدات الإسلامية عن طريق الأرمن والسريان المسيحيين إلى الأمراء الصليبيين، الذين تمكنوا من إنزال ضربة قاصمة بالنجدات الإسلامية والاستيلاء على حارم. ولم تقف الخيانة عند هذا الحد، بل ظلت تلعب دورها الخبيث حتى تمكن بوهيمند من الاستيلاء على قلعة أنطاكيا الحصينة. فقد اتفق بوهيمند مع أحد الموكلين بحفظ الأبراج واسمه فيروز[3] على أن يفتح للصليبيين باب البرج الشرقي، وبذل له مالاً وإقطاعاً، وتمت الخيانة ودخل بوهيمند بقواته الحصن قبيل الفجر، وأمعن الصليبيون القتل في المسلمين، وقتل ياغي سيان[4] وحملت رأسه إلى بوهيمند، وهكذا تملك الصليبيون إمارة أنطاكيا في مايو (١٠٩٧م/ جمادى الأولى سنة ٤٩٠ هـ)، ليعلن بوهيمند قيام الإمارة الصليبية الثانية، ويعلن نفسه أميراً عليها. ومن الواضح أن أمراء الحملة الصليبية تخلوا عن يمين الولاء للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، وتغاضوا عن تبعيتهم له، وضربوا بتعهداتهم بتسليم الأراضي التي يستولون عليها من المسلمين إلى الدولة البيزنطية عرض الحائط كل ذلك بسبب مطامعهم الشخصية في تكوين إمارات

---

(١) ابن الأثير الكامل، جـ١٠ ص٢٧٣.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥.

(٣) يسميه ابن الأثير (الكامل جـ١٠ ص٢٧٤) زرّاد ويعرف بـ(روزبه).

(٤) يذكر ابن الأثير (المرجع السابق نفسه) أن ياغي سيان فر في قلة من أتباعه، والأغلب أنه قتل في المعركة.

صليبية على حساب البيزنطيين والمسلمين معاً، ليستقل كل أمير بواحدة من هذه الإمارات في بلاد الشام.

أخذ تنافس الأمراء الصليبيين على أنطاكيا يظهر في علاقاتهم مع بعضهم البعض، فريموند كان يعارض بوهيمند في موقفه من الامبراطور البيزنطي وعدم تسليم أنطاكيا له حسب شروط الاتفاق المبرم بين الجانبين، ووفاء ليمين الولاء الذي أقسم عليه بوهيمند، وكان ريموند يطمع في أن تكون أنطاكيا له ظراً للجهود الكبيرة التي بذلها في حصار المدينة والقلعة. أما جودفري فقد رغب عن هذه المنافسة، لأنه كان حريصاً على أن تستكمل الحملة الصليبية هدفها الأساسي وهو الاستيلاء على بيت المقدس. أما بقية الأمراء فقد تباطؤوا عن الخروج من أنطاكيا لمواصلة الزحف إلى بيت المقدس، ووصل أمر التنازع بين هؤلاء الأمراء أن هدد بعضهم بترك أنطاكيا مكشوفة أمام المسلمين إذا لم يكف الأمراء عن خلافاتهم[1]، ويضعوا هدف الحملة الأول نصب أعينهم، وهو الاستيلاء على بيت المقدس.

تأسيس إمارة بيت المقدس (جودفري)

لم يكن الطريق إلى بيت المقدس سهلاً، فالمدن الساحلية على جانب كبير من التحصين، والصليبيون يرغبون الوصول إلى بيت المقدس بسرعة، خاصة وأن الوقت قد طال بهم منذ أن خرجوا من أوروبا عام ١٠٩٦م. ولكن الأوضاع السياسية بين القوى الإسلامية في المنطقة ساعدت الصليبيين على تخطي هذه الصعاب، ودخول بيت المقدس، فمصر تحت سيطرة الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، الذي استغل اتصال الصليبيين بالفاطميين واستولى على بيت المقدس من أيدي الأراتقة (سقمان بن أرتق التركماني)[2]، ولكن وجود النفوذ الفاطمي في جنوب الشام لم يحل بين الصليبيين واستيلائهم على بيت المقدس.

وأمراء مدن الشام آثروا السلامة، ودخل معظمهم في تحالف مع الصليبيين،

---

(1) Runciman, op. cit. I,PP. 18-31.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حـ ١٠ ص ٢٨٣.

وكان على رأس هؤلاء الأمراء، أمير حماه وأمير حمص، وبنو منقذ في شيزر[1]، وبنو عمار في طرابلس الشام، فهؤلاء جميعاً لم تبدر منهم أي مقاومة لصد الزحف الصليبي على بيت المقدس، ولو أنهم لم يدخلوا في محالفات مع الصليبيين، فربما كان موقفهم الحيادي عاملاً معوقاً ومعطلاً لهذا الزحف الصليبي.

زحفت القوات الصليبية بقيادة ريموند فوصلت معرة النعمان، ومنها إلى كفر طاب حيث عسكرت انتظاراً لوصول إمدادات بقيادة تنكرد وروبرت النورماندي، ومن المؤسف حقاً أن مبعوث بني منقذ أمراء شيزر قدم العون والميرة بأزهد الأسعار في مقابل موافقتهم على المرور في أراضيهم بسلام، ودون تعريض شيزر لأي أضرار، وتطوع هذا المبعوث ليقود القوات الصليبية ويعبر بها نهر الكلب بين شيزر وحماة. واصل الصليبيون تقدمهم بعد مناقشات بينهم أي الطرق أفضل لكي يسيروا فيها، الطريق الساحلي، أم الطريق الداخلي، وقد أعرب تنكرد عن مخاوفه من طريق الساحل، نظر لحصانة المدن الساحلية وقوة دفاعها، ولا بد للقوات الصليبية من الاستيلاء على هذه المدن قبل الوصول إلى بيت المقدس، وعدد جنود الحملة لا يزيد عن ستة آلاف مقاتل من بينهم ألف فارس، وأخيراً استقر رأي الأمراء الصليبيين على أن تسلك الحملة طريق البقاع؛ فوصلوا إلى مدينة مصياف، فتقدم أميرها بطلب الصلح معهم، ومنها وصلوا إلى رفانية فوجدوا أهلها قد هجروها تاركينها عامرة بالمؤن، ثم وصلوا إلى البقيعة وضربوا الحصار على حصن الأكراد، فلم تقو حاميتُهُ على الصمود، فسلموا الحصن إلى الصليبيين، ثم واصل الصليبيون تقدمهم إلى عرقة[2] حيث قامت قواتهم بهجمات خاطفة على بعض المواقع وأحرزوا نصراً، ولكن عرقة نفسها استعصت عليهم.

لم يلبث بوهيمند أمير أنطاكيا أن حضر بقواته ليسهم في الاستيلاء على بيت المقدس، وتقدمت القوات الصليبية كلها وحاصرت مدينة القدس نيفاً وأربعين يوماً وضرب الصليبيون بتحالفهم مع الفاطميين عرض الحائط ثم سقطت المدينة

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٠ ص٢٧٨.
(٢) تبعد عرقة عن طرابلس حوالي ٢٤ كيلومتراً.

في أيديهم، حيث دخلوها من الجهة الشمالية صباح يوم الجمعة (٢٢ شعبان ٤٩٢ هـ/ [1] ١٥ يوليو ١٠٩٩ م)، فوضعوا سيوفهم في رقاب من بها من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا لمساعدة الصليبيين والذين احتموا بالمسجد الأقصى، وقد سالت دماء هؤلاء أنهاراً في طرقات القدس وبلغ عددهم ما بين ستين ألفاً ومائة ألف[2]، واستولوا على ما كان بالمسجد الأقصى من قناديل من الفضة ومن الأموال شيئاً كثيراً. وبسقوط بيت المقدس تكون الحملة الصليبية الأولى قد حققت أغراضها في الاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين.

ومع أن الخلاف على شكل الحكم في المدينة المقدسة قد نشب بين الأمراء، إلا أنهم وافقوا على اختيار أحد قواد الحملة من الأمراء ليقوم بإدارة المدينة وتنظيم شئونها، ووقع الاختيار على جودفري دي بوايون ليكون أول حاكم صليبي لبيت المقدس، وقد رفض جودفري أن يتوج ملكاً على القدس، واكتفى بلقب حامي القبر المقدس[3]، كما تم اختيار بطريركاً للمدينة هو أرنولف مالكون.

مملكة بيت المقدس

بعدما قتل جودفري دي بوايون سنة (١١٠٠ م/ ٤٩٤ هـ)[4] استدعى شقيقه بلدوين الأول من إمارته في الرها بناء على وصية من أخيه جودفري[5]، فترك بلدوين الرها بعد أن عين عليها أحد أقاربه وهو بلدوين دي بورج، فوصل إلى أنطاكيا ومكث بها ثلاثة أيام حيث احتفى به أهلها تكريماً له لمحاولته إنقاذ بوهيمند

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٢٨٣ وما بعدها.

(٢) لوبون: حضارة العرب، ص ٢٨٧؛ ابن خلدون. تاريخ، جـ٥ ص١٨٤، ابن الأثير الكامل، جـ١٠ ص٢٨٣.

(٣) شلبي: التاريخ الإسلامي، جـ٥ ص٤٤٦.

(٤) أصيب بسهم أثناء حصاره مدينة عكا، راجع ابن الأثير: الكامل جـ١٠ ص٣٢٤.

(٥) Cam. Med. Hist. vol V,p. 304 and Stevenson, op. Cit. P. 42

راجع كذلك عاشور: العلاقات، ص٢١٨.

من الأسر، ومنها وصل إلى اللاذقية وفي طريقه إلى طرابلس صادفته بعض الأخطار، لأن الأتراك السلاجقة حاولوا قطع الطريق عليه والإمساك به، ولكنه أفلت ووصل إلى طرابلس، فخرج إليه أميرها العربي أبو علي بن عمار مرحباً ومكرماً، وقدم إليه وإلى رجاله ما كانوا في مسيس الحاجة إليه من ميرة وغذاء، ومن المؤسف حقاً أنه اتفق مع بلدوين على أن يحيطه علماً بتحركات دقاق السلجوقي أمير دمشق الذي كان على خلاف كبير مع حكام طرابلس من بني عمار، وقد ترتب على هذا الاتفاق زيادة حدة العداء والكراهية بين سلاجقة الشام، وبني عمار في طرابلس، وفي نفس الوقت اطمأن الصليبيون إلى وجود جبهة تحمي ظهرهم من المسلمين أنفسهم، وهذا يوضح لنا إلى أي مدى تلعب الجوانب السياسية دوراً خطيراً في تفرقة حكام المدن الإسلامية، وتدفع ببعضهم إلى الارتماء في أحضان عدوهم وعدو دينهم، الذي سيضربهم جميعاً ليقضي عليهم ويتخلص من وجودهم لينفرد هو بالأرض والحكم، وينعم بالاستقرار والأمان.

كان أول عمل قام به بلدوين بعد وصوله إلى بيت المقدس هو الخروج في جولة حربية لدراسة المناطق القريبة من بيت المقدس، ولتأديب الأعراب الموجودين في عسقلان والخليل وبيت لحم، بدعوى إقرار الأمن في طريق الحجاج الأوروبيين. ويبدو أن بلدوين أحس بما يواجهه من مصاعب وأخطار في ملكه الجديد، فاستعمل ما اشتهر به من حسن سياسة وذكاء، وتمكن من إيجاد الوفاق والتفاهم مع داجوبرت بطريق بيت المقدس، الذي كان يسعى جاهداً لإقامة حكومة ثيوقراطية، فتخلى داجوبرت عن سياسته خاصة وأن بوهيمند وقع في أسر الدانشمند أمير قيليقية وسيواس ووقفت مساعدات النورمان له، ووافق على تتويج بلدوين ملكاً، وتم ذلك في يوم عيد الميلاد (٢٤ ديسمبر) ١١٠٠ م/ صفر ٤٩٤ هـ بكنيسة العذراء ببيت لحم، حيث وضع البطريق داجوبرت التاج على رأس بلدوين الأول ليكون أول ملك صليبي على مملكة بيت المقدس[١].

لم يكن تأسيس مملكة بيت المقدس لطمة موجهة للكنيسة فحسب، بل كانت موجهة كذلك لبوهيمند وللنورمان في أنطاكيا. حيث ساد الاعتقاد حينذاك

(١) باركر: الحروب الصليبية، ص٣٩-٤١.

بأن أنطاكيا ينبغي أن تكون عاصمة المسيحية اللاتينية في الشرق ، نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام، ولأن أرضها من أحصب البلدان في الشرق، ثم إن بوهيمند من أعظم رجال عصره عبقرية وحذقاً في فنون القتال.

كذلك كان ظهور بلدوين الاول على مسرح الحوادث في بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري بمثابة الكارثة بالنسبة لتنكريد الذي كان يسعى مع البطريق داجوبرت ويشد من أزره في تكوين حكومة ثيوقراطية، فقد شعر تنكريد بأنه سيفقد مركزه ونفوذه باعتباره الرجل الثاني بعد جودفري الذي ولاه إمارة الجليل ثم استولى تنكريد على حيفا بعدها مما زاد في سلطانه ونفوذه، لأن سياسة تنكريد مناقضة تماماً لسياسة بلدوين، وزاد الأمر سوءاً أن تنكريد كان على خلاف كبير مع بلدوين الأول بسبب تنافس كل منهما حول الاستيلاء على قيليقية والمصيصة سنة (١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ)، لذلك امتنع تنكريد عن المثول بين يدي بلدوين باعتباره ملكاً على بيت المقدس، ولكن لحسن حظ تنكريد أن وصلته رسالة من الصليبيين في أنطاكيا في مارس (١١٠١ م/ جمادى الأولى ٤٩٥ هـ) يطلبون إليه الحضور ليقوم بمسئولية إمارة أنطاكيا ـ كوصي عليها ـ أثناء غياب خاله بوهيمند الذي كان في الأسر، وبذلك حلت مشكلة تنكريد مع بلدوين. ولكنه لم يسلم من حقد بعض الأمراء الآخرين لأنه أصبح صاحب النفوذ عليهم جميعاً.

ومن المشاكل الداخلية التي صادفته كذلك، قدوم أعداد كبيرة من الحجاج الأوروبيين إلى المدينة، الأمر الذي أدى إلى ارتباك الحياة واضطرابها بسبب ما كان يعانيه الصليبيون في الشام من نقص شديد في الميرة والغذاء، إلى جانب هذا النقص نفسه في المقاتلين والفرسان.

أما الأخطار الخارجية فقد تجسمت أمام بلدوين الأول في القوات الفاطمية في مصر، لأنهم لم ينسوا غدر الصليبيين بهم، واستيلائهم على بيت المقدس من أيديهم، ولذلك رأى بلدوين الأول أن يواجه الخطر الفاطمي ليحمي مملكته، ويؤمن مواطنيه من هجماتهم، فشن حرباً خاطفة مكنته من الاستيلاء على بعض المدن الساحلية التي كانت تحت نفوذ الفاطميين مثل حيفا وأرسوف وقيسارية[١]

(١) ابن الأثير. الكامل، جـ١٠ ص٣٢٥.

وتشير المراجع الأوروبية إلى المذبحة الوحشية التي ارتكبها الصليبيون في قيسارية حيث قتلوا كثيراً من أهلها الأبرياء. وكان من نتيجة استيلائهم على هذه المدن الساحلية أن نشطت تجارة مملكة بيت المقدس الصليبية مع المدن الأوروبية بسبب الاتفاق الذي تم بين أهل جنوى وبين الصليبيين على أن يقدم الجنويون مساعدتهم مقابل الحصول على ثلث ما يحصلون عليه من الغنيمة، وعلى حي في كل مدينة يتم الاستيلاء عليها لتكون مركزاً لهم ولتجارتهم، وأن يعفوا من كل الرسوم[1] كما تم تأمين وصول الحجاج الأوروبيين إلى القدس.

أعد الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي أمير الجيوش الفاطمية حملة خرج بها إلى عسقلان (١١٠١م/ ٤٩٥ هـ)، ولكن الصليبيين استعانوا بجموع كبيرة من الحجاج الأوروبيين الذين قدموا لزيارة بيت المقدس فأنزلوا الهزيمة بجند الفاطميين، واضطروهم إلى الاحتماء داخل عسقلان، واضطر أهل عسقلان إلى دفع مبلغ كبير من المال للصليبيين[2]. وفي العام التالي (١١٠٢م/ ٤٩٦هـ) عاود الفاطميون هجومهم على الصليبيين فيما بين الرملة ويافا، وكان بلدوين الأول قد خرج في جموع قليلة (حوالي مائتي فارس) مغتراً بما أحرزه من نصر سابق لملاقاة الجيش الفاطمي الذي تمكن من صد هجمات الصليبيين، وأحرز عليهم نصراً يسيراً[3]، ولذلك أعد أمير الجيوش الأفضل حملة أخرى سنة (١١٠٥م/ ٤٩٩ هـ) أسند قيادتها إلى ابنه سناء الملك حسين، وسانده بالأسطول الفاطمي، والتقى جيش الصليبيين بقيادة بلدوين مع القوات الفاطمية التي أعانها طغتكين أتابك دمشق بألف وثلاثمائة فارس، فأصبح عدد القوات الفاطمية ستة آلاف وثلاثمائة، وكانت قوات الصليبيين تسعة آلاف وثلاثمائة من الفرسان والمقاتلين، ووقع المصاف بين الفريقين بين عسقلان ويافا[4]، وقتل من الجانبين جموع كثيرة وبعض القواد، فقد قتل جمال الملك أمير عسقلان، وقائد الصليبيين في

---

(١) ماركز الحروب الصليبية، ص٤٤.

(٢) ابن الأثير. الكامل، جـ١٠ ص٢٨٦.

(٣) يذكر ابن الأثير (نفسه ص٣٦٥) أن الفاطميين أحرزوا نصراً وقتلوا من الصليبيين أربعمائة، وأسروا ثلاثمائة ولكن هذا يخالف ما ذكرته المراجع الأوروبية المعاصرة.

(٤) ابن الأثير: نفسه، ص٣٩٤-٣٩٥.

أرسوف، وقائد قوات عكا. ولكن لم يحرز أيهما نصراً على الآخر، وعاد كل فريق إلى بلده. ومن المؤلم أن الأسطول الفاطمي تعرض أثناء عودته إلى مصر إلى عاصفة هوجاء ألقت بعشرين من سفنه على شواطيء الموانيء الصليبية، فوقعت في أيدي الصليبيين. ومع كل ما أصاب القوات الفاطمية فقد ظلت مصدر قلق للصليبيين إذ دأبت هذه القوات على توجيه ضرباتها سوياً وشن هجماتها على مملكة بيت المقدس[1] حيث اتخذت من عسقلان مركزاً تشن منه الغارات والهجمات على الصليبيين مثلما حدث سنة (١١٠٦ م/ ٥٠٠ هـ) عندما هاجم الفاطميون قافلة من الحجاج الأوروبيين بين يافا وأرسوف، وفي سنة (١١٠٧ م/ ٥٠١ هـ) عندما هاجم الفاطميون مدينة الخليل، بل إنهم وصلوا في غاراتهم إلى أسوار بيت المقدس ذاتها سنة (١١١٠ م/ ٥٠٤ هـ)[2].

حقيقة أن السفن الأوروبية كانت تجلب الكثير من الحجاج الأوروبيين الذين استقرت جموع منهم في مملكة بيت المقدس الصليبية أو غيرها من الإمارات، ولكن هذه السفن كانت كثيراً ما تتعرض لهجمات الأساطيل الإسلامية المتمركزة في شمال أفريقية، ومصر، وحتى إذا وصلت جموع هؤلاء الحجاج إلى أرض فلسطين، فكانوا يتعرضون لإغارات البدو الذين شنوا ما يشبه حرب العصابات الخاطفة على هؤلاء المغتصبين لأرضهم، الأمر الذي جعل الإمارات الصليبية أشبه ما تكون بجزر متباعدة ومتحاجزة في محيط من المدن الإسلامية المترامية الأطراف.

واصل بلدوين الأول تنفيذ توسعاته التي كان يطمع من ورائها في الاستيلاء على بقية مدن فلسطين الساحلية لتأمين حدود مملكته، مثل صور وعكا وصيدا وبيروت وعسقلان وكانت كلها تابعة للفاطميين. وفعلاً ضرب الحصار على عكا لأول مرة في ربيع سنة (١١٠٣م/ ٤٩٥ هـ)، وشدد عليها الحصار لدرجة أن المدينة كادت تستسلم له، ولكن ما تمتعت به عكا على مر العصور التاريخية من منعة وحصانة، بالإضافة إلى ما وصلها من نجدات من بقية مدن الساحل مثل صور

---

١) باركر: الحروب الصليبية ص٤٨.

٢) Runciman, op. cit. I p. 91

وصيدا أرغمت بلدوين على فك الحصار والعودة إلى مملكته(١).

وفي العام التالي ساعدت الظروف بلدوين الأول بوصول سفن كثيرة من جنوى عليها كثير من التجار والأجناد والحجاج، وتمكن بلدوين من استغلال هذه الجموع وهذه السفن في مهاجمة عكا (للمرة الثانية) في أواخر مايو (١١٠٤ م(٢)/ ٤٩٧ هـ) ودافع أهل عكا عن مدينتهم دفاع الأبطال، ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام ما ضربه الصليبيون عليهم من حصار في البحر والبر واضطر حاكم عكا من قبل الفاطميين واسمه (بنا) ويعرف بزهر الدولة الجيوشي نسبة إلى أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي إلى تسليم البلد إليهم، فدخلوها عنوة، وقتلوا كثيراً من أهلها(٣)، وبذلك حرمت القوات الفاطمية من أهم قاعدة لهم بالشام، وأصبح للصليبيين السيادة على شواطىء فلسطين.

انتهز خليفة تنكريد في طبرية وهو هيو فالكن ـ بورج Heu Walkenburg فرصة انشغال المسلمين بهجمات بلدوين الأول وتوسعاته في مدن فلسطين الساحلية وأخذ يعمل هو الآخر على توسيع إمارته في الجليل، وكان يهدف إلى الاستيلاء على صور من أيدي الفاطميين، وقد تمكن هيو من إقامة حصنين في سنة (١١٠٥م/ ٤٩٩ هـ) هما حصن تنين، وحصن عال فوق المرتفعات الجنوبية الغربية المطلة على بحيرة طبرية، وبذلك أصبح يهدد دمشق. فأعد طغتكين أتابك دمشق له كميناً أثناء عودته وفرسانه محملين بالغنائم من إحدى غاراتهم على المسلمين، وانقض عليهم، فأصاب الكثير منهم بجراح، وقتل هيو نفسه متأثراً بجراحه، واستولى طغتكين على حصن عال الذي كان وجوده في أيدي الصليبيين خطراً يهدد دمشق(٤).

ترتب على انتصار طغتيكن أتابك دمشق أن تشجع المسلمون في مدن فلسطين الساحلية وقاموا بهجوم على الصليبيين، والتقوا بقافلة من الحجاج

---

(١) ابن الأثير الكامل، جـ١٠ ص ٢٩٥ وما بعدها
(٢) باركر الحروب الصليبية، ص٤٤
(٣) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، جـ٥ ص١٨٨.
(٤) ابن القلانسي: مرجع سابق، ص ١٤٩-١٥١، وابن خلدون، تاريخ، جـ٥ ص١٥٠.

الأوروبيين فيما بين يافا وأرسوف في (أكتوبر ١١٠٦م/ ٥٠٠ هـ) فقتلوا أفرادها جميعاً، وكانوا حوالي خمسمائة. ثم توغل المسلمون إلى الرملة فالتقوا بسرية استطلاعية من الفرسان الصليبيين من يافا، فقتلوهم كذلك، وعندما أحسوا بقرب وصول بلدوين الأول مع قواته إليهم، عادوا إلى مدنهم واحتموا بها.

واصل بلدوين الأول هجومه على مدن فلسطين الساحلية مستغلاً فرصة تواجد أعداد كثيرة من الحجاج الصليبيين من الإنجليز والفلمنكيين والدانمركيين في مملكته سنة (١١٠٦م/ ٥٠٠ هـ) واستعان بهم، وبدأ يتحرك نحو مدينة صيدا لأنها أقل مناعة وتحصيناً من صور وعسقلان. فلما وصلت أنباء تحركاتهم إلى حاكم صيدا الفاطمي اشترى مسالمة بلدوين الأول بمبلغ كبير من المال. ولكن بلدوين عاود محاولة الاستيلاء على صيدا بعد عامين، فقد استعمل - كعادته - جموعاً كثيرة من الحجاج الأوروبيين القادمين على سفنهم من بيزا وجنوى والبندقية وأمالفي، وضرب الحصار براً وبحراً على صيدا. ولكن الفاطميين أرسلوا أسطولهم فأنزل هزيمة منكرة بالسفن الايطالية، كما وصلت نجدات كبيرة من طغتكين أتابك دمشق، امكنها هزيمة بلدوين وقواته في البر، فعاد منسحبا إلى عكا.

أرسل بلدوين الأول ألفين من الجنود وأربعمائة من الفرسان على رأسهم (جرفية) جرفاش إلى طبرية في سنة (١١٠٨م/ ٥٠٢ هـ) ليستردوا حصن عال الذي استولى عليه طغتكين أتابك دمشق من قبل، وتصدى المسلمون بقيادة طغتكين لهذه القوات الصليبية، التي أحرزت نصراً في هجماتها الأولى على المسلمين، ولكن طغتكين ثبت أمام هذه الهجمات وشجع جنوده، فصمدوا وقاتلوا بضراوة حتى مالت كفة النصر إليهم ووقع جرفاش أسيراً في أيدي المسلمين، وحمل إلى دمشق مقيداً بالسلاسل، وطلب طغتكين جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا مقابل إطلاق سراح جرفاش، ولكن بلدوين رفض ذلك. فأمر طغتكين فقتل جرفاش، وعندئذ طلب الصليبيون هدنة لمدة أربع سنوات، ووافق طغتكين نظراً لظهور بعض الخلافات بين حكام المدن الإسلامية في شمال الشام، ويبدو أن هذه الهدنة كان لها دور فعال في الحفاظ على أهل دمشق، لدرجة أن ابن

الأثير[1] عبر عنها بقوله: «ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين، بعد الهزيمة الآتي ذكرها، أمراً عظيماً». وابن الأثير يشير هنا إلى الهزيمة المرة التي أصابت قوات طغتكين أمام حصن عرقة من أعمال طرابلس، وخوفه الشديد من أن ينقض بلدوين الأول الهدنة ويهاجم المسلمين وهم على هذه الحالة المشتتة، ولكن بلدوين لم يفعل ذلك.

وفي عام (١١١٠م/ ٥٠٤هـ) ضرب بلدوين الأول الحصار على بيروت قرابة أربعة أشهر - من فبراير إلى مايو - وحاول الفاطميون إرسال النجدات إلى أهل بيروت عن طريق البحر، ولكن سفن الصليبيين وقواتهم التابعة للأمير برتراند ابن ريموند الصنجيلي، الذي كان قد استولى على طرابلس منذ فترة وجيزة، حالت دون وصول هذه النجدات. ويئس أهل بيروت واضطروا إلى التسليم لبلدوين بعد أن وافقهم على ما طلبوه من الأمان، ولكن الإيطاليين أحدثوا مذبحة رهيبة في أهل بيروت[2].

شجع هذا الانتصار بلدوين الأول على أن يعاود محاولته للمرة الثالثة للاستيلاء على صيدا، وساعدته الظروف بوصول أسطول من ٥٥ سفينة تحمل على ظهرها آلافاً من الحجاج النرويجيين ومعهم ملكهم سيجورد Sigurd The Soralafari[3] الذي اتفق بلدوين الأول معه على أن يشارك بسفنه في حصار صيدا بحراً، ولعب الحظ دوره مع بلدوين إذ قدمت مجموعة من سفن البندقية عليها حجاج صليبيون، فانضموا كذلك وشاركوا في حصار صيدا، وعهد بلدوين بقواته الهجوم على المدينة من البر، وأدرك شيوخ صيدا وقاضيها ألا نجاة لأهل المدينة إلا بالتسليم لبلدوين وكانت نفوسهم ضعفت، وخافوا أن يصيبهم ما أصاب أهل بيروت، فطلبوا الأمان في أوائل ديسمبر (١١١٠م/ ٥٠٤ هـ) وأجابهم بلدوين إلى ما طلبوا، واستولى على المدينة[4]. ولكنه استنزف أموال المسلمين المقيمين في المدينة، حيث استولى منهم على عشرين ألف دينار، فأفقرهم.

---

(١) الكامل: جـ١٠ ص٤٦٧ وما بعدها.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٧-١٦٨.

(٣) باركر: الحروب الصليبية، ص٤٤.

(٤) ابن الأثير: نفسه، ص٤٧٩-٤٨٠.

حاول حاكم عسقلان الفاطمي (شمس الخلافة) أن يضمن سلامته وسلامة بلده فعقد مع بلدوين الأول اتفاقية بهذا الخصوص مقابل جزية يدفعها له، ووصلت هذه الأخبار إلى أمير الجيوش الأفضل فانزعج لها، وأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين، وكان قد أعطى تعليماته إلى قائد الحملة بعزل شمس الخلافة وأن يقبض عليه، ويقيم هو عوضاً عنه حاكماً لعسقلان. وأوجس شمس الخلافة خيفة من هذه الحملة، فرفض أن يفتح لها أبواب المدينة أو يتعاون معها، بل طرد الحامية الفاطمية الموجودة عنده، واتخذ له جنوداً من الأرمن، فثار أهل عسقلان عليه وقتلوه ونهبوا داره في سنة (١١١١م/ ذي الحجة ٥٠٤ هـ) وتمكن الفاطميون من إعادة الهدوء والاستقرار إلى المدينة التي نجت من الوقوع في أيدي الصليبيين، والتي ستظل شوكة في جنبهم لمدة أربعين سنة أخرى[1].

انتقل بلدوين الأول بقواته إلى مدينة صور حيث ضرب عليها الحصار في نفس العام (١١١١م/ جمادى الأولى ٥٠٥ هـ)، وساعدته بعض السفن البيزنطية، ولكنها لم تكن ذات فعالية في القتال نظراً لضعف البيزنطيين، وعدم قدرة الصليبيين على أن ينالوا من صور لحصانتها. وقد لجأ الصليبيون إلى إقامة عدة أبراج خشبية ملاصقة لسور المدينة حتى يسهل عليهم ضرب حاميتها، وحشدوا في كل برج ما يقرب من ألف مقاتل، ولكن رجلاً من أهل صور أخذ معه حطباً ومواد مشتعلة، وذهب مع جموع من المسلمين المقاتلين، وهاجم الصليبيين حتى وصل إلى هذه الأبراج وألقى ما معه من حطب حولها ثم أشعل النار فيه، ولكي يشغل الصليبيين الموجودين بداخل هذه الأبراج عن إطفاء النار المحيطة بهم، قذفهم بجُرب مملوءة بقاذورات كان قد حملها معه لهذا الغرض، فاحترقت الأبراج ومن فيها جميعاً.

خاف أهل صور من انتقام الصليبيين، وأحسوا بضعف الدولة الفاطمية، فالتجوا إلى طغتكين أتابك دمشق، وطلبوا منه أن يدخلوا في حمايته وأن يكونوا تابعين له، فاستجاب لطلبهم، وعين عليهم حاكماً اسمه (مسعود)، ووزع عليهم

---

(١) ابن الأثير، نفسه، ص٤٨٠-٤٨١، وابن القلانسي: مرجع سابق، ص١٧٢ وكذلك Runciman, op. cit, II p.95

المؤن والمال والإمدادات، وأعاد بناء سور المدينة وخندقها[1]، لأن الصليبيين كانوا قد هدموه.

ولم تسلم دمشق من مهاجمة بلدوين الأول وقواته، فقد هاجموا المدينة في مايو (١١١٣م/ ذي القعدة ٥٠٦ هـ)، وخربوها، ونهبوها، وانقطعت عنها الأقوات، وارتفعت الأسعار، وقلت القوات فاستنجد طغتكين بالأمير مودود بن التونتكين، صاحب الموصل، فخرج على رأس عسكره فلما سمع الصليبيون بقرب وصوله، تركوا المدينة وعادوا من حيث أتوا.

---

(١) ابن الأثير. نفسه، ص٤٨٩-٩٠.

الفصل الثامن

سلاجقة فارس وبلدوين الأول

في الوقت الذي تابع فيه بلدوين الأول ما كان يحدث في عسقلان التي أراد حاكمها شمس الخلافة أن يستقل عن تبعيته للفاطميين في مصر، ويدخل في تحالف مع بلدوين الأول، إذا برسالة تصله من أمير الرها بلدوين دي بورج يستنجد به ضد هجوم سلاجقة فارس على إمارته.

في تلك الفترة كانت جموع من المسلمين في حلب اشتكت إلى الخليفة العباسي المستظهر من موقف أميرهم رضوان بن تتش، ومن ضعفه أمام تنكريد أمير أنطاكيا، الذي يغير بقواته على أطراف حلب فيغنم ويسبي النساء ويقتل، ورضوان قابع في الإمارة لا يخرج إليهم[1]. وطلبت هذه الجموع من الخليفة أن يحسم هذا الأمر، ويدعو لجهاد الصليبيين، وقد أثار غضب المسلمين وزاد في حماسهم أن سفارة بيزنطية وصلت إلى الخليفة العباسي المستظهر ببغداد، تدعوه إلى التحالف مع الامبراطور البيزنطي، وتثير حميته وغضبه على تنكريد والصليبيين وتحثه على الإيقاع بهم وطردهم، وعدم التراخي في أمرهم، وضرورة الفتك بهم، قبل أن يعضل خطبهم، ويستفحل شرهم[2]، فاشتعلت ثورة المسلمين ضد الخليفة العباسي المستظهر، واتهموه بالتباطؤ في أمر الجهاد، والغفلة عما يحيط بالمسلمين من أخطار، وقالوا له: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم[3].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٥ ص٢٠٥.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٣.

(٣) ابن الأثير. الكامل، جـ١٠ ص٤٨٣.

اضطر الخليفة العباسي المستظهر أن يرسل إلى السلطان محمد السلجوقي (حمية)، وكان في أصفهان، ويطلب منه القيام بعمل ما ضد الصليبيين لإخماد ثورة المسلمين ضده، فكلف السلطان محمد السلجوقي الأمير مودود بن التونتكين، أتابك الموصل، بالتصدي للصليبيين، فاستعان مودود بأمراء ميافارقين ومراغة وإربل وهمدان وغيرهم. وعندما أحس بلدوين دي بورج أمير الرها، بتلك التجمعات الإسلامية بالقرب من حدود إمارته، أخذ في تحصينها وتخزين المؤن والإمدادات استعداداً للحصار والحرب، فلما وقف الأمير مودود على تلك الاستعدادات ترك الرها، وقصد تل باشر غربي الفرات في يوليو سنة (١١١١م/ ٥٠٥ هـ).

ضرب المسلمون الحصار على تل باشر، ونجحت حامية المدينة في مقاومة الحصار، وفي تلك الأثناء طلب أمير شيزر (علي بن منقذ) بالشام، النجدة من المسلمين ضد تنكريد، أمير أنطاكيا، وفي نفس الوقت طلب رضوان بن تتش، أمير حلب، مساعدة المسلمين ضد تنكريد. ففكر مودود في مهاجمة أنطاكيا بمساعدة رضوان وقواته، ولكن رضوان[1] انكشفت سريرته إذ ظهر أنه كان يخشى خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته لخطر الصليبيين ولذلك أغلق أبواب المدينة في وجه مودود وقواته، ورفض التعاون معهم ضد الصليبيين. فاضطر الأمير مودود أن يذهب إلى طغتكين، أتابك دمشق، والتقى به بالقرب من معرة النعمان، وتم الاتفاق بينهما على الاشتراك معاً في مهاجمة الصليبيين. ومع أن طغتكين كان يأمل من قبل في غزو طرابلس بمساعدة مودود، إلا أنه لم يلبث أن تخوف منه ومن قواته السلجوقية، التي ربما انتزعت دمشق منه، ولذلك شرع طغتكين في مهادنة الصليبيين سراً. وهكذا باءت جهود سلاجقة فارس بالفشل نتيجة انقسام أمراء المدن الإسلامية على أنفسهم، وتشككهم في بعضهم البعض[2]، وبقي مودود وطغتكين بالقرب من نهر العاصي في انتظار ما تسفر عنه الأحداث.

---

(١) يصفه صاحب النجوم (جـ٥ ص٢٠٥) بأنه كان بخيلاً شحيحاً قبيح السيرة، ليس في قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٤٨٥ وما بعدها.

انسحب تنكريد من أمام شيزر، التي كان يشن عليها الهجوم، وعاد مسرعاً إلى أفامية حيث أرسل إلى بلدوين الأول يطلب مساعدته ضد المسلمين. وتناسى الصليبيون ما بينهم من تنافس وخلافات، وأظهروا تماسكاً ووحدة بينهم، فتجمعت قوات من مملكة بيت المقدس، ومن الرها وأنطاكيا وطرابلس بلغت ستة عشر ألف جندي، عسكرت بالقرب من أفامية في مكان متوسط من حوض نهر العاصي، حيث يمكنهم الإشراف على شمال الشام وشاطىء فلسطين[1].

خشي مودود وطغتكين الدخول في حرب مع الصليبيين نظراً لكثرة عددهم، وآثر كل منهما السلامة فانسحب بقواته إلى داخل شيزر في سبتمبر (١١١١م/ جمادى الأولى ٥٠٥هـ) محتمين بها، فتحركت القوات الصليبية خلفهم إلى شيزر وعسكرت في مداخل المدينة. ويبدو أن طغتكين أراد أن يخرج بقواته من هذا الموقف الحرج، فطلب من أمراء القوات الإسلامية أن يزحفوا معه جنوباً إلى طرابلس، وأصر على طلبه، وخالفه الأمراء فنتج عن ذلك أن ازداد موقف القوات الإسلامية المتحالفة سوءاً.

وزاد من تخلخل موقف المسلمين أن برسق أمير همدان رغب في الانسحاب والعودة إلى بلده بسبب المرض الذي أصابه، كما توفي الأمير سقمان بن أرتق أمير ميافارقين فجأة فانسحبت عساكره تحمل جثمانه عائدة إلى موطنها، كما انسحب أحمد الثاني صاحب مراغة متعللاً بعض الأمور الداخلية، وعندئذ أضطر مودود للعودة حزيناً إلى الموصل [2]، كما عاد طغتكين إلى دمشق.

ترتب على حملة سلاجقة فارس سنة (١١١١م/ ٥٠٥ هـ) واشتراكهم في مهاجمة الصليبيين في أفامية وشيزر أن ظهر بوضوح تفكك القوى الإسلامية وعدم تماسكها، وفي نفس الوقت ظهرت القوات الصليبية بمظهر القوى المتماسكة، والصفوف المتحدة، وحققت لبلدوين الأول نوعاً من الزعامة، وبسط النفوذ على بقية الأمراء الصليبيين، ويكفي للدلالة على ذلك أن تنكريد وهو الخصم العنيد

---

(١) عاشور: العلاقات، ص ٢٥٦.

(٢) Runciman, op. cit. I. p. 123.

بلدوين الأول اعترف له بتلك الزعامة، وأعلن طاعته له مع بقية الأمراء الصليبيين، وسوف يظل تماسك الصليبيين، وتستمر جبهتهم متحدة خمساً وسبعين سنة (إلى سنة ١١٨٦م/ ٥٨٢هـ) بفضل سياسة بلدوين الأول التي أرساها في مملكة بيت المقدس الصليبية، التي أصبحت لها الزعامة على الإمارات الصليبية الأخرى.

أرسل طغتكين أتابك دمشق إلى مودود أمير الموصل يستنجد به ضد بلدوين الأول، بسبب تجدد الصراع بينهما حول صور[1]. وأسرع مودود بقواته فعبر الفرات في مايو (١١١٣م/ ذي الحجة ٥٠٦ هـ)، ولحق به بعض أمراء السلاجقة في الجزيرة بقواتهم، وتجمعت القوات السلجوقية عند سلَمْية (جنوب شرقي حماة)[2]، ومنها اتجهت صوب إقليم طبرية، حيث ضرب مودود وطغتكين بقواتهما الحصار على مدينة طبرية نفسها، ولكنها استعصت عليهم لمناعتها وقوة تحصينها، فلجأ المسلمون إلى الإغارة على الأماكن الصليبية المجاورة يدمرونها واستمروا حتى وصلوا إلى منطقة الطور.

وصلت أخبار هذا الهجوم إلى بلدوين الأول وهو في عكا، فطلب مساعدة أنطاكيا وطرابلس، وكان روجر الصقلي قد خلف عمه تنكريد، الذي توفي عام ١١١٢م، في حكم أنطاكيا، بينما خلف بونزPons والده برتراند في حكم طرابلس. ولم ينتظر بلدوين الأول وصول القوات الصليبية التي طلبها من هاتين الإمارتين، ولكنه تعجل المسير إلى طبرية لمواجهة السلاجقة، وعندما وصلت أنباء تحركات بلدوين وقواته إلى مسامع المسلمين في طبرية اجتمعوا في منطقة الأقحوانة (جنوب بحيرة طبرية)[3].

وصل بلدوين الأول وقواته إلى جسر الصنبرة (جنوب غربي بحيرة طبرية)[4] في يونيه ١١١٣م/ وكان المسلمون قد نصبوا كميناً له ولقواته، ووقع الصليبيون في

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٥٠٩-٥١٠.
(٢) ياقوت: المعجم، جـ٣ ص٢٤٠.
(٣) ياقوت: نفسه، جـ١ ص٢٣٤ وكذلك جـ٤ ص١٧.
(٤) ياقوت: نفسه، جـ٣ ص٢٢٥.

هذا الكمين، وسقط منهم حوالي ألفين بين قتيل وعريق[1]، ووقع بلدوين نفسه أسيراً في أيدي المسلمين، ولكنهم لم يتعرفوا عليه، فأخذوا منه سلاحه وأطلقوا سراحه. ومع أن قوات أنطاكيا وطرابلس الصليبية قد وصلت لمساعدة بلدوين الأول، إلا أنها لم تدخل في معركة مع المسلمين لكثرة عددهم. وقد استغل المسلمون فرصة تقوقع الصليبيين داخل معسكرهم، وهاجموا المراكز الصليبية في الجليل وبيسان ونابلس، ولم يتركوا بين عكا والقدس ضيعة عامرة[2].

انتهزت حامية عسقلان الفاطمية فرصة انشغال بلدوين والصليبيين في طبرية وهاجموا بيت المقدس، ولكن الهجوم لم يسفر عن أي انتصار للفاطميين، فعادوا إلى عسقلان مرة أخرى.

وصلت جموع كثيرة من الحجاج الأوروبيين، يقدر عددهم ستة عشر ألفاً، إلى عكا في أغسطس (١١١٣م/ ربيع ٥٠٧ هـ). فتحسن موقف بلدوين والصليبيين في طبرية، وانصرف مودود وطغتكين إلى دمشق، وأذن مودود لقواته بالتوجه إلى الموصل ليأخذوا قسطاً من الراحة، ثم العودة في الربيع القادم لمعاودة الغزو والجهاد، وبقي في قلة من خواصه في دمشق، ولم يمض سوى أسابيع قليلة حتى قتل مودود في الجامع الأموي بيد أحد الباطنية، عندما ذهب إليه ليؤدي صلاة الجمعة. وتشير أصابع الاتهام إلى طغتكين[3]، الذي حرض هذا الباطني على قتل مودود. ليتخلص منه، لأنه كان يخشى من أن يستولي السلاجقة على دمشق، ويستدل المؤرخون على حقيقة ذلك بأن طغتاكين قطع رقبة القاتل في الحال، وأحرق جثته حتى يطمس معالم الجريمة، وإن كان قد تظاهر باستنكاره لوقوعها[4].

انتهز السلطان محمد السلجوقي فرصة إصابة بعض المدن الصليبية (الرها

---

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٩ ص ٥٤٧.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٦.

(٣) ابن القلانسي، مرجع سابق، ص١٨٧.

(٤) حدث مثل ذلك عندما قُتل جون ف كنيدي رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٢، فقد اغتيل قاتله بسرعة متناهية، حتى تموت معالم الجريمة معه ولا يُعْرف من الذي حرض هذا القاتل على اغتيال كنيدي، والأغرب من ذلك أنه عندما قبض على القاتل الثاني، تم قتله هو الآخر بعد مدة قصيرة ويبدو أن إدارة المخابرات الأمريكية لعبت دوراً خطيراً في هذه القضية (المؤلف).

ومرعش والمصيصة وأنطاكيا) بزلزال شديد في أواخر عام (١١١٤م/ ٥٠٩ هـ). حيث تصدعت أسوارها وتهدمت حصونها، وأرسل حملة بقيادة الأمير برسق للانتقام من طغتكين وإيلغازي بن أرتق، أمير ماردين، والقضاء عليهما، ثم مهاجمة الصليبيين بعد ذلك.

تكاتف بعض الأمراء المسلمين وانضم إليهم الصليبيون للتصدي لهذه الحملة، وتكون ما يشبه الحلف من طغتكين وإيلغازي ولؤلؤ الخادم، الوصي على حلب، وروجر أمير أنطاكيا، وبونز أمير طرابلس، وامتنع بنو منقذ في شيزر، وابن قراجه في حمص عن الانضمام إلى هذا التحالف، ولم يبال برسق بهذه التجمعات الضخمة وهاجم المسلمين والصليبيين على حد سواء وتمكن من الاستيلاء على حماة، وكانت تابعة لطغتكين، كما هاجم قلعة أفامية، التابعة لأنطاكيا، وقد نتج عند ذلك زيادة التقارب بين هؤلاء الأمراء من المسلمين ونظيرهم من الصليبيين، فقد طلب طغتكين، وشمس الخواص، قائد قوات حلب، المساعدة من روجر أمير أنطاكيا الصليبي ضد برسق وقواته[1]، لوقف غزو سلاجقة فارس، ومنع تواجدهم في بلاد الشام.

تجمعت القوات المتحالفة من المسلمين والصليبيين عند أفامية لمواجهة برسق، وجيش السلاجقة، وأدرك برسق حرج مركزه أمام هذه الحشود الضخمة، وفضل الانسحاب إلى الجزيرة، وانسحبت بعده قوات بلدوين الأول وقوات بونز، وظن برسق أن الفرصة مؤاتية له للانقضاض على من بقي من الصليبيين والمسلمين معاً، فعاد مسرعاً ودخل في هجوم سريع ضدهم، ولكنه أصيب بالهزيمة المرة، وبتشتيت قواته وتمزقها، لدرجة أنه لم يستطع الفرار إلا بصعوبة بالغة. وقد أوصلته هذه الهزيمة إلى الشعور بالندم الذي قضى على حياته بعد شهور قليلة. كما توقف السلطان محمد السلجوقي عن إرسال أي حملات أخرى ضد الصليبيين في الشام.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٥٠٣؛ ويذكر وليم الصوري أن روجر أمير أنطاكيا هو الذي طلب محالفة طغتكين أتابك دمشق. راجع عاشور، العلاقات، ص ٢٦٤.

الفصل التاسع

سياسة بلدوين الداخلية

استقرت أمور مملكة بيت المقدس الصليبية بعدما تغلب بلدوين الأول على أتابكة الشام وسلاحقة فارس، وبعدما أخضع الإمارات الصليبية الأخرى وأمراءها إلى نفوذه وسلطانه، وبعدما أرسى دعائم الحكومة العلمانية في مملكة بيت المقدس اللاتينية، وقضى على فكرة قيام حكومة ثيوقراطية. ولكن هذا الاستقرار كان يعوزه كثير من الدعائم البشرية والمالية والاقتصادية لتحسين الأوضاع الداخلية في المملكة الصليبية، التي كانت تشكو فراغاً كبيراً ونقصاً عظيماً في السكان، نتيجة لسقوط آلاف القتلى من الصليبيين في الحروب التي خاضوها ضد المسلمين، أو نتيجة لخوف المسلمين من السكان المسيحيين الذين كانوا يجاورونهم ويعيشون معهم داخل المدن الإسلامية من أن يساعدوا الغزاة الصليبيين، فاضطروا إلى طردهم من بيت المقدس، حتى يأمنوا شرهم ويتفادوا خطرهم، فلما استولى الصليبيون على بيت المقدس، طردوا بدورهم المسلمين بالإضافة إلى المذابح الشرهة التي ارتكبوها. ثم إن أعداداً كثيرة من الصليبيين قد عادوا إلى مدنهم في أوروبا نتيجة سوء الأحوال التي مروا بها وعاشوها في منطقة الشرق الأدنى.

ولكي يقضي بلدوين الأول على هذا النقص الشديد في مملكته اتصل سراً بزعماء المسيحيين الشرقيين (أرثوذكس) الموجودين في الإمارات الصليبية الأخرى وأغراهم بالهجرة إلى مملكة بيت المقدس، ومنحهم امتيازات وتسهيلات مغرية، وشجع المسيحيين الغربيين (الكاثوليك) على الزواج منهم، وأقبل هو على هذا الزواج كي يشجعهم، فهاجرت آلاف عديدة من المسيحيين المحليين (الشرقيين) من الأرمن والسريان والنساطرة إلى مملكة بيت المقدس وعمروها. واستقروا بها،

وتروحوا فيها، وأنجبوا جيلاً جديداً سوف يقع على عاتقه مسئولية الدفاع عن مملكة بيت المقدس اللاتينية عندما يأخذ عدد الصليبيين الكاثوليك في التلاشي[1]. وبذلك نجح بلدوين الأول في تعمير مملكته، وجلب إليها آلافاً عديدة من المسيحيين الشرقيين الذين اختلطوا بالغربيين وامتزجوا بهم، وكونوا مجتمع مملكته في القدس.

وجد بلدوين الأول أن زواجه السياسي بالأميرة الأرمينية أردا Arda، التي تزوجها وهو أمير الرها، قد استنفد أغراضه، وأنه ليس في حاجة للارتباط بهذه الزوجة، خاصة وأنه فقد ذريته منها وهم في سن الطفولة، ولأنها لم تكن على جانب من الغنى والثروة لتساعده بأموالها على تحقيق سياسته في مملكته. ولذلك لجأ في سنة (١١١٠م/ ٥٠٤ هـ). إلى بطريق كنيسة بيت لحم وأغدق عليه كثيراً من الهبات والعطايا، ثم طلب منه إتمام مراسيم الطلاق من زوجته الأميرة أردا Arda بعد أن وجه إليها تهمة الخيانة الزوجية. عندئذ طلبت الأميرة أردا من بلدوين السماح لها بالسفر إلى القسطنطينية لزيارة ولديها من زوجها السابق، وهناك أشبعت نفسها من كل رغباتها في أجواء العاصمة البيزنطية ولم تعد إليه ثانية.

لم يمض سوى أقل من ثلاث سنوات حتى وجد بلدوين الأول ضالته المنشودة في شخصية الأميرة أدلياد Adelaid أرملة روجر الأول ملك صقلية، الذي توفي سنة (١١٠١م/ ٤٩٦ هـ) فسعى بلدوين للزواج بها لكي يحقق لنفسه بعض المكاسب الهامة، فسوف يضمن لمملكته مكسباً سياسياً بضمان صداقة مملكة النورمان في جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية، كما أنه يضمن الحصول على الثروة الطائلة التي تخص الأميرة أدلياد Adelaid لكي ينعش بها الحالة الاقتصادية لمملكة بيت المقدس، التي تعاني من ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة، بسبب كثرة الحروب، وكثرة النفقات، وعودة كثير من الصليبيين الغربيين إلى بلادهم بسبب هذه الظروف الصعبة. ونجح بلدوين الأول في تحقيق هدفه حيث أبحرت العروس الأميرة أدلياد من جزيرة صقلية، موطن عرشها، في أوائل أغسطس (١١١٣م/ صفر ٥٠٧ هـ) بأسطول كبير، يحمل ثروة طائلة من الذهب والفضة والتحف الثمينة النادرة.

---

(١) Runciman, op, cit. II, P. 100.

وقد نتج عن هذا الزواج أن بلدوين الأول دعم فعلاً علاقته بالنورمان في جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية، وربط مملكة بيت المقدس الصليبية بجزر البحر الأبيض المتوسط، فضمن بذلك الطريق البحري ليكون عامل إمدادات له، وانتعشت الحالة الاقتصادية كذلك. ولكن مع كل ذلك فإن جمهرة من المؤرخين[1] ترى أن نمو مملكة بيت المقدس اللاتينية، وارتفاع شأن بلدوين الأول، إنما كان مرده إلى المصالح الاقتصادية للمدن الايطالية أولاً وآخراً.

وجد خصوم بلدوين الأول من رجال الكنيسة ومن الأمراء فرصتهم في تلطيخ سمعته، فأثاروا موضوع طلاق زوجته الأولى الأميرة أردا Arda، واتهموا بطريق كنيسة بيت لحم بالتواطؤ مع بلدوين الأول، لأن هذا الطلاق غير قانوني، ومعنى هذا أن بلدوين الأول متزوج من امرأتين في وقت واحد، وهذه تهمة خطيرة في العقيدة المسيحية[2]، وتوحدت جهود بلدوين الأول مع رجال كنيسة بيت لحم وغيرها في دفع هذه التهمة الخطيرة عنه، والتستر على ما ارتكبه بطريق كنيسة بيت لحم من التلاعب في أسس العقيدة المسيحية، ولكن باءت هذه الجهود بالفشل، وضاعت سدى، إذ أصر البابا باسكال الثاني، بابا روما، على إجراء التحقيق في ذلك الأمر، وبعث مندوباً له أثبت كل هذه المخالفات في حق رجال كنيسة بيت لحم ومعهم بلدوين الأول، الذي أجبر على تطليق زوجته الثانية الأميرة أدلياد Adelaid فعادت تجر أذيال الحسرة والندامة بعد زواج استمر أربع سنوات، اعتبرته الكنيسة زواجاً غير شرعي وسوف يؤثر طلاق هذه الأميرة على رابطة الصداقة التي تمت بين مملكة النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية وبين مملكة بيت المقدس اللاتينية في الأحداث التاريخية القادمة.

---

(١) ماركر: الحروب الصليبية، ص٤٢.
(٢) Runciman, op. cit. II. P. 104.

مملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثاني

لـم تطـل الحياة ببلـدوين الأول إذ توفي في العـام التـالي مبـاشرة (١١١٨م/ ٥١٢ هـ) ولم يترك وريثاً يخلفه في مملكة بيت المقـدس التـي أرسى قواعدها، وبذلك ترك وراءه مشكلة بارزة. عمل أمراء الصـليبيين على تفاديهـا، واتفق رأيهم على استدعاء بلدوين دي بورج، أمير الرها، بعد أن نزح عنها بلدوين الأول ليصبح ملكاً على بيت المقدس.

توج بلدوين دي بورج ملكاً على بيت المقدس، واتخذ له اسم بلدوين الثاني، واستعمل سياسـة حسـنة مكنته من أن يجمع الصـليبيين حولـه، فأسنـد إمـارة الرها ـ التي كان عليها ـ إلى جوسلين الأول، الذي وافق أن يكون تابعاً لمملكة بيت المقدس، كما وطد بلدوين الثاني علاقته بالإمارات الصليبية الأخرى، ولكي يتخذ من فرسان الداوية، وفرسان الاستبارية سنداً له، ترك لهم حرية التحرك في مجالات متعددة، وبذلك ازدادت وفود الحجاج الأوروبيين إلى بيت المقـدس، وانتعشـت التجارة بين الإمارات الصليبية والمدن الأوروبية.

حاولت الحكومة الفاطمية في مصر الانتقام من الصليبيين، فتحالف الأفضل ابن بدر الجمالي مع طغتكين أمير دمشق، للحـد من تزايد قوى الصـليبيين نتيجـة لـسياسة بلدوين الثاني، وتجمعت القـوات الإسـلامية في منطقـة أشـدود، وتـولى طغتكين قيادتها، وخرج بلدوين الثاني على رأس القوات الصليبية التي عسكرت في مواجهة المسلمين. وانتظر كل فريق أن يبدأ خصمه بالهجوم، وبعد ثلاثـة شهـور انصرف كل فريق إلى بلده.

عـاودت القـوى الإسـلامية التحـرك ضد الصـليبيين وتـولى قيادة القـوات الإسلامية إيلغازي بن أرتق، أمير حلب، الذي عسكر بالقرب من قنسرين، منتظراً وصـول طغتكين وعساكره. ولكن جنود إيلغازي ألحت عليه في الهجوم على الصليبيين بعد أن وقفوا على بعض مواطن الضعف في القوات الصليبية. وفعلاً هاجم إيلغازي وقواته حصن الأثارب، وصمد الصليبيون حتى واتتهم فرصة في ظلمة الليل، ونقلوا معسكرهم إلى حصن أرتاح بالقرب من أنطاكيا، ولكن المسلمين أحكموا الحصـار

عليهم، فأعملوا القتل والجرح فيهم، ووقع الكثير منهم أسرى[1]، ورجع إيلغازي بن أرتق إلى حلب منتصراً[2].

ضرب بلك بن بهرام، ابن أخي إيلغازي، في سنة (٥١٥ هـ/ ١١٢١م) الحصار على مدينة الرها، واستمر الحصار مدة ولكنه لم يظفر بطائل، فرحل عنها، فوصل إليه من أخبره بأن جوسلين الأول ـ صاحب الرها وسروج ـ حشد جنوده، وقادم إليه لقتاله.

كانت معظم قوات بلك قد سبقته في الرحيل، ولم يبق معه سوى أربعمائة فارس، ووصل جوسلين بقواته، ولسوء حظه مرّ بأرض سبخة موحلة، غاصت فيها أرجل الجند وقوائم الخيل، فرماهم فرسان بلك بالنشاب فقتلوهم، ووقع جوسلين نفسه أسيراً، وبذل في فداء نفسه أموالاً طائلة، فلم يقبل بلك إلا باسترداد الرها، فرفض جوسلين هذا العرض، فحمل ومعه بعض أتباعه وخواصه الذين أسروا معه حيث سجنوا في قلعة خرتبرت في ديار بكر[3].

ضرب الصليبيون الحصار على صور، وضيقوا على أهلها، فسئمت نفوسهم، ونزل طغتكين في بانياس ليكون قريباً منهم، ولكن أهل صور أشرفوا على الهلاك، وأرسل طغتكين يستنجد بالخليفة الفاطمي، ولكنه لم يحرك ساكناً، واضطر طغتكين أن يسلم المدينة إلى الصليبيين بشرط أن يسمحوا للحامية التي بها ولمن يريد من أهلها بالخروج منها سالمين، وخرج أهل صور وتفرقوا في البلاد، وملك الصليبيون المدينة في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة (٥١٨ هـ / ١١٢٤م)، بعد أن استعصت عليهم قرابة ربع قرن، كانت في خلالها الشوكة التي تؤلم الصليبيين في البر والبحر باعتبارها مركزاً من مراكز التمويل والإمدادات البحرية والعسكرية المتقدمة والمجاورة للإمارات الصليبية.

(١) توفي الأمير إيلغازي بميافارقين في رمضان سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. ابن الأثير الكامل جـ١٠ ص٦٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ص٥٩٣، ٦١٣.

بعض حكام الشام يساعدون الصليبيين :

قويت نفوس الصليبيين بعد سقوط مدينة صور الحصينة في أيديهم ، وأيقنوا أن مصير بقية بلاد الشام سيكون مثلها ، فأخذوا يحشدون جموعهم ، ومن المؤسف والمؤلم حقاً أن بعض حكام مدن الشام اندفعوا بعامل الضغينة والحقد يساعدون الصليبيين ويدفعونهم إلى الاستيلاء على بعض المدن الإسلامية التي في يد خصومهم ، وهذا هو دبيس بن صدقة ، صاحب الحلة ، يدفع الصليبيين للاستيلاء على حلب ، ويتفق معهم على أن يكون نائباً عنهم في حكمها ، ويتعهد لهم بالسمع والطاعة ، فتوجهوا إليها وحاصروها ، وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً ، ووطنوا نفوسهم على عدم مبارحتها حتى تسقط (حلب) في أيديهم[1] .

سارع بلدوين الثاني لنجدة الإمارات الصليبية في الشمال ، فوصل إلى أنطاكيا ، ودخل في حرب سريعة خاطفة مع القوات الإسلامية ، ولكنه لم يحرز نصراً . وفي سنة (٥١٧ هـ / ١١٢٣م) شن غارة كبيرة على المسلمين محاولاً فك الأمير جوسلين من الأسر ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، بل وقع هو نفسه أسيراً في أيدي المسلمين .

هزيمة الفاطميين وسقوط صور في أيدي الصليبيين :

وفي نفس الوقت انتهزت القوات الفاطمية فرصة انشغال الصليبيين بالحرب في شمال الشام وعاودت هجومها على المدن الساحلية التي احتلها الصليبيون في جنوب فلسطين ، ولكن الأسطول الفاطمي أصيب بهزيمة قاسية من هجمات الأسطول البيزنطي وأسطول الفرنجة[2] .

أرسل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أسطولاً آخر إلى صور سنة (٥١٨ هـ / ١١٢٤م) بعدما قتل وزيره الأفضل بن بدر الجمالي ، وأمر قائد الأسطول أن يقبض على حاكم صور ، (مسعود) الذي عينه طغتكين أتابك دمشق ،

---

(١) ابن الأثير: الكامل . جـ ١٠ ص٦٢٣-٦٢٤ .

(٢) ابن الأثير: نفسه ، ص٦١٧ .

وأن يتولى شئون صور بدلاً منه، ونجح قائد الأسطول في القبض على مسعود، وأرسل به إلى مصر، ولكنه كُرِّم، وأعيد إلى دمشق.

انتهز الصليبيون فرصة المناوشات السياسية بين مصر ودمشق، وأخذوا يحشدون جموعهم لغزو صور، وأرسل حاكم صور الجديد (قائد الأسطول الفاطمي) إلى الخليفة الآمر يحيطه علماً، عله يحظى منه بالنجدات، ولكن الآمر طلب منه أن يرد صور إلى سلطان دمشق، ويسلمها إلى طغتكين[1]، وبذلك عادت الأمور بين مصر ودمشق إلى حالتها الطبيعية.

آقسنقر البرسقي يتملك حلباً :

اشتد الضيق على أهل حلب، وأصبح واضحاً لهم ضعف أميرهم تمرتاش ابن إيلغازي الأرتقي فكتبوا إلى آقسنقر البرسقي، صاحب الموصل، في سنة (٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م) يستنجدونه ويسلمون حلب إليه، فخرج البرسقي في جنوده، وبعث إلى أهل حلب أن يسلموا نوابه الذين أرسلهم إليهم حصن حلب، حتى يحتمي به هو وجنوده، ويتمكن من الدفاع عن المدينة، فلبوا طلبه، وما أن أشرف آقسنقر البرسقي وقواته على حلب، ورآه الصليبيون في هذا الجيش الكثير العدد والعدة حتى رحلوا منسحبين.

خرج آقسنقر البرسقي بعساكره في العام التالي (٥١٩ هـ/ ١١٢٥م)، وحاصر كفر طاب ثم ملكها من الصليبيين، ومنها اتجه إلى قلعة عزاز في شمالي حلب، وكانت في يد جوسلين، فضرب عليها الحصار، ولكن الصليبيين تكالبوا من كل صوب لمساعدة جوسلين ونشب القتال بينهم وبين المسلمين، وعركت الحرب برحاها الجانبين، فقتل من المسلمين أكثر من ألف، وأصيبوا بالهزيمة، وعادوا إلى حلب، فترك آقسنقر البرسقي عليها ولده عز الدين مسعود ليحكمها، وعاد هو إلى الموصل[2].

تجمعت آلاف الجنود من الصليبيين في سنة (٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م)، ونزلوا بمرج الصفر بالقرب من دمشق، فاستنجد طغتكين بالتركمان من ديار بكر ومن

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٦٢٠ - ٦٢٢.

(٢) ابن الأثير: نفسه، ص ٦٢٨ - ٦٢٩.

غيرها، فهبت جموع كثيرة منهم إليه، فخلف ولده تاج الملوك بوري داخل دمشق، وخرج هو بقواته ومعه التركمان، والتقى مع الصليبيين في معركة رهيبة في أواخر ذي الحجة، وسقط طغتكين عن فرسه، فظن جنوده أنه قتل فانهزموا وولوا الأدبار، وركب طغتكين فرسه ولحق بهم، وتبعهم الصليبيون يطاردونهم، وبقي التركمان لا يقدرون على اللحاق بعساكر دمشق. ولاحت لهم فرصة إذ وجدوا معسكر الصليبيين خالياً من الفرسان، وأن ما به من الرجالة لا يقدرون على حماية أنفسهم، فحملوا عليهم وأبادوهم جميعاً، ونهبوا معسكرهم، واستولوا على أموالهم، وأتلفوا خيامهم، وعادوا سالمين إلى دمشق، فلما رجع الصليبيون ورأوا ما أصاب معسكرهم، أصيبوا بالفشل، وعادوا عن دمشق منهزمين[1].

ولكن جموعاً أخرى من الصليبيين زحفوا إلى رفنية، وكانت بيد المسلمين، فحاصروها، وشددوا عليها الحصار حتى امتلكوها. فما كان من آقسنقر البرسقي إلا أن خرج في جمادى الآخرة (سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م) بقواته واستولى على حصن الدير، وعلى أسوار حصن الأثارب، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على المدينة نفسها، بسبب مساعدة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، وجوسلين أمير الرها لأهلها. عرض الصليبيون على آقسنقر البرسقي أن يرحل عن الأثارب، في مقابل أن يعيدوا إليه رفنية، فوافق وقبل بعقد الصلح معهم، ولكن بلدوين الثاني نقض هذا الصلح ولم يعد رفنية إلى آقسنقر البرسقي، ودب النزاع بين الطرفين، وعادت الهجمات بينهما، ولكنها لم تكن معارك حاسمة[2]، فعاد بلدوين في رجب إلى بيت المقدس بينما عاد البرسقي إلى حلب.

الصليبيون ودمشق:

راسل المزدقاني زعيم الشيعة الإسماعيلية الباطنية في الشام بلدوين الثاني، واتفق معه على أن يمكن الصليبيين من الاستيلاء على دمشق مقابل أن يسلموه مدينة صور، وكان المزدقاني رتب خطته مع رجاله من الباطنية على أن يقفوا بأبواب

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٦٣٩.
(٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، جـ١

المسجد الجامع ويحبسوا من بداخله من المسلمين بعد صلاة الجمعة، حتى يحضر الصليبيون ويتسلموا المدينة.

وصلت هذه الأخبار إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين - صاحب دمشق - فدعا المزدقاني إليه فلما حضر عنده قبض عليه وأمر بقتله، وبذلك فشلت مؤامرته لتسليم دمشق إلى الصليبيين، الذين حزنوا كثيراً عليه، وإن كان حزنهم في الحقيقة على عدم استلامهم مدينة دمشق قبل موته.

تجمعت حشود الصليبيين من كل الإمارات والمراكز الصليبية، واستعانوا بالحجاج الأوروبيين الذين قدموا على سفن إيطالية لزيارة بيت المقدس، وقرروا الزحف على دمشق فوصلوا إليها في ذي الحجة سنة (٥٢٣ هـ / ١١٢٩م)، وكان تاج الملوك بوري قد جمع عساكره واستعان بالعرب والتركمان.

أخذ كل فريق يتربص بالآخر، متحيناً الفرصة للانقضاض عليه، وأتيحت هذه الفرصة لقوات بوري عندما أرسل الصليبيون جموعاً من جنودهم لأطراف دمشق يغيرون على أهلها ويجلبون الميرة والأقوات للقوات الصليبية، فأرسل بوري فرقة من جنوده بقيادة شمس الخواص خلفهم، وكان الجو شديد البرودة، غزير الأمطار، وانقض المسلمون على الصليبيين من خلفهم، فهزموهم وقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا ما جمعوه من ميرة وأقوات، وعادوا إلى دمشق، فلما عرف الصليبيون هذه الأنباء انسحبوا خائبين، وتبعهم المسلمون يقتلون مؤخرتهم، ويأسرون منهم[1].

لم يتوقف طمع الصليبيين في الاستيلاء على دمشق، بل زاد طمعهم فيها بعد وفاة تاج الملوك بوري في رجب سنة (٥٢٦ هـ/ ١١٣٢ م)، واستضعفوا صاحبها شمس الملوك إسماعيل بن بوري وعزموا على نقض الهدنة التي أبرموها مع أبيه من قبل وكان فولك الأنجوي قد توج ملكاً على بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الثاني سنة ١١٣١م. وهاجم الصليبيون قافلة تجارية من دمشق عند بيروت ونهبوها، واستولوا على تجارتها. وعلم شمس الملوك إسماعيل بما ارتكبوه،

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص٦٥٦ - ٦٥٨.

فراسلهم وطلب منهم إعادة ما استولوا عليه؛ فأبوا عليه ذلك. فخرج في أواخر المحرم سنة (٥٢٧ هـ/ ١١٣٣م) ونزل على بانياس في أول صفر، وقاتلها بمن معه من قوات قتالاً متوالياً، حتى وصلوا إلى سور المدينة، فنقبوه ودخلوها عنوة، وقتلوا من الصليبيين أعداداً كثيرة، وواصلوا قتالهم ضد المحتمين بالقلعة، حتى سقطت في أيديهم (المسلمين) بعد ثلاثة أيام[1].

انتهز فولك الأنجوي ملك بيت المقدس الصليبية فرصة انشغال المسلمين بالحرب في بانياس وخرج بقواته في نفس الوقت (صفر ٥٢٧ هـ) يريد الاستيلاء على حلب. فلما وصلت أخباره إلى الأمير أسوار، نائب حلب، خرج على رأس قواته، والتقى بالصليبيين عند قنسرين، ودارت بين الجانبين معركة حامية، قتل فيها منهما أعداداً كثيرة، وانهزم جنود حلب وعادوا إلى بلدهم، فأخذ فولك يغير على أطرافها مرة بعد أخرى. فخرج إليه الأمير أسوار في جنوده، ودخل مع فرقة من الصليبيين في معركة خاطفة، فقتل منهم الكثير، وأسر جموعاً أخرى، وانهزم الباقون وانسحبوا عائدين إلى بيت المقدس.

عاود شمس الملوك إسماعيل بن بوري خروجه في المحرم سنة (٥٢٨ هـ/ ١١٣٤م) متجهاً إلى حصن شقيف تيرون، وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا، وكان هذا الحصن بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم، وكان ممتنعاً على المسلمين والصليبيين، وكان الضحاك لا يهاجم أحداً من الفريقين، وتمكن شمس الملوك إسماعيل من أن يتملك الحصن، فعظم الأمر على الصليبيين وخافوا أن يهاجمهم المسلمون منه لموقعه الاستراتيجي، فخرجوا إلى مدينة حوران وخربوها ونهبوها.

جمع شمس الملوك إسماعيل [2] جنوده من التركمان وغيرهم، وعسكر في مواجهة الصليبيين وأخذ يناوشهم عدة أيام للتعمية، ووضع قسماً من قواته لمواصلة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٦٨٤ ـ ٦٨٥.

(٢) ابن الأثير نفسه، جـ١١ ص١١-١٢.

هذه المناوشات القتالية، وسار في بقية الجنود سراً إلى طبرية والناصرة وعكا وأنزل بها الخراب والدمار[1]. فلما وصلت أخباره إلى الصليبيين انسحبوا عائدين إلى بلدهم.

(١) قتل شمس الملوك إسماعيل سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م راجع ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٢١.

الفصل العاشر

تأسيس إمارة طرابلس الشام:

لم يحقق ريموند الصنجيلي حلمه في أن يكون أميراً على أي من الإمارات الصليبية الثلاثة التي تم تأسيسها، مع أنه بذل جهوداً كبيرة في حصارها، والحرب ضد أهلها من المسلمين، حتى استولى الصليبيون عليها، ويرجع السبب في ذلك إلى أن تنكريد أمير أنطاكيا اتهم ريموند بخيانة الصليبيين في الأناضول والانحياز للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، الذي اتهم هو الآخر بالخيانة والتخلي عن القوات الصليبية، ونقضه الاتفاق الذي أبرمه معها. ولكن تطور الأحداث، وموت جودفري وظهور أخيه بلدوين الأول وتتويجه ملكاً على بيت المقدس، وعدم وجود منافس له من الأمراء الصليبيين لوجود بوهيمند، الذي يعتبر أقوى هؤلاء الأمراء، وأشدهم مراساً في الحروب الصليبية، أسيراً في قبضة الملك إيلغازي كمشتكين بن الدانشمند التركماني[1]، ساعدت ريموند في أن يشرع في تأسيس إمارة خاصة به. فقد عهد بلدوين الأول إليه في العام التالي لتوليه مملكة بيت المقدس أن يفتح طرابلس الشام لتكون إمارة له.

تمكن ريموند الصنجيلي من ضرب الحصار على مدينة أنطرطوس (طرطوس) بالعدد القليل الذي بقي معه من قواته (حوالي ٣٠٠ فارس)، وكانت طرطوس تابعة للقاضي فخر الملك أبو علي بن عمار، أمير طرابلس، وقد ساعدت الظروف ريموند بوصول أسطول من جنوى إلى الشام فاستعان به في الاستيلاء على المدينة في فبراير

(١) ظل بوهيمند أسيراً قرابة خمس سنوات في قلعة نيكسار قرب شاطىء البحر الأسود. راجع ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٨

(١١٠٢م/ ٤٩٥ هـ)، واتخذها قاعدة لقواته على ساحل الشام، ينطلق منها في هجومه واستيلائه على مدينة طرابلس نفسها.

اضطر فخر الملك أبو علي بن عمار إلى نبذ سياسته التي اتبعها من قبل، والتي كانت ترمي إلى مساعدة الصليبيين ومسالمتهم والميل لهم ضد جيرانه المسلمين حرصاً على إمارته وممتلكاتها، وأصبح لزاماً عليه أن يقبل مضطراً مبدأ الحرب دفاعاً عن نفسه وبلده، ولم يجد من يستنجد به ضد هذا الخطر الداهم من جانب ريموند وقواته، إلا القوى الإسلامية التي خرج عليها وخانها، فأرسل يستنجد بالأمير دقاق، صاحب دمشق، وبالأمير جناح الدولة حسين بن ملاعب، صاحب حمص، فأرسل كل منهما النجدات إلى ابن عمار، وانضمت إلى جيشه في الدفاع عن طرابلس، ولكن دهاء ريموند وقوة تخطيطه العسكري مكناه من هزيمة المسلمين خارج أسوار طرابلس وقتل منهم سبعة آلاف[١]، فانسحب الباقون إلى داخل المدينة للاحتماء بها، بعد أن هزمت قوات دمشق وحمص.

ظل ريموند محاصراً للمدينة بفضل المساعدات التي وصلته من سواد طبرية، ولكن طرابلس استعصت عليه، فقنع بما عرضه أبو علي بن عمار من دفع جزية من المال، وعدد من الخيل وانسحب عائداً إلى قاعدته أنطرطوس في إبريل (١١٠٢م/ جمادى الأولى ٤٩٥ هـ).

هاجم ريموند بعد ذلك حصن الأكراد ذو الموقع الاستراتيجي الهام بين طرابلس وحمص[٢]، فأخذ جناح الدولة حسين بن ملاعب يعد قواته للدفاع عنه، ولكن يد الغدر والخيانة امتدت إليه وهو في المسجد الجامع بحمص، حيث تقدم إليه ثلاثة من الباطنية وطعنوه فقتلوه في مايو سنة (١١٠٢م/ جمادى الثانية ٤٩٥هـ). ويجمع المؤرخون أن رضوان بن تتش، صاحب حلب، هو الذي دس عليه هؤلاء الباطنية ليقتلوه، لأن جناح الدولة كان متزوجاً بأم رضوان، ووقع خلاف بين الرجلين، فلجأ رضوان إلى هذه الوسيلة ليتخلص منه[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص٣٤٤.

(٢) سبق لريموند أن استولى على حصن الأكراد في أول سنة ١٠٩٩م/ صفر ٤٩٢هـ. ولكن أمير حمص تمكن من استرداده بسرعة وقتذاك.

(٣) راجع ابن الأثير: نفسه ص٣٤٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥ ص١٦٨-١٦٩.

استغل ريموند حالة الاضطراب التي أصابت حمص وأهلها بعد اغتيال أميرها جناح الدولة، وسار مسرعاً إليها وحاصرها، وملك بعض أطرافها. واتفق رأي رجال جناح الدولة على أن يستنجدوا بدقاق أمير دمشق، وأن يسلموا إليه البلد ليدافع عنها، فلما علم ريموند باقتراب دقاق وقواته، خاف الوقوع بين قوات طرابلس وبين قوات دقاق في حمص، وآثر أن ينسحب عائداً إلى قاعدته في أنطرطوس.

لم يلبث ريموند أن عاود هجومه على طرابلس، مستغلاً فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية في شتاء عام (١١٠٣م/٤٩٧هـ)، فأسند إلى هذا الأسطول مهمة حصار طرابلس بحراً، وزحف هو بقواته على المدينة من البر، ومع ذلك فشل ريموند في الاستيلاء على المدينة، فانتقل بقواته جنوباً، وحاصر مدينة جبيل وقلعتها الواقعة بين طرابلس وبيروت وكانت جبيل تابعة للقاضي أبو علي بن عمار كذلك[١]. ولم يتمكن أهل جبيل من صد هجمات الصليبيين ولم يقووا على الصمود أمام الحصار الذي ضرب عليهم براً وبحراً، فطلبوا الأمان مقابل التسليم، وتظاهر الصليبيون بالقبول، ولكنهم غدروا بأهل جبيل، وأخذوا أموالهم، واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب[٢]. وبسقوط جبيل في الجنوب، وأنطرطوس في الشمال أصبحت حدود إمارة طرابلس واضحة ومحددة، ولم يبق على إعلان قيامها إلا الاستيلاء على طرابلس نفسها لتكون مركز وحاضرة هذه الإمارة الصليبية الرابعة.

واصل ريموند الصنجيلي حصاره على طرابلس، وبنى قلعة على المرتفعات المواجهة للمدينة عرفت بقلعة صنجيل، وأقام مراصداً لها، لإحكام الرقابة عليها، وقطع اتصالها بالمدن الإسلامية الأخرى حتى لا تطلب منها النجدات، وأضحى موقف طرابلس حرجاً، واشتد الخطر على بني عمار فيها، فاندفعوا بهجوم مفاجىء على قلعة صنجيل وأشعلوا فيها النار، فأصابوا عدداً من حاميتها، وتهدمت بعض أرباضها وسقوفها، فانخسف سقف منها كان ريموند وقلة من أتباعه واقفين فوقه، فسقطوا وأصيبوا بجروح وحروق خطيرة، ومات ريموند بعد أيام قليلة في فبراير

---

(١) ابن القلانسي. ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٣٧٢.

(١١٠٥م/ ٥٠٠ هـ)[1]. فخلفه في القيادة ابن خالته وليم جوردان، الذي أحكم الحصار براً على طرابلس[2]، وقدم الامبراطور البيزنطي المساعدة له بأن أرسل إليه الميرة والمؤن في سفن بيزنطية من جزيرة قبرص.

كان من نتيجة تشديد الحصار على طرابلس أن ساءت أحوالها، وأشتدت وطأة الحياة على أهلها بسبب ارتفاع أسعار الأقوات فيها ارتفاعاً فاحشاً. ولذلك اضطر أبو علي بن عمار أن يستنجد بسقمان بن أرتق التركماني، أمير بيت المقدس السابق، والذي أصبح حاكماً على حصن كيفا في ديار بكر بشمال الجزيرة، وخرج سقمان بقواته لإنقاذ طرابلس، ولكن الموت داهمه أثناء الطريق، فعادت قواته من حيث اتت، ومع ذلك استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى (١١٠٨م/ ٥٠٣ هـ) وساعدها على ذلك عدم اشتراك أسطول صليبي في حصارها من البحر، مما مكنها من الحصول على ما يقدم لها من أقوات قليلة من قبرص وأنطاكيا ومن تجار البندقية وغيرهم بأغلى الأسعار[3].

ضاقت السبل بابن عمار، صاحب طرابلس، فخرج بنفسه يستنجد الخليفة العباسي المستظهر، وبالسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وحمل إليهما الهدايا الكثيرة، وأناب عنه في حكم المدينة ابن عمه ذو المناقب بن عمار، ودفع مرتبات الجند لستة أشهر مقبلة، ولكنه لم يظفر بشيء من الخليفة أو السلطان، فرجع قافلاً إلى بلده، وعندما وصل إلى الشام في منتصف المحرم سنة (٥٠٢ هـ/١١٠٨م) بلغته أخبار تفيد بأن أهل طرابلس يئسوا من شدة الحصار وسلموا المدينة إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، الذي أرسل إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب والياً عليهم، فوزع عليهم الأقوات والأموال، وصادر ممتلكات أبي علي بن عمار، وقبض على أفراد من أسرته بعث بهم إلى مصر عن طريق البحر.

لم يلبث وليم جوردان أن هاجم طغتكين، أتابك دمشق وحمص، وعندما وصل بقواته ليتسلم مدينة عرقة من حاكمها، غلام ابن عمار، فأصابهم بالهزيمة،

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٤١٢.

(٢) Runciman, op. cit. II P. 62 وتسميه المراجع العربية (السرداني) ابن الأثير نفسه، ص٤٦٨.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ص٤٥٢.

ففروا ومعهم طغتكين، وعندئذ استطاع جوردان أن يستولي على عرقة بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع[1].

في الوقت الذي أصبح وليم جوردان قريب الاستيلاء على طرابلس ليعلن نفسه أميراً عليها، فوجىء بظهور برترام (برتراند) وهو الابن الأكبر لريموند الصنجيلي[2] على مسرح الأحداث في الإمارات الصليبية، حيث توجه إلى أنطرطوس وطلب من وليم جوردان أن يسلمه المدن والبلاد التي تركها أبوه ريموند. ورفض وليم جوردان هذا الطلب لأنه يحكم هذه المدن منذ أربع سنوات، أي من بعد وفاة ريموند مباشرة، ولأنه تحمل الكثير في سبيل الدفاع عنها، وزاد إليها عرقة وحصن عكار. وتأزم الموقف بين الرجلين، فاستنجد وليم جوردان بتنكريد أمير أنطاكية واستنجد برترام بالملك بلدوين الأول في بيت المقدس، وطلب منه الحضور بسرعة لحل هذه المشكلة، وفي مقابل ذلك تعهد لبلدوين بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس.

أرسل بلدوين الأول إلى كل من وليم جوردان وتنكريد يعلمهما بأن برترام تحت رعايته، ويحذرهما عمل شيء ضده، ويدعوهما للاجتماع معه في قلعة صنجيل أمام طرابلس لبحث هذا الموضوع. وعقد الاجتماع فعلاً وتمكن بلدوين من تصفية مشكلة تركة ريموند، فأعطى وليم جوردان مدينة أنطرطوس وعرقة، وسلم برترام جبيل وقلعة صنجيل، مع إضافة طرابلس عندما يتم الاستيلاء عليها.

تجمعت القوات الصليبية من أماكن متعددة لمساعدة برترام في الاستيلاء على طرابلس وحاصر الأسطول الجنوي، الذي قدم به برترام مع أربعة آلاف فارس، المدينة بحراً ولكن الأفضل بن بدر الجمالي تقاعس عن إرسال النجدات والمؤن والأقوات إلى حامية طرابلس، فساءت أحوالها، وذلت نفوس أهلها، واضطروا إلى طلب الأمان، واشترطوا تسليم المدينة إلى بلدوين الأول وبرترام مع السماح

---

(1) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٤٦٨، راجع كذلك رواية أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ٥٠.

(2) برترام ابن غير شرعي لريموند، كان قد خلفه في حكم إمارة تولوز بفرنسا، وبعد موت ريموند ترك برترام تولوز لأخيه الأصغر ألفونسو وهو ابن شرعي لريموند، وحضر إلى الشرق ليرث أباه في ممتلكاته الصليبية، Runciman; op cit .I, 64-65.

لمن يرغب الخروج من المدينة وعدم التعرض لحياته وممتلكاته، وقبل بلدوين بتلك الشروط، فاستسلمت المدينة في (١٢ يوليه ١١٠٩م/ ذي الحجة ٥٠٣ هـ) ويبدو أن بلدوين احترم تعهداته، ولكن الجنوية ارتكبوا قبيح الأعمال من سلب ونهب وسبي وتخريب[١]. وبسقوط طرابلس تم للصليبيين تكوين الإمارة الرابعة التي كانت حلم ريموند فكانت الإمارة الصليبية الرابعة والأخيرة التي تمّ تكوينها في الشام. وبذلك أسس الصليبيون مملكتهم الصليبية التي امتدت من الرها شمالاً حتى خليج العقبة جنوباً، وأخذوا في تحصينها وتعزيز حاميتها والاستقرار فيها.

وقد تبدو انتصارات الصليبيين الغربيين لأول وهلة أنها راجعة إلى كثرة عددهم، وقوة بأسهم، وضخامة التجهيزات والاستعدادات التي أمدتهم بها مدن الغرب الأوروبي، ولكن الحقيقة عكس ذلك تماماً، فلم تكن تلك الانتصارات بسبب العوامل التي ذكرتها، بقدر ما كانت بسبب ضعف القوى الإسلامية، وتفرق كلمة المسلمين في منطقة الشرق الإسلامي فمن الثابت أن الصليبيين حينما تقدموا نحو الشرق بعد عبورهم البسفور لم يجدوا زعيماً قوياً من زعماء السلاجقة في آسيا الصغرى في تلك الفترة على وجه الخصوص، ذلك لأن سليمان بن قتلمش قتل سنة (١٠٨٦م/ ٤٧٩ هـ) في المعركة التي دارت بينه وبين تاج الدولة تتش أخي السلطان ملكشاه السلجوقي بالقرب من حلب، أثناء النزاع على السلطة في إقليم الشام، ولم يترك سليمان بن قتلمش سوى طفل صغير هو قلج أرسلان داود. وكذلك لم يصادف هؤلاء الصليبيون في منطقة الشرق الإسلامي قوى إسلامية متحدة، بل صادفوا قوات متفرقة متنازعة متباغضة بسبب صراعات سياسية، واختلافيات مذهبية[٢] أوصلت المسلمين إلى هذه المرحلة من الضعف والاضمحلال.

ولعل من أهم الآثار التي ترتبت على الحرب الصليبية الأولى أنها أتاحت الفرصة لطائفة الإسماعيلية الحشيشية[٣] لتفرض وجودها في المنطقة، فقامت بنشاط

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٧٥، وابن تغري بردي: النجوم، جـ ٥ ص ١٧٩ - ١٨٠ وابن خلدون تاريخ جـ ٥ ص ١٩٠ وما بعدها.

(٢) باركر. الحروب الصليبية ص ١٩٦، الشيخ: الجهاد المقدس، ص٩.

(٣) زيد: الصليبيون، ص١١٧.

واسع في تدبير المؤامرات، وممارسة الاغتيالات، وأفادت من كل الظروف التي استجدت في منطقة الشرق الاسلامي، لدرجة أنها دخلت في علاقات مع هؤلاء الصليبيين استمرت طوال عصر الحروب الصليبية، وشجعها على ذلك ماوجدته من انقسام المسلمين على أنفسهم.

كما ترتب على هذه الحرب نتائج بعيدة المدى في تاريخ الشرق الإسلامي والغرب المسيحي من جوانب متعددة، كان من أبرزها وأهمها العلاقات بين الشرق والعرب[1]، فقد أثرت هذه العلاقات وخاصة في الجانب السياسي في البلدان الإسلامية بمنطقة الشرق الأدنى حيث تعرضت للتغيير والتطور السريع، نتيجة للأخطار التي صاحبت الحملات الصليبية، والتي كانت كنتيجة لها منذ أن وطئت أقدام الصليبيين أرض الشام، وأوضح مثل لذلك ما قام به الصليبيون من القضاء على عدد غير قليل من الأتابكيات والإمارات الصغيرة في بلاد الشام بعد دخولهم إليها.

كما أنها أتاحت الفرصة للجنويين وللبنادقة على وجه الخصوص من الحصول على امتيازات عظيمة. ففي سنة (١١٢٣م/٥١٧هـ) قدم إلى الأراضي المقدسة أسطول من البندقية مؤلف من ١٢٠ سفينة، اشترك في صد هجوم قام به الأسطول الفاطمي، لأن بلدوين الثاني ملك بيت المقدس كان أسيراً في أيدي المسلمين، فالتجأت الوصية على العرش وهي ايوستاس Eustace إلى هؤلاء البنادقة ليساعدوها في الاستيلاء على مدينة صور سنة (١١٢٤م/٥١٨هـ)، وقد منحتهم في مقابل مساعدتهم إعفاء من دفع الرسوم في سائر مدن المملكة اللاتينية، وحق الحصول على حي تجاري في بيت المقدس، بالإضافة إلى حمامات وأفران في عكا، وثلث مدينة صور نفسها وضواحيها، وأن يكون لهم محاكم وكنائس خاصة بهم[2].

---

(1) Parker, op. cit. P 9

(٢) باركر الحروب الصليبية، ص٤٤.

الفصل الحادي عشر

عماد الدين زنكي والصليبيون :

أثار وضع المسلمين فيما بينهم موجة عارمة من السخط والاستياء، خاصة أنه لم يكن على المسرح السياسي زعيم مسلم على مستوى الزعامة، وبمسئولية القيادة ليقوم بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد هؤلاء الصليبيين. وازدادت موجة السخط والاستياء بين المسلمين عندما أحسوا بأن الإمارات الصليبية الأربع التي تم تأسيسها قطعت أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، فثارت الحماسة في نفوس عدد من الأمراء وزعماء المسلمين في المشرق الإسلامي، كرد فعل عنيف لنجاح هؤلاء الصليبيين وتواجدهم في البلاد الإسلامية التي احتلوها، وارتفعت أصواتهم تعلن ضرورة إعلان الجهاد، وتكوين جبهة متحدة من المسلمين لطرد هؤلاء الصليبيين من المدن الإسلامية التي احتلوها.

ومن أبرز هؤلاء الزعماء عماد الدين زنكي الذي ما إن استقر في إمارة الموصل سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م حتى أخذ سلطان ونفوذ الفرنجة يتداعى[١] فقد كانت سياسته تهدف الى تكوين جبهة إسلامية متحدة قوامها الجزيرة (العراق) والشام ومصر، ليتمكن بها من الوقوف في وجه الصليبيين، فدعا إلى توحيد جهود المسلمين، وحشد قواهم لقتال الصليبيين وطردهم من أرض المسلمين، فوضع

---

(١) الشيال. مصر الإسلامية، حـ٢ ص١١ـ١٢؛ العريني. مصر في عصر الأيوبيين، ص١٩.

بذلك أساس حركة الجهاد ضد الفرنج[1]. ولم يكتف عماد الدين زنكي بالقول، بل وضع سياسته موضع التنفيذ، فعمل على ضم الإمارات والمدن المجاورة والقلاع الكردية القريبة إلى إمارته، (الموصل) وبسط نفوذه عليها وأخضعها لسيطرته، فضم إليه جزيرة ابن عمر، ثم سار إلى نصيبين، وعن طريق الحيلة والسياسة وسرعة البديهة، تمكن من ضمها إلى سلطانه، ثم اتجه إلى سنجار فقاتله أهلها، وامتنعت عليه في أول الأمر، ولكن أهلها ما لبثوا أن دخلوا في طاعته وسلموا إليه المدينة، ومن سنجار بعث بمقاتليه الى الخابور فملكه، ثم سار إلى حران، وكانت الرها وسروج ومدن أخرى من ديار الجزيرة في أيدي الصليبيين، الذين ساموا أهل هذه المدن الكثير من العذاب، فلما سمعوا بمقدم عماد الدين زنكي، قويت نفوسهم وراسلوه بالطاعة، واستحثوه على سرعة الوصول إليهم، فجد عماد الدين زنكي في السير مع جنوده، ونزلوا بساحتهم.

وكان السبب الذي دفعه إلى ضم هذه الأماكن إلى نفوذه هو إدراكه أنه لا يستطيع أن يطمئن إلى بلاد الشام أثناء زحفه إليها ومجابهة الصليبيين بها، إلا إذا أخضع هذه الإمارات الصغيرة في ديار بكر، حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم[2].

ثم عمد إلى أن يتخذ له قاعدة أمامية في بلاد الشام تكون مركزاً لجيوشه، ويبدو أن عماد الدين زنكي وقف على ما للصليبيين من قوة، وأنه لن يتمكن من الدخول معهم في حرب ـ في تلك الفترة على الأقل ـ فقرر أن يأخذ لنفسه وقتاً يدبر فيه أموره، فأرسل إلى جوسلين، أمير الرها الصليبي، وهادنه مدة من الزمن، لكي يتمكن في خلالها من ضم ما تبقى من بلاد الشام، ويقوي حصونها، ويجعلها في أيدي مخلصة أمينة من أتباعه.

كان الصليبيون يطمعون في امتلاك حلب، فلما توجه عماد الدين زنكي بجنوده إليها، وأصبح على مقربة منها، راسله أهلها يستغيثون به، وأعلنوا طاعتهم

---

(١) باركر في الحروب الصليبية، ص٥٠

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص٣٦؛ وأبو شامه: الروضتين، جـ١ ص٧٧.

له، فضم مدينة حلب إليه، وشحن قلعتها بالجنود والمعدات سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م[١]، وكان نجاح عماد الدين زنكي في ضم حلب، وتحقيق الارتباط بينها وبين الموصل من أخطر ما يخشاه الصليبيون نظراً لما يمكن أن ينجم عنه قطع الصلة بين إمارة الرها من جانب، وبقية الإمارات الصليبية في الشام من جانب آخر، فضلاً عما في تكتيل القوى الإسلامية نفسها من معاني القوة التي لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت، بسبب تفرق المسلمين وعدم وحدتهم[٢].

وقد تمكن عماد الدين زنكي وهو في طريقه إلى حلب من الاستيلاء على منبج[٣] وبزاغة[٤] فأرسل السلطان إليه تفويضاً في حكم الموصل والجزيرة[٥] والشام، فدفعه هذا إلى المزيد من النجاح وضم كثيراً من الإمارات والمدن والقلاع فيما بين سنتي ٥٢٣، ٥٣٤ هـ[٦]. ففي سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩ م تملك مدينة حماه[٧]، وبعد عام واحد تجمع الأراتقة والتركمان في نحو عشرين ألف مقاتل، ودارت بينهم وبين عماد الدين زنكي - وكان عدد جنوده لا يزيد عن أربعة آلاف - معركة حامية بالقرب من دارا[٨]، ولكن القتال انتهى بهزيمة الأراتقة. ثم عقد الصلح بين الفريقين، فانتهز عماد الدين زنكي الفرصة وحاصر سرجة[٩] وملكها، ثم توجه إلى دارا وتملكها كذلك.

بعد أن اطمأن عماد الدين زنكي إلى جانب الأراتقة قصد إلى حصن الأثارب[١٠]، فقاتله من بالحصن من الصليبيين، فترك جنوده يخربون ضواحي

---

(١) ابن واصل: مفرج، حـ١ ص٤٠، وأبو الفداء: المختصر، حـ٤ ص١٦٠
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١ ص٥٦١.
(٣) منْبج: على بعد ثلاثة فراسخ من الفرات - ياقوت، حـ٥ ص٢٠٥-٢٠٦.
(٤) بُزاغة: من أعمال حلب على مرحلة من منبج - ياقوت، نفسه حـ١ ص٤٠٩.
(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، حـ٢ ص٢٤٤.
(٦) ابن الأثير: حـ١٠ ص١٣-١٦، الحميلي: دولة الأتابكة، ص ٤٨-٥٢.
(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، حـ٨ ص١٨٩، وكذلك Cahen La Syrie du Nord. P 371.
(٨) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين - ياقوت، حـ٢ ص ٤١٨
(٩) سرجة: حصن بين نصيبين ودنيسر ودارا - ياقوت: حـ٣ ص ٢٠٧
(١٠) حصن الأثارب. بين حلب وأنطاكيا - دائرة المعارف: حـ١ ص ٤٩١

الحصن، وكان الحصن شوكة مؤلمة في جبين أهل حلب، لأن الصليبيين كانوا يغيرون عليهم من هذا الحصن، الذي كان مركزاً لتجمعات فرسانهم، وذوي اليأس منهم، لأنه كان من أخطر ثغورهم، وعلى الرغم من تكرار الهجمات التي شنها عماد الدين بجيشه على هذا الحصن إلا أنه امتنع عليه.

حشدت الفرنجة حشوداً عظيمة من الجند والفرسان والقساوسة لتنزل بالمسلمين ضربة قاصمة، وتلقي بهم في متاهة الصحراء بعيداً عن حصنهم (الأثارب)، ووصلت أخبار هذه الحشود الهائلة إلى عماد الدين زنكي، فاستشار وزراءه وأمراءه، فرأت كثرة منهم أن يعودوا إلى حلب ويطاولوا الفرنج حتى يتفرقوا، ثم يعاودون الهجوم عليهم وعلى الحصن من جديد، ولكن عماد الدين زنكي خالفهم الرأي، وأخذ يحثهم على الجهاد والاستشهاد، وأعد عدته وإن لم تكن على قدر عدد الصليبيين وعدتهم، واشتبك الجانبان في قتال رهيب، وصرع الآلاف العديدة من جيش الصليبيين، واستشهد غير قليل من المسلمين، والقائد الملهم عماد الدين زنكي يدفع جنوده ليثخنوا في جيش العدو، ومنعهم من إعطاء الأمان، ومن اتخاذ أسرى منهم، فامتلأت أرض المعركة ـ وهي صحراء واسعة ـ بجثث صرعاهم، وبقيت مدة زمنية طويلة شاهد على شدة القتال وعنفه، وقد انتهت المعركة بنصر محقق للمسلمين، وتملكوا الحصن عنوة، وأعملوا القتل والسبي في أهله، ودمروا بعض أركانه[1].

انتقل عماد الدين زنكي بجيشه الى حصن حارم[2]، وضرب عليه الحصار، فطلب الصليبيون الصلح على أن يقاسمهم عماد الدين زنكي كل شيء في ولاية حارم، فوافق على ذلك لأن عسكره قد كثرت فيهم الجراح، وزاد عدد المستشهدين منهم، فأراد أن يعطيهم وقتاً للراحة والاستعداد[3].

نزل الصليبيون سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦م على حصن شيزر[4] وحاصروه،

---

(١) ابن الأثير: الباهر، ص٤١-٤٢.

(٢) حصن حارم: تجاه أنطاكيا، من أعمال حلب ـ ياقوت، جـ٢ ص ٢٠٥.

(٣) ابن الأثير: الباهر، ص٣٨ وما بعدها.

(٤) حصن شيزر: قرب المعرة، بينه وبين حماة مسيرة يوم ـ ياقوت، جـ٣ ص٣٨٣.

فاستنجد صاحبه سلطان بن منقذ بعماد الدين زنكي، فأخذ زنكي يضرب الصليبيين بالبيزنطينيين لكي يوقع الخلف بينهم، فكان يكاتب الصليبيين في الشام ويحذرهم من امبراطور الروم، ويعلمهم إن هو تملك حصناً واحداً بالشام أخذ منهم بقية البلاد التي في أيديهم. وكان يراسل ملك الروم ويوهمه بعداوة الصليبيين للبيزنطينيين، وأنهم يقفون معه، فتشكك كل من الصليبيين والبيزنطيين في الآخر. ونجحت هذه السياسة، ورحل الصليبيون عن الحصن بعد أربعة وعشرين يوماً من الحصار، وتركوا ما نصبوه من المنجنيقات وآلات الحصار، فانتهز عماد الدين زنكي هذه الفرصة وهاجم مؤخرة جيش الصليبيين، فقتل منهم جموعاً، وأسر أخرى، وغنم جميع ما تركوه ونقله إلى حلب[1].

زحف عماد الدين زنكي بجنوده إلى بعلبك، وضرب عليها الحصار في ذي الحجة سنة **٥٣٣** هـ/ **١١٣٩**م، ونصب عليها المنجنيقات، وضيق عليها الخناق، حتى أشرف أهلها على الهلاك، وطلبوا الأمان وسلموا إليه المدينة، وبقي بها جموع من الأتراك رفضوا التسليم وقاوموا عماد الدين زنكي، ولكنهم هزموا، فقتلهم جميعاً، وكان قد أعطاهم الأمان، فخاف أهل دمشق على أنفسهم وتماسكوا في الدفاع عن بلدهم[2].

ضرب عماد الدين زنكي الحصار على دمشق، وكان أميرها مجير الدين آبق بن محمد بن بوري ومعه معين الدولة أنر يدير له أمور الدولة. فلجأ أنر إلى الفرنجة واستدعاهم إلى نصرته[3]، لفك الحصار عن دمشق، وطرد عماد الدين زنكي، وبذل لهم مقابل ذلك أموالاً كثيرة، بالإضافة إلى قلعة بانياس، وخوفهم من زنكي إذا امتلك مدينة دمشق، فإنه لن يكون لهم معه ملك في الشام، وأعد الفرنجة أنفسهم للخروج لملاقاة زنكي الذي وصلته هذه الأخبار فخرج في جنوده إلى حوران في رمضان سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٤٠ م، فلما سمعت الفرنجة بذلك انصرفوا عن الدخول معه في حرب، وآثروا السلامة، وعاد عماد الدين زنكي الى دمشق،

---

(١) ابن الأثير: الباهر، ص ٥٥-٥٦.
(٢) باركر: الحروب الصليبية، ص ٥٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٦٨-٦٩م.

ومنها الى حلب. وانتهز الصليبيون فرصة رحيل زنكي، وحضروا الى دمشق، بقيادة أرناط أمير أنطاكية الصليبي وخرج معهم معين الدولة أنر في جنود من الشام، ليعاونهم على تملك بانياس، وكانت تحت نفوذ عماد الدين زنكي، وكان واليها قد خرج على رأس جنوده ليغيروا على مدينة صور، فتقابل الفريقان ودار بينهما قتال سريع انتهى بهزيمة جنود عماد الدين زنكي، وحاول أهل بانياس الدفاع عنها، ولكنهم هزموا، وسلموا المدينة إلى الصليبيين، بعد أن قتلوا واليها.

لم يلبث عماد الدين زنكي أن هاجم حصن عرقة، من أعمال طرابلس، وكان بيد الصليبيين، وفتحه عنوة، ونهب ما فيه، وأسر الصليبيين الذين كانوا بداخله، وهكذا استمر عماد الدين زنكي يسير قدماً، ويضطرد نجاحه، ويزيد نصره عندما استولى على حصون كثيرة في شرقي إمارة أنطاكيا، وعندما زاد من ضغطه وهجماته ضد إمارة طرابلس، ففي سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م قصد عماد الدين زنكي بجنود حصن بارين، ويعرف بحصن (بعرين)، وقد حشد الصليبيون أمراءهم، وفرسانهم، ورجال الكنيسة وأعداد رهيبة من المقاتلين الصليبيين، وعلى رأس هؤلاء جميعاً الملك (فولك) ملك بيت المقدس الذي خلف بلدوين الثاني سنة ١١٣١ م.

حمل الصليبيون على المسلمين حملة قاسية اختلط فيها الجنود بالقواد والفرسان، وصبر المسلمون وصمدوا، وشددوا من هجماتهم حتى ازدادت المعركة عنفاً، وانتهت بهزيمة منكرة للصليبيين، فاحتموا بالحصن[1]، فضرب المسلمون الحصار عليهم، وأرغموا الملك فولك على الإذعان وتسليم المدينة. ولو أن فولك ترك وحيداً أمام هجمات قوات عماد الدين زنكي، ولم يتلق المساعدات من أباطرة القسطنطينية ومن الوزير أنر حاكم دمشق لسقطت مملكة بيت المقدس اللاتينية في زمن مبكر عن الزمن الذي سقطت فيه فعلاً[2] وفي أثناء حصار عماد الدين زنكي لحصن بارين، أرسل جموعاً من جنده إلى المعرة

(١) ابن الأثير، الكامل، جـ١١ ص ٦٠.
(٢) باركر: الحروب الصليبية، ص ٥١.

وكفرطاب، فاستولت على هذه النواحي جميعاً، فقوي بذلك على تحقيق سياسته في تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة.

شعر الصليبيون بالاتجاه الذي يعمل عماد الدين زنكي على تحقيقه، وهو تكوين جبهة إسلامية متحدة ضدهم، وتوقعوا ما يترتب على ذلك من مخاطر تحيق بإماراتهم وبتواجدهم في الشرق الأدنى، فعقدوا تحالفاً مع الامبراطورية البيزنطية، تمكنوا بواسطته من إعاقة حركة الجهاد، وغرس العقبات في طريق عماد الدين زنكي ليحولوا بينه وبين تحقيق الهدف الذي يسعى إليه.

اتفق الصليبيون مع البيزنطيين الذين حضروا لإنقاذ حصن بارين وليمنعوا سقوطه في أيدي المسلمين على مهاجمة حلب، انتقاماً لما أصاب من في هذا الحصن. وفعلاً نزلوا على حلب وضربوا عليها الحصار، وكانوا ألوفاً كثيرة، ورأى عماد الدين زنكي أنه لن يستطيع مجابهتهم والدخول معهم في معركة لكثرة أعدادهم الرهيبة، فنزل قريباً منهم واكتفى باتخاذ موقف دفاعي، وأخذ يمنع التموين والميرة عنهم، ويحفظ أطراف البلاد من أن يتملكوها أو يغيروا عليها، وأرسل القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري إلى السلطان مسعود السلجوقي يخبره الأمر، ويطلب منه الجنود لنجدة حلب والمسلمين، ولكن السلطان مسعود تهاون وتباطأ، وأهمل طلب النجدة، فاستعان الشهرزوري ببعض معارفه، وأثار عاطفة المسلمين في بغداد، فتوجهت ألوف منهم إلى السلطان مسعود تطالبه بسرعة النجدات للمسلمين، وفعلاً اضطر السلطان مسعود أن يأمر بمسيّر عشرين ألف مقاتل، من ضمنهم جموع من الفرسان، ولكن الأخبار وصلته برحيل الروم والصليبيين عن حلب، فلم يرسل الجنود، وعاد الشهرزوري إلى عماد الدين.

لجأ البيزنطيون إلى حصار بزاغة سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨ م، وكان عماد الدين زنكي يحاصر حمص في ذاك الوقت، فذهب إليه بعض أعيان حلب واستنصروه، فبعث معهم جموعاً كثيرة من الجند دخلوا حلب ليمنعوها من البيزنطيين إن جاءوا إليها، أو حاصروها، ولما تملك الروم بزاغة، نزلوا على حلب في عسكر كثيف،

فخرج إليهم أهلها وقاتلوهم بشدة وعنف، واستمر حصار البيزنطيين عليها ثلاثة أيام، ولكنهم رحلوا عنها لأنهم لم يروا فيها طمعاً[1].

ما لبث التحالف المبرم بين البيزنطيين والصليبيين أن تصدع، وكشف كل فريق عن عدائه للآخر سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م، وانتهز عماد الدين زنكي هذه الفرصة فاستأنف جهاده ضد الصليبيين في الشام، فسار إلى ديار بكر وعليها الأراتقة ففتح منها عدة بلاد وحصون، واستولى على بعض حصون ماردين مما كان بيد جوسلين الثاني أمير الرها، وكان غرض عماد الدين زنكي أن يوهم الصليبيين أنه غير متفرغ لقصدهم في الرها، واطمأن الصليبيون عندما رأوه ملازماً لحرب الأراتقة وظنوا أنه غير قادر على الحركة والمسير إليهم، فخرج جوسلين من الرها وعبر الفرات إلى الشام، وبلغت أخباره عماد الدين زنكي، فأسرع بالمسير إلى الرها، وأخذ يقاتل من فيها ثمانية وعشرين يوماً إلى أن سقطت في يده عنوة سنة **٥٣٩ هـ/** ديسمبر ١١٤٤م، وملك القلعة كذلك[2]، فكانت أول إمارة يؤسسها الصليبيون في الأراضي المقدسة، وأول إمارة يستردها المسلمون من أيديهم، بعد أن مكثت في حوزة الصليبيين قرابة نصف قرن.

أمضى عماد الدين زنكي العامين التاليين في ترتيب أمور مملكته، خاصة وأنه تسلم سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الصليبيين شرقي الفرات[3]، وأخذ يواصل جهاده ليحقق الجبهة الإسلامية المتحدة التي تضم العراق والشام (ومصر)، فحاصر قلعة جعبر في ربيع ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م[4]، ولكن يداً غادرة من أحد غلمانه امتدت إليه فقتله وهو نائم في خيمته أثناء هذا الحصار.

والحقيقة أن عماد الدين زنكي أتم من الأعمال ما لم يستطع جميع أمراء الصليبيين هدمه، وأنه بدأ حركة الجهاد ضد الفرنجة بشكل عملي وواقعي، وأنه

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حـ١١ ص٥٦ وما بعدها.

(٢) توفيق: مملكة بيت المقدس، ص١٤٦، وسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، حـ٨ ص١٨٩، وكذلك Cahen: La Syrie du Nord, epoque des croisades, P.371

(٣) ابن واصل، مفرج، حـ١ ص٩٤.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٤-٢٨٥ وأبو شامة: مرجع سابق جـ١ ص١٠٧.

يعتبر المؤسس الحقيقي لفكرة تكوين جبهة إسلامية متحدة لمجابهة الصليبيين، وتكفي الإشارة إلى الحالة السيئة التي كان عليها العالم الإسلامي عندما استولى هؤلاء الصليبيون على مدنهم في الشام، وكونوا مملكة بيت المقدس المسيحية، وإلى سوء المعاملة، وطريقة الإهانة والذل التي اتبعها الصليبيون في معاملتهم للمسلمين في هذه المدن، بحيث أصبحت لهم الكلمة الأولى والأخيرة، ولدرجة حملت المسلمين على ترك مساكنهم ومدنهم خوفاً منهم[1]، وعندما ملك عماد الدين زنكي البلاد فعل بهؤلاء الصليبيين ما فعل، ولو لم يكن له فيهم نكاية غير استرداد الرها من أيديهم لكان ذلك عظيماً.

(١) ابن الأثير: الباهر ص٨١

الفصل الثاني عشر

الحملة الصليبية الثانية

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م رد فعل عنيف في الغرب الأوروبي، فقد خشي الأوروبيون وقادتهم على انهيار الإمارات الصليبية في الشام، وضياع مملكة بيت المقدس الصليبية لأن الرها تشكل خطراً كبيراً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب، وبين بغداد وبلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وكانت غارات الصليبيين على المدن الإسلامية توجه منها إلى سائر بلاد الجزيرة، فوجودها في حوزة الصليبيين كان بمثابة إسفين وضعوه بين الشام والعراق[1]. ولذلك سارع ملوك أوروبا وقادتها إلى إرسال الحملة الصليبية الثانية، لتعيد إمارة الرها الى المملكة الصليبية في الشام، ولتحول دون تصدعها، وعلى ذلك يمكن القول إن استعادة المسلمين لإمارة الرها كان السبب المباشر لإرسال الحملة الصليبية الثانية إلى الشام.

تكونت الحملة الصليبية الثانية وخرجت من أوروبا سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م، وكانت بقيادة كوبراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وكان عدد جنودها رهيباً وكان هدفها الرئيسي استرجاع الرها من أيدي المسلمين، لما لها من أهمية عقائدية بالنسبة للمسيحيين، حيث ترعرعت بها المسيحية الأولى، ولمركزها الاستراتيجي الهام، لأن موقعها بين شمال العراق وبلاد الشام يمنع تقارب القوى الإسلامية، ويحول دون قيام جبهة متحدة ضد الصليبيين.

---

(١) حتي: العرب (مطول) حـ٣ ص٧٦٢، عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢ ص٦٠٤؛ وكذلك Stevenson; The Crusades in the East, P. 153.

وصلت الحملة في الأسابيع الأولى من سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م إلى آسيا الصغرى، ومني الجيش الألماني الصليبي الذي يقوده كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا بخسائر فادحة على أيدي الأتراك السلاجقة، كما مني الجيش الفرنسي الصليبي الذي يقوده لويس السابع بهزيمة قاسية، وتشتيت جنوده على أيدي هؤلاء السلاجقة في إقليم فيرجيا[1]، ولم يبق من القوات الأوروبية المتجمعة في هذه الحملة الثانية سوى أعداد قليلة لا تتمكن من مهاجمة الرها.

واصلت بقية هذه الحملة مسيرها إلى سواحل الشام، واتفق قوادها مع الصليبيين الموجودين في الإمارات الصليبية على الانضمام إليهم في مهاجمة دمشق، وكان أميرها مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين[2]، ولكنه لم يكن يملك في الحكم شيئاً، لأن الأمور كلها كانت بيد معين الدولة أنر. ضرب الصليبيون الحصار على دمشق في السادس من ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م وشاركهم بلدوين الثاني ملك مملكة بيت المقدس الصليبية، ولكنه لم يكن مطمئناً لقدوم القوات الأوروبية بقيادة الامبراطور الألماني، والملك الفرنسي، خشية على مركزه ومصالحه الخاصة، لأنه توقع منافسة القادمين له على منصبه ومكاسبه المادية.

كان معين الدولة أنر قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي أتابك الموصل[3] يستنجده، فخرج سيف الدين غازي في حشود عظيمة، ووصل إلى حمص، وكتب إلى أنر يقول له: «قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي، وكانت الهزيمة علينا، لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها. فإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم، تسلم البلد لمن أثق فيه، وأنا أحلف لك، إن كانت النصرة لنا على الفرنج أنني لا آخذ دمشق، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل

---

(١) فرح: أوروبا في العصور الوسطى، ص٢٢٠.

(٢) أبو شامة: مرجع سابق، جـ١ ص٥٣.

(٣) وليها بعد مقتل أبيه سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م، وكان أبوه قد اقطعه شهرزور من قبل، وكان موجوداً بها. راجع ابن الأثير، الباهر، ص٨٥، وأبو شامة: نفسه، جـ١ ص٤٠ وما بعدها.

العدو عنها، وأعود إلى بلادي[1]. فماطله أنر حتى يقف على ما يكون عند الفرنجة.

وفي الوقت الذي شرع فيه سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي يهدد الصليبيين بمراسلته إليهم ليفت في عصدهم، وينزل في قلوبهم الخوف من ملاقاته، أخذ أنر هو الآخر يكاتبهم ويخوفهم من سيف الدين غازي، ويهددهم بتسليم دمشق إليه إن هم هاجموها، وحينئذ سيلقون منه ما يلقون من حروب وقتل وتشريد، وكان غرضه من ذلك أن يضربهم بسيف الدين غازي ليسلم هو ودمشق فلا يتعرض لمهاجمتهم، ولا يضطر إلى تسليم المدينة الى غازي للدفاع عنها.

كما كاتب الصليبيين الموجودين بالشام، وأخذ يخوفهم من كونراد الثالث ملك الألمان ومن معه من جنود إن هو ملك دمشق، واتفق معهم على تسليمهم بانياس إن هم أقنعوا كونراد الثالث بالرحيل، ونجح أنر ورحلت الحملة الصليبية الثانية بجنودها وبقي حصن بانياس مع الصليبيين إلى أن استعاده نور الدين محمود سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م.

ولم يلبث نور الدين محمود أن استعاد حصن العُرَيمة[2] من أيدي الصليبيين عندما كتب قمص المدينة إليه وإلى أنر يستدعيهما لتسلم هذا الحصن حتى لا يستبد به ابن الفونسو ملك إسبانيا، الذي كان مشتركاً في الحملة الصليبية الثانية، ونزل على هذا الحصن بعد انسحاب الصليبيين من دمشق، وأمد سيف الدين غازي أخاه نور الدين محمود بجند كثير، وتمكن نور الدين محمود من دخول الحصن وتخريبه وسبي من فيه من الفرنجة ومن ضمنهم ابن الفونسو نفسه.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل الذريع، ولم يتمكن الصليبيون من تحقيق الهدف الرئيسي للحملة وهو استعادة الرها[3]، وكان من المتوقع أن يتكتل الصليبيون في الأراضي المقدسة ويوحدوا صفوفهم لتلافي مثل

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٨٩.
(٢) ابن الأثير. الكامل، جـ١١ ص٣٢٧.
(٣) توفيق: مملكة بيت المقدس، ص٥٥-١٦٠.

هذا الفشل فيما بعد، ولكن دب الشقاق ونشبت الحروب فيما بينهم، لدرجة أن استعان بعضهم بالإسماعيلية الحشيشية ضد البعض الآخر، وبدأ بطريارك مملكة بيت المقدس يزيد من سلطانه ونفوذه على حساب السلطة الزمنية عندما رأى تراخي أتباع الملك الصليبي عنه، وضعف سيطرة الملك نفسه على أتباعه، وقد ظل الصليبيون حوالى أربعين سنة بعد الحملة الثانية في صراع مستمر مع المسلمين إلى ظهور صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث التاريخية.

الفصل الثالث عشر

نور الدين محمود والصليبيون

بعد مقتل عماد الدين زنكي وهو محاصر لقلعة جعبر، حاول جوسلين الثاني استرداد إمارة الرها، التي كانت في يد المسلمين، فراسل أهلها، وكان معظمهم من الأرمن المسيحيين، واتفق معهم على أن يسلموه المدينة، وفعلاً سار إليها وملكها. ولكن القلعة التي كانت في يد المسلمين استعصت عليه، وعلى الرغم من مهاجمته الشديدة للقلعة، فقد امتنعت عليه، وكانت الأخبار قد وصلت الى نور الدين محمود وهو بحلب، فأسرع بالمسير إلى الرها، ووصلت تحركاته إلى مسامع جوسلين، فترك المدينة، وعاد إلى إمارته في تل باشر وما حولها، فدخل نور الدين محمود المدينة، وطرد من بها من الأرمن والصليبيين[1].

أراد نور الدين محمود أن يرد على محاولة جوسلين بالإغارة عليه في إمارته، فحشد جنوده في سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م واتجه إلى تل باشر، وكانت أخباره قد وصلت إلى جوسلين، فحشد هو الاخر جنوده من عين تاب، وأعزاز وغيرها حيث تجمعت في تل باشر ـ مركز إمارته ـ وتقابل الفريقان، ودار بينهما قتال عنيف، وهزم نور الدين محمود واستشهد من جنوده الكثير، كما أسر الكثير كذلك[2]. وكان من بين الأسرى سلاح دار (خازن السلاح) نور الدين، فأرسله جوسلين الى الملك مسعود بن قلج أرسلان ـ صاحب قونية ـ[3] وهو والد زوج نور الدين نكاية وشماتة في نور الدين محمود.

---

(١) ابن الأثير. الباهر، ص٨٦-٨٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص١٥٤.

(٣) أبو الفداء: المختصر، جـ٣ ص٢٣.

عظم الأمر على نور الدين محمود ولجأ إلى الحيلة، واتفق مع بعض أمراء التركمان على أن يقدم لهم الكثير من المال والإقطاع إن هم ظفروا بجوسلين حياً أو ميتاً، وتمكن هؤلاء التركمان من القبض على جوسلين وهو خارج للصيد، وحاول إغراءهم، وبذل لهم هو الآخر الكثير إن هم أطلقوا سراحه، فمالوا إليه ووافقوه بشرط أن يحضر المال إليهم أولاً. ولكن الأخبار كانت قد وصلت إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين محمود بحلب، فأسرع إلى هؤلاء الأمراء في جموع من جنده، وأحاط بهم وقبض على جوسلين أسيراً[1]، وأرسل إلى نور الدين محمود الذي أخذ يهاجم أملاك جوسلين ويستولي عليها، ويستعيدها من أيدي الصليبيين.

ثارت ثائرة الصليبيين لوقوع جوسلين في يد نور الدين محمود، فحشدوا حشوداً عظيمة من الفرسان والرجّالة، وقصدوا إلى إمارة جوسلين (تل باشر) ليحفظوها من السقوط في أيدي المسلمين، وكان نور الدين محمود قد زحف إليها بجنوده في سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م وتقابل الفريقان بالقرب من دلوك[2]، ونشب القتال بينهما بعنف وبسرعة، وصبر كل فريق في محاولة يائسة لانتزاع النصر من الآخر، ورجحت كفة المسلمين في آخر الأمر، وانهزم الصليبيون بعد أن خلفوا وراءهم كثيراً من القتلى، ودخل نور الدين وجيشه دلوك وملكوها.

نقل الصليبيون مسرح نشاطهم الحربي الى جنوب الشام، فاستولوا على مدينة عسقلان بأرض فلسطين في سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م وكانت تابعة للخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله في مصر وأصبحوا يسيطرون على الطرق المؤدية الى دمشق شمالاً، والنازلة إلى مصر جنوباً، وأخذت أنظارهم تتجه إلى دمشق لامتلاكها، وكان أهل دمشق يدفعون جزية سنوية لهم، وكان أمير دمشق مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، ولم يكن له من الحكم شيئاً، إذ كانت أمور دمشق في يد معين الدولة أنر، وخاف نور الدين محمود أن يستعين أنر

---

(١) أبو الفداء: المختصر، جـ٣ ص٢٣، الأصفهاني/ عماد الدين: تاريخ آل سلجوق، ص٢٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص١٦٣.

بالصليبيين إن هو هاجم دمشق ،لا سيما وإنهم يطمعون في الاستيلاء عليها، حتى لا تقع في يد نور الدين، فتصبح له قوة تساعده على مهاجمتهم.

لجأ نور الدين محمود إلى الحيلة والسياسة، فأخذ يتقرب إلى مجير الدين آبق بالهدايا والأعطيات حتى وثق به، واطمأن له، ثم راسل أحداث دمشق وزناطرته[1] واستمالهم إليه، واتفقوا معه على تسليم المدينة إليه، وعندئذ ضرب نور الدين محمود الحصار على دمشق سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م ودخلها من الباب الشرقي وامتلكها، واستنجد مجير الدين آبق بالصليبيين، ولكنهم لم يقدروا على شيء، لأن الأمور كانت قد استقرت في أيدي نور الدين محمود[2]. تحصن مجير الدين آبق في حصن المدينة، ولم يتمكن نور الدين محمود من السيطرة على الحصن، فعرض على آبق إقطاعاً كبيراً ومدينة حمص مقابل تسليمه الحصن، وقبل مجير الدين آبق مضطراً، ولكن نور الدين محمود سحب منه مدينة حمص، وأعطاه مدينة بالس بدلاً عنها، لأنه خاف أن يعاود آبق استرداد دمشق بعد أن تستقر به الأمور في حمص.

ساعدت الظروف نور الدين محمود في تملك قلعة تل باشر ـ مركز إمارة جوسلين ـ بشمالي حلب، فقد راسله من بالقلعة من الصليبيين ليسلموها إليه، فأرسل إليهم الأمير حسان المنبحي، أمير منبج، لقربه من تل باشر، فسار إليهم وتملك القلعة منهم، وحصنها وأمدها بالذخائر وبالمقاتلين سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م.

ولم يلبث نور الدين محمود أن سار بجنوده إلى قلعة حارم ـ شرق أنطاكيا ـ، وكانت داخلة في إمارة بوهيمند، وضرب عليها الحصار، وضيق على أهلها الخناق، ولم يقو الصليبيون على فك الحصار عن مدينتهم، فاضطروا إلى مصالحة نور الدين محمود على مناصفة دخل حارم في كل شيء.

---

(١) الزناطرة: طبقة معينة من سكان المدن في العصور الوسطى مولعة بتحريك الفتن والقلاقل راجع ـ الروضتين جـ١ ق١ ص٨٥ جـ٥.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص١٠٦-١٠٧ والكامل، جـ١١ ص١٩٨.

وفي العام التالي استغل نور الدين محمود فرصة ما أصاب قلعة شيزر من تخريب بسبب الزلزال، وموت آل منقذ الكتانيين جميعاً، فأرسل نور الدين محمود بعض أمرائه وكانوا قريبين منها، فتملكوها، وحضر نور الدين محمود إليها، وعمّر أسوارها ودورها، وأعاد إليها الحياة من جديد[1].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حـ١١ ص٢٢١.

الفصل الرابع عشر

مصر بين نور الدين محمود والصليبيين

نجح نور الدين محمود في أن يحوط على الإمارات الصليبية من الشرق (العراق) والشمال (الشام)، ولم يبق أمامه سوى الجبهة الجنوبية التي تمثلها مصر، ليتم له تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة التي كان ينشدها والده عماد الدين زنكي، والتي سعى نور الدين محمود جاهداً في تحقيقها، والحقيقة أن نور الدين محمود كان مضطراً لضم مصر إليه لاستكمال تكوين هذه الجبهة ليتصدى بها للصليبيين، لأنه كان لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا للضرورة ومضطراً، وإما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم[١]، وهذا ما فعله مع دمشق، وما سيفعله مع مصر آنذاك، لأنه إن نجح في ضم مصر إليه أحاط المسلمون بالإمارات الصليبية من جهات ثلاثة من البر، وسوف يتولى الأسطول الإسلامي الجهة الرابعة من البحر، وبذلك يسهل طردهم من الأراضي المقدسة في الشام.

ولم يكن الصليبيون أقل تطلعاً من نور الدين محمود إلى امتلاك مصر، بل كانوا أكثر طمعاً فيها، والأدلة على ذلك تلك المحاولات التي قاموا بها بمجرد استقرارهم في مملكة بيت المقدس للاستيلاء على مصر. فقد وضع جودفري دي بوايون خطة للاستيلاء على مصر[٢]، ولكنه قتل، وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول على مملكة بيت المقدس، بدأ في تنفيذ هذه الخطة، التي تقضي بتوسيع مملكة بيت المقدس الصليبية نحو الجنوب، وذلك بالاستيلاء على مصر، ليعزلها عن بقية

(١) أبو شامة: الروضتين، حـ١ ص٥٤٤.
(٢) باركر: الحروب الصليبية، ص٤٨.

العالم الإسلامي وليقطع طريق التجارة بينها وبين هذه الدول، وليضمن عدم وقوع الإمارات الصليبية بين شقي الرحى، المتمثلة في قيام الجبهة الإسلامية المتحدة من العراق والشام ومصر، لأن قيامها خطر على الوجود الصليبي في منطقة الشرق الأدنى.

بدأ بلدوين بالاستيلاء على وادي عربة جنوب البحر الميت، وأقام حصن الشوبك سنة ١١١٥ م/ ٥٠٩ هـ. ليجعل منه ومن وادي عربة مركزين متقدمين للقوات الصليبية للهجوم على مصر، وللدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية، فضلاً عن تهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الحرمين الشريفين. ولم يلبث بعد ذلك أن سار إلى أيله (إيلات) على خليج العقبة، وأقام بعض المراكز العسكرية بها، ثم واصل سيره جنوباً حيث وصل مع مجموعة من فرسانه إلى دير سانت كاترين في جنوب شبه جزيرة سيناء، وأراد ومن معه النزول في الدير، فرفض رهبانه خوفاً من الخليفة الفاطمي في مصر، فعادوا الى بيت المقدس.

لم يتخل بلدوين الأول عن تحقيق حلمه بالاستيلاء على مصر، فخرج في مائتي فارس قبل وفاته ببضعة شهور (١١١٨م/ ٥١٢ هـ)، وعبر الطريق الساحلي من غزة إلى العريش، ومنها سار إلى الفرما فوصلوها يوم ٢١ مارس ١١١٨ م، فوجدوها خالية من أهلها، عامرة بالزاد والمؤن، لأن أهلها تركوها خوفاً من الصليبيين، فدخلوها وأحرقوا المسجد الجامع بالمدينة وخربوا مساجدها[١]. ثم واصلوا سيرهم إلى مدينة تنيس على بحيرة المنزلة، وفيها أصيب بالمرض نتيجة تناوله أكلة سمك من البحيرة، فانصرف عائداً، وقبل أن يصل إلى العريش داهمه الموت، فشق أصحابه بطنه وصبروه، ورموا أحشاءه هناك في المكان الذي يعرف اليوم بسبخة بردويل (بحيرة البردويل) نسبه إليه، وهي على بعد ٩٠ كم شرقي بور سعيد[٢].

وسوف تظل فكرة الاستيلاء على مصر في مخططات الصليبيين حتى تتاح لهم

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٥ ص١٧١.
(٢) ابن تغري بردي، المرجع نفسه.

فرصة تنفيذها خاصة وأن طريق التوسع أمامهم في الشام أصبح أمراً متعذراً بعدما أصبحت الشام كلها في أيدي نور الدين محمود. وسيجد عموري، ملك بيت المقدس، الفرصة سانحة للزحف على مصر، عندما يتحرك نور الدين محمود ويبعث بجيوشه إليها. ويرجع السبب في ذلك إلى ضعف أواخر الخلفاء الفاطميين في مصر[1]، والنزاع الذي دب بين الوزير شاور، وصاحب الباب ضرغام، وفرار شاور إلى نور الدين محمود في الشام في أواخر سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م، يستنجد به ضد ضرغام الذي استولى على الوزارة منه، وتعهد شاور لنور الدين محمود أن يدفع إليه ثلث إيرادات مصر، وأن يعلن ولاءه الى نور الدين محمود عندما تعود إليه مقاليد الحكم.

الحملة النورية الأولى ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م.

وافق نور الدين محمود على هذا العرض ليحقق هدفه في استكمال تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة التي تمكنه من مجابهة الصليبيين، واسترجاع المدن التي احتلوها على الساحل، وأمر بمسير جيش كبير بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وكان في السابعة والعشرين من عمره، سار هذا الجيش وفي معيته الوزير الهارب شاور، وخرج نور الدين محمود بجيش آخر إلى أطراف الإمارات الصليبية المجاورة لحدود بلاده، لكي يشغل الصليبيين عن التعرض لجيش شيركوه[2].

وصل شيركوه بجيش نور الدين محمود إلى الأراضي المصرية، وعلم ضرغام فأصابه الفزع، لأن الجيش الفاطمي في مصر كان على درجة كبيرة من الضعف والتفكك، وأسرع ضرغام إلى الاستعانة بالصليبيين فأرسل الى عموري ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ضد جيش نور الدين محمود، وتعهد له بدفع مبلغ كبير من المال ومن الطبيعي أن يقبل عموري هذه الدعوة فوراً، لأنها تتفق ومخططه في التوسع جنوباً نحو مصر، وأمر بمسير الجيش إلى مصر.

---

(١) يذكر ابن واصل (مفرج الكروب، حـ١ ص١٣٨) ذلك في قوله: والحكم للوزراء، من قهر بالسيف أحدها، والخلفاء بمصر تحت قهرهم، وكان الأمر كذلك من أيام المستنصر بالله

(٢) باركر: الحروب الصليبية، ص٧٩.

وصل شيركوه بجيشه إلى مصر قبل أن تصل جنود عموري من الصليبيين، ولقي الجيش الفاطمي بقيادة ناصر الدين أخي ضرغام في بلبيس فهزمه، وفر ناصر الدين مع فلول جيشه إلى القاهرة، وتبعه أسد الدين شيركوه بجيشه ودخل القاهرة في أواخر جمادي الأولى سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م حيث التقى بضرغام نفسه على رأس جيش آخر، فأنزل به الهزيمة، فتخلى الجنود عنه وتركه جميع أعوانه، فقتله بالقرب من مشهد السيدة نفيسه بنت الحسن (رضي) كما قتل أخاه وكثيراً من جنوده، وأعيد شاور إلى منصبه في الوزارة[١].

عسكر أسد الدين شيركوه بجيشه في بلبيس - شرقي الدلتا - ليدفع الصليبيين عن مصر، ولكن شاور طلب منه العودة إلى الشام، ورفض أن يعطيه المال الذي تعهد به، فاتخذ أسد الدين شيركوه إقليم الشرقية معسكراً لجنوده، وتحصن به، وأصبح تحت سيطرته وحكمه[٢]. عندئذ لجأ شاور إلى الصليبيين كما فعل ضرغام من قبل، ووعد عموري ملك بيت المقدس مبلغاً كبيراً من المال نظير مساعدته. ورحب عموري في هذه المرة كذلك، فربما يتحقق حلمه في امتلاك مصر، وأسرع بالمسير بالجيش، لأنه كان يخشى إن امتلك نور الدين محمود مصر، تصبح قوى الصليبيين وإماراتهم واقعة بين شقي الرحى، محصورة من الشمال والجنوب، تحيط بها قوى نور الدين محمود في الشام ومصر.

وصل عموري بجيشه وحاصر بلبيس، وانضمت إليه قوات شاور، واستمر الحصار ثلاثة شهور[٣]، والمدينة صامدة لم ينالوا منها غرضاً. ووصلت هذه الأخبار إلى نور الدين محمود، فجمع جيشه ..احم المدن الصليبية القريبة منه[٤]، وشدد هجومه على حارم وبانياس، وطبريه وغيرها، وعلم عموري بما فعله نور الدين محمود، وأنه استولى على حارم فخاف على مملكته في بيت المقدس، وعرض الصلح على أسد الدين شيركوه بشرط خروج الفريقين معاً من الأراضي

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٢٩٩.
(٢) ابن تغري: النجوم الزاهرة، جـ٥ ص٣٤٧.
(٣) حبشي: نور الدين والصليبيون، ص١٠٧.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٣٩، Wiet; L'Egypte Arabe, P. 294

المصرية، ووافق شيركوه لشدة نقص الإمدادات والأقوات عنده، ولغلبة جند عموري وشاور على جنوده، وخرج بجنوده عائداً إلى الشام في ذي الحجة سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م، وعاد عموري هو الآخر بجيشه الى بيت المقدس.

الحملة النورية الثانية ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م.

انسحب كل من الرجلين (أسد الدين شيركوه وعموري) مضطراً ومكرهاً، ولكنه كان يفكر في العودة إليها طمعاً في ثروتها، واستغلالاً لموقعها، وشجعهما على ذلك ما لمساه بنفسيهما من ضعف شديد أصاب مصر، فأسد الدين شيركوه أخذ يتلمس الأسباب عند نور الدين، ويلح عليه حتى يزوده بجيش أكثر عدداً من الجيش الأول، وأوفر عتاداً وعدة، لكي يعود به إلى مصر[1]. وأخذ يشرح لنور الدين محمود تخوفه من هجوم صليبي عليها وامتلاكها. وقد تردد نور الدين محمود في أول الأمر خشية تفرق قواته في الوقت الذي كثرت فيه الاشتباكات بينه وبين الإمارات الصليبية القريبة منه، ولكنه كان مدفوعاً ـ في نفس الوقت ـ للموافقة على ما طلبه شيركوه لكي يضم مصر إليه لاستكمال تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة، خاصة وأنه كان سني المذهب، ويرى في وجود خلافة فاطمية شيعية في مصر سبباً من الأسباب التي تؤدي الى استمرار ضعف الأمة الإسلامية، ويعطله عن تحقيق الهدف الذي يسعى إليه، ولذلك فكر في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر.

أمر نور الدين محمود بخروج جيش كبير مع أسد الدين شيركوه، وساعدته الظروف السياسية عندما أرسل الخليفة العاضد الفاطمي إلى نور الدين محمود يشكو من ظلم شاور واستبداده[2]، وكان نور الدين محمود حانقاً على شاور بسبب غدره وخيانته، وعدم وفائه بوعده الذي اتفق عليه مع نور الدين محمود، ولأنه استنجد بالصليبيين أعداء الدولة الإسلامية ولهذا عجل بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر.

خرج شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي في ألفي فارس غير ألوف من المشاة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٥ ص٣٤٨.
(٢) ابن الأثير: الباهر، ص١٣٢.

وتحركوا في ربيع الأول ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م[١]، وسار نور الدين محمود في قوات أخرى خلفهم ليحمي ظهرهم حتى وصلت الحملة أطراف الشام. واستمرت الحملة في مسيرها حتى دخلت مصر ووصلت إلى أطفيح، ومنها عبر شيركوه وجيشه نهر النيل، وعسكر في الجيزة على الضفة الغربية من النهر في مواجهة الفسطاط بمصر القديمة، حتى تتضح له نوايا شاور.

أرسل شاور إلى عموري يستنجد به للمرة الثانية، وأسرع عموري بالخروج على رأس جيشه في نهاية سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧م، وعسكر شاور بالجيش الفاطمي في مدينة بلبيس انتظاراً لوصول حليفه عموري. ولما وصل عموري بجيشه وتكامل لقاء الحليفين اتجهت الجيوش الصليبية والفاطمية إلى مصر، وعسكرت على الضفة الشرقية من النيل في مواجهة قوات شيركوه، وتمكن عموري من عقد اتفاق مع شاور يقضي بدفع ٤٠٠ ألف دينار للقوات الصليبية نظير مساعدتهم له في طرد قوات نور الدين محمود بقيادة شيركوه، وإجلائهم عن مصر، واشترط عموري أن يدفع شاور له نصف هذا المبلغ مقدماً[٢]، ومعنى ذلك أن شاور اتخذ من الصليبيين حامياً له وللخلافة الفاطمية في مصر، وقد حرص عموري على إضفاء الصبغة الرسمية على هذا الاتفاق، فبعث سفارة من خاصته إلى الخليفة الفاطمي العاضد، حيث حصلت على موافقته على هذا الاتفاق.

عبر الجيشان المتحالفان ـ جيش عموري وجيش شاور ـ نهر النيل، وكانت الأخبار قد وصلت الى أسد الدين شيركوه عن هذا التجمع الكبير من هذين الجيشين، وأدرك شيركوه حرج موقفه بعد عبور خصومه للنيل وضرب معسكرهم في جزيرة الروضة، فقرر الانسحاب الى جنوب مصر. ولعله أراد بهذا الانسحاب أن ينهك قوة خصومه بسبب سيرهم هذه المسافة الطويلة فيتمكن من ملاقاتهم، والدخول معهم في حرب سريعة، وإنزال الهزيمة بهم.

عسكر أسد الدين شيركوه بقواته بالأشمونين قريباً من المنيا في مكان يعرف بالبابين ووضع خطته مع ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على أن يكون في القلب

(١) أبو شامة: الروضتين، حـ١ ص١٤٢؛ وابن الجوزي: مرآة الزمان، حـ٨ ص٢٦٨.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٥٠.

ومعه معظم العساكر لأن جنود الفاطميين والفرنجة يجعلون هجماتهم على القلب، وأعطى تعليماته إلى صلاح الدين بعدم الهجوم على حصومهم، وأن يتقهقروا أمام هجماتهم وهم متماسكون، وإذا عادوا إلى مكان المعركة فارجعوا في أعقابهم في تماسك وحذر.

انتقى أسد الدين شيركوه مجموعة من المقاتليں والفرسان وجعلهم معه في الميمنة، فلما اندفع الصليبيون والفاطميون في هجومهم على القلب، نفذ صلاح الدين الأيوبي الخطة الموضوعة، وتقهقر فتبعته تلك القوات، وعندئذ أتيحت الفرصة لأسد الدين شيركوه ومن معه من الفرسان في الانقضاض على مؤخرة الجيشين الحليفين، وأنزل بهم الهزيمة المرة، ولم يترك منهم سوى الجريح. فلما عادت القوات المتحالفة (صليبية وفاطمية) ورأوا الهزيمة التي أبادت عسكرهم، عادوا من فورهم الى الصفة الشرقية من النيل، حيث كان معسكرهم عند الفسطاط[1].

كان من الممكن أن ينجح أسد الدين شيركوه في امتلاك القاهرة، لو أنه تعقب عموري وجيشه بعد الهزيمة مباشرة، ولكنه أخذ يسير ببطء على الضفة الغربية للنيل حتى وصل إلى الإسكندرية، فسلمها أهلها إليه لميلهم إلى المذهب السني، وتعبيراً منهم عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين[2].

أناب أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على الإسكندرية، وترك معه حامية من الجند يقدر عددها بحوالي ألف جندي، وعاد بمن معه من الجند إلى الصعيد فاستولى عليه، وجبى أمواله وأقام به، وكانت هذه مدة كافية لعموري وشاور أن يصلح كل منهما أمور جنده، ويعيد تنظيمه لمعاودة الهجوم ضد شيركوه، ووجدوا في الإسكندرية فرصتهم لعلهم يحرزون نصراً حاسماً على صلاح الدين الأيوبي، فساروا إليها وحصروها من البر والبحر، وشددوا عليها الحصار، حتى قل عند أهلها الطعام، وصمد صلاح الدين الأيوبي وصمد معه شعب الإسكندرية إلى أن ساءت حالتهم[3]، وأصبح موقف صلاح الدين حرجاً

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٥١.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٥ ص٣٥٩، وأبو شامة: الروضتين، جـ١ ص١٤٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٣٢٦.

لقلة عدد جنوده، وأرسل إلى قائده أسد الدين شيركوه يطلب منه النجدة، فأسرع شيركوه بجنوده نحو القاهرة يريد حصارها والاستيلاء عليها، فاضطر شاور وعموري إلى رفع الحصار عن الإسكندرية، وعادوا مسرعين إلى القاهرة خوفاً من سقوطها في يد أسد الدين شيركوه. وأرسل عموري وشاور من ينوب عنهما في طلب الصلح من أسد الدين شيركوه، وكان الدافع لذلك أن الأخبار وصلت عموري بتشديد هجمات نور الدين محمود على ممتلكات الصليبيين في الشام، خاصة في بانياس وحصن الأكراد[1] فتقدم بطلب الصلح، ووافق أسد الدين شيركوه بعد أن بذل له الصليبيون والفاطميون خمسين ألف دينار، واشترط عليهم عدم بقاء الصليبيين في مصر، فوافقوه على ذلك ولكن عموري لم يخرج من مصر إلا بعد أن عقد اتفاقية سرية مع شاور تنص على بقاء حامية صليبية تشرف على أبواب القاهرة، وتدافع عنها إذا ما فكر شيركوه في العودة إليها، وأن يدفع شاور جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار[2]، وأن يكون له مندوب خاص يشارك مع شاور في شئون الحكم.

الحملة النورية الثالثة:

لم يكن أسد الدين شيركوه هو السباق إلى دخول مصر في هذه الحملة كما حدث في المرتين السابقتين، وإنما كانت الحامية الصليبية التي أبقاها عموري في مصر هي السبب في دفع القوات الصليبية الى المجيء إلى مصر لامتلاكها، فقد تمكنت هذه القوات من الاطلاع على عورة مصر، وطمعوا فيها، وأيقنوا أنه ليس لديها القوة التي تذود وتدافع بها عن نفسها أمام أي راغب وطامع فيها[3]، فقد كتب ضباط الحامية الصليبية الى عموري وأخبروه بخلوها من التحصينات والمواقع، وهونوا عليه أمرها، وانضم إلى هؤلاء الصليبيين نفر قليل من أعيان المصريين ممن غلبوا مصلحتهم الشخصية، ودفعهم عامل الحقد على شاور، والكيد له أن يتخذوا

---

(١) Wiet; op. cit. P. 296

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٣٢٦؛ وأبو شامة: الروضتين، جـ١ ص١٤٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٥٥؛ وابن تغري بردي: النجوم، جـ٥ ص٣٥٠.

من خيانة أوطانهم، وبيع دينهم، والتغاضي عن شرفهم وكرامتهم، وسيلة للوصول إلى مآربهم، فكتبوا إلى عموري بسرعة الحضور لامتلاك مصر، وكان من ضمن هؤلاء الخونة يحيى بن الخياط، وكان من قواد الجيش الفاطمي في مصر، وكذلك ابن قرجله[1].

رأى عموري أنه لا بد من الاستعانة بقوة خارجية، فاتجه إلى الدولة البيزنطية باعتبارها أقرب الدول المسيحية إليه، وعقد مع امبراطورها مانويل كومنين حلفاً، ودعم هذا الحلف بالزواج السياسي حيث تزوج بابنة أخي الامبراطور (الأميرة ماري) وكان السفير في هذا الأمر هو المؤرخ الصليبي وليم الصوري William of Tyre، وكان الاتفاق أن تقوم حملة مشتركة من البيزنطيين والصليبيين لاحتلال مصر، ولكن حالت مشاغل الامبراطور مانويل كومنين في البلقان دون تنفيذ هذا الاتفاق، وطلب تأجيله بعض الوقت، وكان هذا من حسن حظ مصر، ونور الدين محمود.

وكان من الممكن لعموري أن ينتظر بعض الوقت، لولا أن شاور تنكر لوعوده والالتزامات التي ارتبط بها مع عموري ـ كعادته ـ في الاتفاقية التي أبرمت قبل ذلك، ويبدو أن شاور اضطر تحت ضغط الرأي العام الإسلامي من جانب، وخشية أن تضيع مصر من يديه إذا ما دخلها البيزنطيون وعموري معاً من جانب آخر، اضطر إلى أن يغير سياسته ويقلبها رأساً على عقب، فاتصل بنور الدين محمود طالباً مساعدته على التخلص من القوة الصليبية الموجودة في مصر[2].

عجلت هذه العوامل بقدوم عموري إلى مصر بجيشه منفرداً دون حليفه، فوصل الى بلبيس أوائل صفر ٥٦٤ هـ/ سنة ١١٦٨ م، ووقف شعب بلبيس مع الحامية المصرية الموجودة بها يقاومون عموري وجيشه، واستبسلوا في الدفاع عن بلدهم، فلجأ عموري الى الشدة حيث قتل وسبى وأسر منهم الكثير[3].

---

(١) أبو شامة. الروضتين جـ١ ص١٧٠، ٢٢٦، عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٣٥، ٦٩، ٧٨، ٣١٩، ٣٤٨، ٤٩٥، وابن الأثير. الباهر، ص١٣٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٥٧، أبو شامة. الروضتين، جـ١ ص١٧٨.

(٣) ابن الأثير: الباهر، ص١٣٨.

ثم انحدرت قواته مسرعة نحو القاهرة، وعسكرت جنوب الفسطاط في مكان يسمى بركة الجيش؛ وأصيب شاور بالهلع والفزع لحرج موقفه، وضعف مركزه، وقرب زوال سلطانه، فحاول أن ينقذ ماء وجهه فبدأ يستعد للدفاع عن القاهرة، وأمر بإخلاء الفسطاط ونهبها وحرقها، وظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً (من ٩ صفر حتى ٥ ربيع الآخر).

لجأ شاور إلى المداهنة والنفاق، فأرسل الى عموري يذكر له مودته ومحبته وأنه مجبر على هذا العمل لأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم، ويطلب الصلح لئلا يسلم البلاد الى نور الدين محمود، ووافق عموري وطلب ألف ألف دينار ولكن شاور قدم إليه مائة ألف وأخذ يماطل في الباقي حتى يتضح له الموقف لأنه كان قد أرسل في نفس الوقت الى نور الدين يطلب منه النجدة ضد عموري، كذلك أرسل الخليفة الفاطمي العاضد بالكتب يطلب النجدة من نور الدين، ولكي يثير شعوره، ويحثه على الإسراع، أرسل في طي هذه الكتب خصلات من شعور نسائه ونساء القصر، وتعهد الخليفة العاضد بتقديم إيراد ثلث البلاد إلى نور الدين محمود، وأن يقدم المعونات اللازمة إلى شيركوه من مصر.

استجاب نور الدين محمود لهذه الاستغاثة التي وصلت إليه من الخليفة الفاطمي بمصر، وأمر بمسير جيش كبير بقيادة أسد الدين شيركوه، بعد أن جهزه بالعتاد والمال، فقد أنفق على تجهيزه مائتي ألف دينار، وأعطى كل فارس عشرين دينار غير محسوبة من المخصصات الثابتة له في الديوان[1]. وحاول صلاح الدين الأيوبي عدم الخروج في هذه الحملة نظراً لما أصابه في الإسكندرية، ومما سببه لأهلها على يد الصليبيين، ولكنه اضطر إلى الخروج مع عمه أسد الدين شيركوه بعد إلحاح عمه ورغبة نور الدين محمود[2].

تحرك جيش نور الدين محمود بقيادة أسد الدين شيركوه في ربيع الأول ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م وسلك طريق الصحراء حتى يتفادى الدخول في حرب مع

---

(١) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ق١ ص٧٥-٧٦.

(٢) Gibb; life Saladin, P. 119

القوات الصليبية، فوصل القاهرة في يناير ١١٦٩ م، والتف المصريون حوله ورحبوا به، ليدفعوا به الصليبيين عن أنفسهم، فأدرك عموري صعوبة موقفه، واستحالة الاستيلاء على القاهرة بعد أن انضم أهلها إلى شيركوه وقواته، فارتد إلى بلبيس منسحباً مع قواته الصليبية؛ ومنها أسرع بالعودة الى مملكة بيت المقدس في أواخر صفر ٥٦٤ هـ/ آخر يناير ١١٦٩ م[١]. وهكذا كان انضمام شعب مصر إلى أسد الدين شيركوه وقوات الشام واتحاد كلمة المسلمين من أهم الأسباب التي دفعت عموري والقوات الصليبية إلى الانسحاب من مصر وتركها خوفاً من أن يصابوا بهزيمة محققة على أيدي هذه القوات الإسلامية العظيمة، وخشية أن يهاجم نور الدين محمود بقايا القوات الصليبية في الشام، فينزل بها هو الآخر هزيمة ساحقة.

لقي أسد الدين شيركوه في القاهرة ترحيباً كثيراً، وأحبه المصريون لأنه دفع عنهم ظلم الصليبيين وظلم شاور، ورحب الخليفة العاضد بمقدمه واستقبله وخلع عليه خلعة الوزارة وكرمه، وتقرر له ولقواته الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة[٢].

اضطربت نفس شاور لهذه النتيجة التي وصل إليها أسد الدين شيركوه، وأحس أن سلطانه زائل لا محالة، فامتلأ حقداً وغيظاً، وأخذ يتظاهر بالورع والتقوى، ويذهب كل يوم لزيارة قبر الإمام الشافعي (رضي الله عنه) ليجذب إليه قلوب المصريين، ولجأ إلى المصانعة وتقرب إلى أسد الدين شيركوه، وفي نفس الوقت دبر له مؤامرة للفتك به، ولكن ولده الكامل (ابن شاور) اعترضه، ونهاه وهدده بأنه سيخبر شيركوه، وشرح لأبيه ما يترتب على تلك المؤامرة من مخاطر تحيق بمصر والخليفة الفاطمي نفسه[٣]، فعاد شاور إلى أسلوب المماطلة في تنفيذ العهود والالتزامات التي لنور الدين محمود.

اجتمع أعيان المصريين وقالوا لأسد الدين شيركوه: إن شاور سبب فساد

---

(١) ابن واصل. مفرج الكروب، جـ١ ص١٦٠، وابن الأثير. الباهر، ص٢٥٠.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٦١.
(٣) راجع الحوار بين شاور وابنه الكامل في ابن واصل. المرجع السابق نفسه.

البلاد والعباد، وطالبوا بقتلـه، وإنقـاذ المسـلمين من شره[1]. وتـدارس شيركوه وصلاح الدين الأيوبي وسائر الأمراء ما طلبه المصريون، فتبين لهم خيانـة شاور وغدره وعدم وفائه بالعهود وقرروا قتله. وانتهز صلاح الدين الأيوبي ومعه الأمير عز الدين حورديك فرصة قدوم شاور لزيارة أسد الدين شيركوه الذي كان في مسجد الإمام الشافعي، واصطحباه الى هناك، وفي الطريق قبضا عليه، وأودعاه سجيناً في خيمة، ولما علم الخليفة العاضد بالخبر، أمر بأن يحمل رأس شاور إلى القصر، وقتل شاور في السابع من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م، وانتهت حياته بعد أن استغل النزاع القائم بين الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء ليبقى على سلطانه، فكان مقتله خاتمة للمتاعب التي تعرضت لها مصر في أواخر العصر الفاطمي[2]، ولم يعد للصليبيين من ينصرهم، أو يستنجد بهم ضد المسلمين كما كان يفعل شاور.

أعلن الخليفة العاضد تعيين أسد الدين شيركوه وزيراً له، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش[3]، وسمح للناس بنهب قصر شاور، ولكن الموت عاجل شيركوه بعد شهرين من توليه هذا المنصب حيث توفي في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ/ ٢٣ مارس ١١٦٩ م فخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي[4].

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ص٧٠٠-٧٠١، تشير بعض المراجع أن إعدام شاور كان بناء على أوامر الخليفة العاضد وأن الذي قام بتنفيذه هو صلاح الدين. حسن. صلاح الدين، ص ١١٩.

(٢) العريني: الأيوبيون، ص٣٨.

(٣) باركر: الحروب الصليبية، ص٧٩.

(٤) أبو شامه: الروضتين: جـ١ ص١٧٣ ،وابن الأثير: الباهر، ص١٤٠.

الفصل الخامس عشر

صلاح الدين الأيوبي وزيراً في مصر

تطلع أكابر الأمراء الذين كانوا في جيش أسد الدين شيركوه إلى منصب الوزارة، ولكن الخليفة العاضد استدعى صلاح الدين الأيوبي وخلع عليه خلعة الوزارة، وأصدر له تقليداً بذلك ولقبه بالملك الناصر[1] وقد امتنع صلاح الدين عن قبول الوزارة، ولكن ألزم هذا الأمر[2]. فهاجت نفوس بعض هؤلاء الأمراء، وتعصبوا ضده، وامتنعوا عن أن يكونوا في جيشه وتحت نفوذه، لأنهم أتراك وهو كردي، وهو أصغر منهم سناً فعادوا إلى الشام، وبقي معه نفر منهم. والواقع أن الذي دفع الخليفة العاضد لاختيار صلاح الدين الأيوبي للوزارة اعتقاده بضعف صلاح الدين لصغر سنه إذ أنه لم يتجاوز الثانية والثلاثين، وعدم وجود حاشية له من الجنود، مما يجعله مطيعاً للخليفة ولا يجرؤ على مخالفته. على أن هناك رأياً يقول إن الخليفة ربما ظن أنه يستعين بصلاح الدين في القضاء على بقية أمراء نور الدين الذين جاءوا في الجيش مع أسد الدين شيركوه وبذلك يتخلص من نفوذ نور الدين محمود كما تخلص من خطر شاور[3]، ويبدو لي أن درجة الضعف الكبيرة التي كان عليها العاضد والخلافة الفاطمية، والتفاف الشعب المصري حول شيركوه وصلاح الدين (في الإسكندريه) تجعلني استبعد هذا الظن، خاصة لأن العاضد كان في

---

(١) راجع نص هذا التقليد الذي كتبه القاضي الفاضل وجاء بكتاب الروضتين، لأبي شامه (جـ ١ ص ١٧٣) ص ٤٠٩ القاهرة ١٩٦٢. ومما ورد به: «... والجهاد أنت رضيع دره، وناشئة حجره... فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحراً من الظبى.. حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مدخوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك».

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٧، وابن واصل. مفرج الكروب، جـ١ ص١٦٩.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ص٧٠٦-٧٠٧

حاجة ماسة لمثل هذه القوات لكي تحميه وتحمي الخلافة الفاطمية في مصر من خطر الوقوع في أيدي الصليبيين.

لم يكد صلاح الدين يتخطى العقبة الأولى (أمراء أسد الدين شيركوه) حتى واجه ثورة قام بها الجند السودانيون بزعامة الطواشي مؤتمن الخلافة جوهر الخصي، الذي كان يتحكم في القصر، وكان يطمع أن يخلف شاور في الوزارة، فكتب الى الصليبيين في بيت المقدس ووعدهم اقتسام مصر بينهم وبينه إذا ساعدوه في القضاء على صلاح الدين وجنده ولسوء حظه وقع الكتاب في يد صلاح الدين، فأمر بقتل مؤتمن الخلافة جوهر، وتم قتله في ٢٠ أغسطس ١١٦٩ م، وحاول أتباعه وكانوا يزيدون على خمسين ألف جندي التصدي لصلاح الدين وقتله، فأمر صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه بقتالهم، فقطع دابرهم وقضى عليهم[1].

على أن ثمة عقبة ثالثة وقفت في طريق صلاح الدين، وأعني بها القوات الصليبية في الشام. فقد شعر هؤلاء الصليبيون بالخطر الذي يحيق بهم لوحود صلاح الدين الأيوبي في مصر، ووحود نور الدين محمود بقواته في الشام، فقد أصبحوا واقعين بين شقي الرحى، ولا بد أن يفقدوا سيطرتهم على الجزء الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط.

الحملة المشتركة:

طلب الصليبيون المساعدة من الغرب الأوروبي، ولكن الأوروبيون تقاعسوا عن مساعدتهم وفشل عموري ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في الحصول على مساعدة من الأوروبيين، فلجأ الى مانويل كومنين إمبراطور بيزنطة، وجدد معه الحلف الذي كان قد عقده معه من قبل، وتم الاتفاق بينهما على غزو مصر واقتسامها، وجهز الامبراطور مانويل أسطولاً بحرياً كبيراً أرسله إلى قبرص وصقلية في يوليه ١١٦٩م/ ٥٦٤هـ حيث أمدتهم هذه الجزر بالآلاف من الجنود، وبكثير

(١) يذكر ابن واصل (مفرج الكروب، جـ١ ص١٧٤) أن نور الدين محمود كان قد أمد صلاح الدين الأيوبي بقوة من الجند فيها توران شاه. راجع كذلك المقريزي: الخطط جـ٣ ص٢٩، وبعض المراجع تذكر عددهم ثلاثين ألف جندي من المشاة السودانيين. راجع حب. صلاح الدين، ص١٢٠.

من العتاد والمؤن والأموال، ثم واصل هذا الأسطول إبحاره إلى صور وعكا لوضع الخطة المشتركة وكانت تقضي بمهاجمة مصر عن طريق ميناء دمياط بواسطة الأسطول البيزنطي، وبراً بجيوش الصليبيين التي تزحف إلى دمياط عن طريق الفرما، بكل ما تحمله من منجنيقات ودبابات وآلات حصار، وبذلك يمكن لهم القضاء على صلاح الدين الأيوبي وجيشه في مصر.

أبحر الأسطول البيزنطي وقد انضمت إليه سفن من هذه الجزر (قبرص وصقلية) فوصل إلى خارج مياه دمياط، وأرست تجاه المدينة، لأنها لم تتمكن من دخول المدينة لوجود المآصر[1]، وفي نفس الوقت تحركت القسوات البيزنطية والصليبية من عسقلان في منتصف أكتوبر ١١٦٩م/ ٥٦٦هـ فوصلت إلى الفرما بعد تسعة أيام، ومنها واصلت السير صوب دمياط.

وصلت هذه الأنباء الى صلاح الدين الأيوبي، ولم يكن يتوقع غزو مصر عن طريق دمياط، وكان يظن أن الصليبيين قادمون كالمعتاد عن طريق الشرقية، وأخذ يفكر لو أنه خرج إلى دمياط، فمما لا شك فيه أن رجال القصر الفاطمي وأتباعهم يجدونها فرصة في الانقضاض على جنده ويتخلصون منه ومن سيطرته التي أحكمها على مصر، ولو أنه بقي في مصر فإن الصليبيين والبيزنطيين سيحتلون دمياط. ولهذا أرسل إلى دمياط الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ابن أخيه) ومعه شهاب الدين الحارمي (خاله)، فدخلا دمياط قبل وصول الصليبيين وأمدهما

---

(١) المآصر. عبارة عن سلاسل حديدية سميكة تمتد في مدخل الميناء بالعرض لتمنع دخول سفن الأعداء. وقد استعمل المصريون خلال الحرب العالمية الثانية في مدخل ميناء الاسكندرية نوعاً من العوامات (براميل) المستطيلة بطول ٦ متر تقريباً، وقطر ٦٠ سم، وكان يتدلى من كل عوامة شبكة من الصلب متداخلة الحلقات، تنزل في أعماق البحر، وكانت هذه العوامات يربط بعضها ببعض لتغلق فتحة البوغاز (مدخل الميناء) فتمنع دخول السفن، وتسرب الغواصات وكانت هذه الشباك متصلة بتيار كهربائي وأجراس تعطي إنذاراً عند ملامسة أي غواصة أو سفينة لها، لكي تستعد حامية الميناء للدفاع. ومن المدهش حقاً أن إحدى الغواصات الإيطالية الصغيرة تمكنت من الدخول إلى الميناء وهي تابعة أسفل باخرة تجارية كبيرة في صباح أحد أيام صيف ١٩٤٢، وتمكنت الغواصة من إصابة مركز قيادة الأسطول البريطاني وهي السفينة الحربية (وليي وريتش) بطوربيد مباشر، وتحولت الميناء في دقائق إلى ساحة معركة بحرية حيث كانت تلقي السفن الحربية البريطانية بقنابل الأعماق، وفعلاً أصيبت الغواصة وقتل قائدها بينما قبض على مساعده ليلاً وهو يحاول الخروج من باب جرك ٢٣ وكان مبللاً بالماء (المؤلف).

صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر والمال، وفي نفس الوقت كتب إلى قائده نور الدين محمود يصف إليه موقفه، فجهز إليه نور الدين محمود العساكر إرسالاً، كلما تجهزت طائفة أرسلها[1] ثم لجأ إلى مهاجمة المدن الصليبية للضغط على الصليبيين وإجبارهم على الانسحاب وترك دمياط ليحافظوا على مدنهم في الشام.

صمدت دمياط خمسين يوماً وهي تدافع عن نفسها، واستغل أهلها جريان مياه النيل نحو الشمال وأطلقوا على سطح المياه أواني فخارية مملوءة بمواد مشتعلة فأصابت أسطول العدو بأضرار كبيرة واضطرته إلى الانسحاب في عرض البحر مبتعداً عن لسان النيل الذي يشرف على مدخل المدينة[2]. ولم يلبث أن اشتد الضيق بجنودهم المعسكرين في البر عندما نفذت التموينات منهم ومن جنود الأسطول، وزادت حالتهم المعنوية سوءاً عندما بلغتهم أخبار الإغارات التي شنها نور الدين محمود على المدن الصليبية في الشام، فاضطر عموري لرفع الحصار عن دمياط والعودة إلى بيت المقدس في أواخر ديسمبر ١١٦٩ م/ ٥٦٥ هـ بعد أن فشلت الحملة المشتركة على مصر[3]، ومني الأسطول البيزنطي بخسائر جسيمة أثناء انسحابه فقد هبت عليه عاصفة هوجاء أغرقت عدداً من سفنه.

كان من الطبيعي بعد أن فشلت هذه الحملة على مصر أن يتدعم مركز صلاح الدين الأيوبي بها، وأن تحاول الخلافة الفاطمية التخلص من نفوذه ونفوذ نور الدين محمود معاً، ولهذا أرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين محمود يطلب منه سحب جنوده الأتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب في قلوب المصريين، ولكن نور الدين محمود إعتذر إليه بأن بقاء هؤلاء الجنود أمر ضروري لحماية مصر من الغزو الصليبي[4].

لم يلبث صلاح الدين الأيوبي أن اتخذ من الهجوم على مدن الصليبيين ومراكزهم وسيلة للدفاع، فشن هجوماً على الرملة وعسقلان، وداروم وغزة في

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، حـ١ ص١٨١.

(٢) عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر، ص٢٢.

(٣) Wiet; op. cit., P. 301

(٤) أبو شامه: الروضتين، حـ١ ص ١٨١.

ديسمبر ١١٧٠م/ ٥٦٦هـ فحطم بعض أسوار هذه المدن، وقتل عدداً كبيراً من جنود حامياتها، ثم سار إلى سواحل أيله ومعه سفن محمولة على الجمال، حيث تم تركيبها، وإنزالها إلى البحر، وملأها بالمقاتلين، وهاجم بها أيله واستولى عليها[1]، ثم عاد محملاً بالمغانم إلى القاهرة. ومن الواضح أن فشل الحملة المشتركة على دمياط (مصر) كان نقطة تحول في تاريخ منطقة الشرق الأدنى، إذ تحولت القوى الإسلامية من خطة الدفاع إلى خطة الهجوم على مدن الصليبيين ومراكزهم، مما سيكون له أكبر الأثر في تاريخ هذه المنطقة وعلاقاتها السياسية في فترة العصور الوسطى.

نهاية الخلافة الفاطمية في مصر:

تأكد نور الدين محمود من ضعف الخلافة الفاطمية في مصر بعد أن رفض طلب الخليفة بسحب جنود صلاح الدين الأيوبي من مصر، وكذلك أحس بقسوة مركزه بعد تشديد هجماته على المدن الصليبية وإنزال الخراب بها، مما جعل الصليبيين يخافونه، وعزز هذا الإحساس ما قام به صلاح الدين الأيوبي من هجمات على مدن الصليبيين القريبة من مصر وتحطيم أسوارها... فإذا أضفنا إلى ذلك أن نور الدين محمود استولى على الموصل بعد فشل الحملة المشتركة على مصر بعام واحد (٥٦٦هـ/ ١١٧١م) بسبب موت أخيه مودود بن زنكي[2] اتضحت لنا الأسباب التي جعلته يطلب من صلاح الدين الأيوبي أن يسقط الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد، وأن يجعلها للخليفة العباسي المستضيء بنور الله، حيث كتب إلى صلاح الدين الأيوبي يلزمه بذلك إلزاماً[3] في يناير ١١٧١م.

اتخذ صلاح الدين بعض الخطوات الضرورية لإسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، فأبعد حاشية الخليفة الفاطمي وقواده عن القاهرة، وأنشأ المدارس السنية، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس - وهو من أصحاب الشافعية - قاضياً للقضاة، فلما لم يجد معارضة من المصريين ولا من أهل القصر الفاطمي أقدم على

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٩٩.

(٢) ابن الأثير. الباهر، ص ١٥٢-١٥٣، والكامل: جـ١١ ص٣٦٢-٣٦٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص٢٠٠، جب: نفسه، ص١٢١.

قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد، وتطوع فقيه أعجمي يسمى الخيوشاني ويلقب بالأمير العالم فألقى خطبة الجمعة في غرة المحرم ٥٦٧ هـ/ سبتمبر ١١٧١م ودعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله، فلم ينكر عليه أحد من الحاضرين ذلك، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة في المساجد كلها للخليمة العباسي، وكان الخليفة الفاطمي العاضد قد اشتد به المرض، ومنعت عنه الأخبار خوفاً عليه، وتوفي يوم عاشوراء (المحرم ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م)[1] وهو لا يعلم بسقوط دولته، وبموته انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمن. ولكي يدعم الخليفة العباسي نفوذه ويثبت سلطانه على مصر، أسرع بإرسال الخلع إلى نور الدين محمود وإلى صلاح الدين الأيوبي، وأرسل الرايات السود شعار العباسيين[2] وبذلك عادت للعالم الإسلامي وحدته الروحية تحت خلافة واحدة هي الخلافة العباسية.

على أن جفوة حدثت بين صلاح الدين الأيوبي، ونور الدين محمود، كان من أسبابها أن صلاح الدين بعث برسول له إلى الخليفة العباسي في بغداد، ليبشره بعودة مصر إلى الخلافة العباسية، وانتهاء الدولة الفاطمية[3]، فاعتبر نور الدين محمود هذا التصرف إهانة له، وإهمالاً لشأنه، خاصة وأن صلاح الدين الأيوبي يحكم في مصر باسمه، باعتباره نائباً له، ومن ناحية أخرى كان نور الدين محمود متخوفاً من أن يستقل صلاح الدين بحكم مصر، فتضيع جهوده التي بذلها ليضم مصر إلى نفوذه ليستكمل تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة لضرب الصليبيين وطردهم من أرض المسلمين، ويرى ابن الأثير[4] أن السبب الرئيسي لهذه الوحشة (الجفوة) بين الرجلين، هو أن صلاح الدين الأيوبي خرج في صفر سنة ٥٦٧هـ/ سبتمبر ١١٧١م، وحاصر حصن الشوبك، وأطبق على من به من الصليبيين حتى طلبوا الأمان ومهله عشرة أيام لتسليم الحصن، وانتهز نور الدين محمود فرصة وجود

(١) المقريزي: السلوك، حـ١ ق١ ص٤٦، ابن الأثير: الباهر، ص١٥٦.
(٢) ابن واصل. مفرج الكروب، حـ١ ص٢٠١، وكذلك Wiet, op. cit. P. 302
(٣) المقريزي: نفسه، ص٤٤.
(٤) الكامل، حـ١١ ص٣٧١-٣٧٢، هناك آراء تصف ابن الأثير بالمبالغة فيما ذكره عن هذه الوحشة راجع:
Gibb, Arabic sources for the life of saladin, Spocculum, 1950, PP. 58-72

صلاح الدين على حصن الشوبك، وأراد أن ينتزع حصن الكرك من الصليبيين، وكان يبعد مسيرة يوم من الشوبك، فخرج على رأس قواته متجهاً إلى الكرك. فلما سمع صلاح الدين الأيوبي بتحرك نور الدين وقواته، فك الحصار عن حصن الشوبك، ورجع قافلاً مع قواته إلى مصر، وكتب إلى نور الدين محمود يعتذر إليه بأن بقايا الفاطميين على وشك إشعال ثورة بها، وأن الأمور مضطربة فيها، مما يتطلب عودته فوراً إليها.

ويبدو أن صلاح الدين خشي أن يقبض نور الدين عليه إذا رآه، وأن يعزله ويعين على مصر أميراً من أتباعه، ومع كل ما ذكر من أسباب يبقى الرأي الأول مرجحاً على غيره من الآراء، والدليل على ذلك أن أتباع الفاطميين وعلى رأسهم عمارة اليمن، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة وغيرهم من بقايا الجند السودانيين، وحاشية القصر، وقد انضم إليهم قلة من أمراء صلاح الدين نفسه، كل هؤلاء قد عاودوا الكرة واتصلوا بالصليبيين في فلسطين وفي صقلية واتفقوا معهم على التخلص من صلاح الدين الأيوبي، وإعادة مصر إلى حكم الفاطميين[1]. ثم إن صلاح الدين كان ملزماً بالزحف بقواته إلى حصن الأكراد لمساعدة نور الدين محمود وكان من الممكن جداً أن يتمرد الصليبيون في حصن الشوبك، ولا يسلموا الحصن لصلاح الدين كتعهدهم له، وما أكثر ما ضرب الصليبيون باتفاقاتهم مع المسلمين وغيرهم عرض الحائط، وفي هذه الحالة لا يستطيع صلاح الدين التوجه إلى حصن الكرك لمساعدة نور الدين محمود، لأن هذين الحصنين ممتنعان ومحصنان، ويحتاج كل منها إلى زمن طويل، وجهد عظيم للاستيلاء عليه، لأنه سيكون مجبراً إما لمواصلة الحصار على الشوبك، أو فك الحصار والعودة إلى مصر، وهذا ما حدث.

اتصل أتباع الفاطميين في مصر بالإسماعيلية الباطنية في الشام، وكذا بالصليبيين في فلسطين وتم الاتفاق بين المتآمرين على إشعال نار ثورة داخل مصر، ويقوم بعض أفراد الباطنية بقتل صلاح الدين في أثنائها، وأن يأتي الصليبيون باسطولهم إلى الإسكندرية ويستولون عليها، وقد أحكم المتآمرون مؤامراتهم بأن

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٣٩٨-٣٩٩.

اختاروا وقتاً كان الساعد الأيمن لصلاح الدين، وهو أخوه توران شاه غائباً عن مصر، فقد كان في اليمن يواصل مطاردة أتباع الفاطميين.

استجاب وليم الثاني ملك صقلية لهذه المؤامرة وأرسل أسطولاً مكوناً من ستمائة سفينة تحمل ثلاثين ألف جندي[1]، ووصل هذا الأسطول إلى الإسكندرية، وحاصر الصليبيون المدينة بحراً ونزلت قواتهم إلى البر، ولكن أهل الإسكندرية تكاتفوا، وصمدوا، وحاربوا الصليبيين بكل ضراوة «ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم»[2] حتى أنزلوا الهزيمة بهم، وأغرقوا من سفنهم عدداً كثيراً[3]، وما لبث صلاح الدين الأيوبي أن توجه إلى الإسكندرية بقواته للدفاع عنها، والوقوف مع أهلها، وقد ساعده على التحرك الى الإسكندرية أنه قضى على المتآمرين حيث قبض على زعمائهم في القاهرة، وأمر بقتلهم، قبل وصول الصليبيين الى الإسكندرية بقليل، فلم تقم الثورة التي دبروها، وقد أدى فشل هذه المؤامرة، وهزيمة الصليبيين في الإسكندرية، وإغراق الكثير من سفنهم في مياهها، إلى إصابة عموري ملك بيت المقدس بصدمة أدت إلى وفاته في يوليو ١١٧٤م/ ٥٦٩هـ[4].

موت نور الدين محمود:

رأى نور الدين محمود فتور صلاح الدين فيما يأمره به من غزو الصليبيين، وعلم أن مصلحة صلاح الدين أن يظل هؤلاء الصليبيون حاجزاً فيما بينهما، ليمتنع بهم عن وصول نور الدين محمود إلى مصر، كما علم بتخوف صلاح الدين منه، ومن الاجتماع به، فأخذ يعد نفسه وقواته للخروج إلى مصر وأخذها من صلاح الدين، ولكن لحسن حظ صلاح الدين الأيوبي، وربما للعالم الإسلامي أن نور الدين محمود توفي في قلعة دمشق خلال تجهيز قواته في شوال سنة ٥٦٩هـ/ ١٥

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٨٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٤١٣، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص١٤ وما بعدها
(٣) أبو شامه: الروضتين، جـ٢ ص٢٣١.
(٤) عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٣٩.

مايو ١١٧٤م[1]، قبل أن تزداد العلاقات بين القائدين العظيمين سوءاً، وتنعكس آثارها على الجبهة الإسلامية المتحدة التي يعمل كل منهما لتحقيقها، لمواجهة الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، حـ٣ ص٩.

الفصل السادس عشر

صلاح الدين الأيوبي والجبهة الإسلامية

بعد موت نور الدين محمود ظهرت مشكلة تقسيم دولته بين ورثته وابنه الملك الصالح إسماعيل، الذي كان غلاماً في الحادية عشرة من عمره[1]، والذي أعطي ملك دمشق وحلب، فطمع فيه كبار القواد، كل يريد أن يسيطر عليه ليكون صاحب النفوذ والكلمة. كذلك تحرك سيف الدين غازي ابن عم الصالح إسماعيل، وكان على الموصل من قبل نور الدين محمود، فضم إلى ملكه نصيبين، والخابور، وحران، والرها وغيرها، وأعلن نفسه أميراً على الجزيرة، وأخذ يتطلع إلى ضم حلب إليه لتعود أتابكية الموصل كما كانت على عهد عماد الدين زنكي، وليضمن السيطرة على الصالح إسماعيل[2].

ظهر النزاع كذلك بين كبار قواد نور الدين محمود، وبين سيف الدين غازي في الموصل، وبينه وبين قواده في الشام، لميل بعضهم إلى صلاح الدين الأيوبي ورغبتهم في التعاون معه، ومعارضة أمير بعلبك شمس الدين محمد بن المقدم لهؤلاء، وانحيازه إلى الصليبيين وعقد الهدنة معهم. عندئذ رأى صلاح الدين ضرورة تحركه بقواته نحو دمشق، حيث دخلها بدون عناء سنة ٥٧٠هـ/ نوفمبر ١١٧٤م[3] ثم توجه إلى حمص فاستعصت عليه فتركها مؤقتاً، وزحف إلى حلب، وضرب عليها الحصار بقسم من قواته، وواصل زحفه بمن معه إلى حماة فاستولى عليها، وعاد منها إلى حلب مرة أخرى.

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١١، ص ٤٠٥

(٢) ابن الأثير نفسه، ص ٤٠٥.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ص ٤١٦-٤١٧.

استعان أهل حلب ومعهم كمشتكين الخادم نائب الملك الصالح إسماعيل على حلب بالإسماعيلية الباطنية، وبذلوا لهم أموالاً ليقتلوا صلاح الدين الأيوبي، ويخلصوهم منه، واستعانوا بالصليبيين في طرابلس، فخرج ريموند الثالث (الصنجيل) بقواته إلى حمص ليستولي عليها، ويقطع الطريق على صلاح الدين فلا يتمكن من العودة إلى جنوب الشام. ولم يكن خروج الصليبيين مساعدة لأهل حلب، فكما يقول المؤرخ اللاتيني وليم الصوري «إن كل ازدياد في قوة صلاح الدين يثير فينا الخوف والرعب. . . ومن الخير أن نبذل المساعدة للملك الطفل إسماعيل، لا مراعاة لصالحه، بل باعتباره عدواً لصلاح الدين»[1] وعلم صلاح الدين بهذه التحركات، فأسرع إلى حمص وضرب عليها الحصار بشدة حتى سقطت في يده واستولى عليها في شعبان ٥٧٠هـ/مارس ١١٧٥م، فعاد ريموند بقواته ولم يحقق شيئاً.

هذا النجاح الذي أصابه صلاح الدين الأيوبيّ أنزل الخوف في قلب سيف الدين غازي، صاحب الموصل والجزيرة، واعتقد أن الهدف الثاني لصلاح الدين هو الموصل نفسها، ولذلك جمع جيشاً كبيراً، وأرسل به إلى حلب بقيادة أخيه عز الدين مسعود.

واجتمعت جيوش الموصل وجيوش حلب وكانت تزيد على عشرين ألفاً، والتقى صلاح الدين الأيوبي بجيشه مع هذه الجيوش عند قرون حماه في سنة ٥٧٠هـ/ أواخر إبريل سنة ١١٧٥م وأحرز عليها النصر، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن تكون حلب وما يحيط بها للملك الصالح إسماعيل، وأن تكون الأجزاء الجنوبية من حلب لصلاح الدين الأيوبي.

لم يلبث أن تجدد القتال بين الفريقين في سنة ٥٧١هـ/ إبريل سنة ١١٧٦م في مكان يسمى تل السلطان بين حماه وحلب، وفي هذه المرة أنزل صلاح الدين الهزيمة بخصومه كذلك، وقتل منهم أعداداً وفيرة[2]، واستولى على مغانم كثيرة.

بدأ صلاح الدين في الاستيلاء على حلب، ومهد لهذا الأمر بالاستيلاء على

(١) William of Tyre, II P.21 Setton; A Hist. of Crus. I, chap. IV, P. 122.

(٢) المقريزي: السلوك جـ١ ق١ ص٦٠، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص٣٩.

ما حولها من حصون وقلاع حتى يضعفها، فاستولى على بزاغة، ومنبج، وأعزاز، وفي أثناء حصاره لأعزاز تمكن بعض الحشيشية للمرة الثانية من الوثوب عليه، وضربه على رأسه ضربة كادت تقتله لولا أنه كان يتقي نفسه بملابس الحرب (بيضة، وكزاغند، وغيرها) وقبض على الفداوية وتم قتلهم.

ضرب صلاح الدين الأيوبي الحصار على حلب، وبقي على حصارها حتى أهلت سنة٥٧٢هـ/ يونيو سنة ١١٧٦م، فلما اشتد الضيق بأهلها، رضخوا للصلح على أن تكون حلب وأعمالها للصالح إسماعيل بن نور الدين، وأن تكون بلاد الشام من مدينة حماه وما يليها جنوباً بالإضافة الى مصر لصلاح الدين.

ولم يكد صلاح الدين يفرغ من أمر حلب، حتى اتجه في يوليو الى الإسماعيلية الحشيشية في قلعتهم في مصياف، وترك لسيوف جنوده تعمل عملها في رقابهم حتى قضى على الكثير منهم، كما أنه هدم الكثير من حصونهم، ولولا تدخل شهاب الدين الحارمي، صاحب حماه، الذي تشفع لهم لاستغاثتهم به[1]، ما تركهم صلاح الدين إلا بعد القضاء عليهم، ثم عاد الى القاهرة في سبتمبر.

من هذا العرض التاريخي نستطيع أن نقف على طبيعة العلاقات السياسية بين أمراء الدول الإسلامية، وبينهم وبين الصليبيين فنجد أن صلاح الدين جابه صعوبات جمة في بلدان منطقة الشرق الأدنى لتحقيق الهدف الذي بدأه عماد الدين زنكي ثم تابعه فيه ابنه نور الدين محمود والذي أصبح تحقيقه واقعاً على عاتق صلاح الدين، ألا وهو تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة. وهو في سبيل ذلك يضطر إلى محاربة الداعين للانفصال في حلب، ولكنه يجابه بخطر الصليبيين فيرغم على عقد الصلح مع أهل حلب، ليتفرغ للصليبيين ليدرأ عن البلاد خطرهم الداهم حينما حاولوا قطع الطريق عليه وحاصروا حمص، ثم لا يلبث أن يعود الى مصر مسرعاً لحفظها من الوقوع في يد الفرنجة الذين نزلوا على الإسكندرية بأساطيلهم ولذلك أخذ صلاح الدين يعمل على تحصين مصر وحمايتها بعد أن تبين له أن الصليبيين **أشد طمعاً في مصر عن الشام والعراق**، اللذين أعمت المصالح الشخصية أهلها وحكامها عن رؤية هذا الخطر الصليبي على الوطن

---

(١) ابن واصل: مفرج جـ٢ ص٤٧.

العربي كله، خاصة وأن الصليبيين ودعاة الانفصال كانوا يحسبون حساباً كبيراً لاستيلاء صلاح الدين على مصر واستقلاله بها [1].

وعلى الرغم مما كابده صلاح الدين من هذه الصعوبات فقد نجح فعلاً في توحيد الجبهة الإسلامية بعد أن نظم أمور مصر الداخلية، واستقر بها سنوات ست قضاها كلها في التفكير في الموصل وحلب الى جانب ما كان يقوم به في مصر من تشييد للقلاع والحصون، وإقامة المدارس والمستشفيات.

ففي خلال فترة الإعداد واستكمال التحصينات اللازمة، التي قضاها صلاح الدين الأيوبي في مصر (من سنة ٥٧٢ ـ ٥٧٧هـ/ ١١٧٦ ـ ١١٨١م) واصل صلاح الدين مناوشاته الحربية ضد الصليبية، فأحرز بعض الانتصارات، وأصيب ببعض الهزائم، ففي سنة ٥٧٣هـ/ سنة ١١٧٧م خرج صلاح الدين بجيشه لمناوشة الصليبيين في جنوب الشام، وعندما وصل الى غزة وجد أن الفرسان الداوية كانوا قد استعدوا لمقدمه فاضطر الى تركها واتجه الى عسقلان، وعلى الرغم من قلة عدد المحاربين في مملكة بيت المقدس فقد خرج بلدوين الرابع مع قواته لملاقاة صلاح الدين، وتمكن صلاح الدين من حصار الصليبيين وبدأت همتهم في الفتور والضعف وعندئذ تشجع الأيوبيون وواصلوا هجومهم على اللد والرملة وبدأوا يحرزون بعض الانتصارات التي ألهتهم عن التشديد على حصار عسقلان، وينتهز بلدوين الفرصة ويخرج من حصاره، ويجمع قواته ويفاجئوا صلاح الدين عند تل الصافية بالقرب من الرملة وينزلون به الهزيمة ولكنه تمكن من النجاة، ويقع بعض الجند[2] المسلمين أسرى، ويقال أن أرناط صاحب حصن الكرك كان له الفضل في تقوية بلدوين لانضمامه اليه مما سهل عليهم إحراز هذا النصر.

عاد صلاح الدين بعد هذه الهزيمة الى مصر في جمادى سنة ٥٧٣هـ/ ديسمبر سنة ١١٧٧م، ورتب صفوفه ثم غادرها في سنة ٥٧٤هـ/ سنة ١١٧٨م واتجه الى الشام حيث تقابل مع الصليبيين عند حصن يقال له مخاضة الأحزان[3] أو

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢ ص٧٥٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حـ١١ ص٤٤٣.

(٣) يقع هذا الحصن بالقرب من بانياس، عند بيت يعقوب عليه السلام، وتعرف هذه المنطقة باسم مرج عيون: بروكلمان، ص٣٥٥.

(مرج عيون) وهناك نشبت معركة حامية سنة ٥٧٥هـ/ سنة ١١٧٩م حيث تمكن صلاح الـدين من الثأر لهزيمته السابقة ووقـع في يديه عدد كبير من أسـرى الصليبيين، في مقدمتهم قائد فرسان الداويةOtto of Saint Amand ، ومقدم فرسان الاستبارية[1] (فرسان القديس يوحنا)، وبعد أن استسلم الحصن أمر صلاح الدين بهدمه وإزالته من الوجود.

لم يمض وقت طويل بعد هذا النصر حتى ضعف البيت الأتابكي المناوىء لصلاح الدين، فقد توفي سيف الدين غازي، صاحب الموصل، سنة ٥٧٦هـ، ثم توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، صاحب حلب، سنة ٥٧٧هـ[2]، ونتج عن ذلك خلاف على الملك بين عز الدين مسعود الذي أصبح على الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي، وبين أخيه الأصغر عماد الدين زنكي الثاني، ووجد صلاح الدين أن هذا النزاع لن يمكنه من تحقيق هدفه في إخراج الجبهة الإسلامية المتحدة الى الوجود لمجابهة قوى الصليبيين بها، وفكر في تصفية الموقف مع البيت الأتابكي ولهذا قرر الخروج من مصر لإخضاع حلب والموصل وإدخالهما في طاعته.

وكان الذي دفعه الى هذا هو أن ريجنال دي شاتيون (أرناط)، صاحب الكرك، وهو من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين، كان قدجهز عساكره في تلك الفترة المضطربة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) يريد المسير بهم إلى تيماء، ومنهـا الى مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتخريبها، ولكن الأمير فرخ شاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق، جمع عساكره، وهاجم الكرك، وخرب أرباضه، وأقام في أطراف المدينة ليمنع خروج ريجنال، الذي أدرك إصرار المسلمين على البقاء حتى تتفرق عساكره، فرجع عن عزمه وصرف جنده[3].

خرج صلاح الدين الأيوبي من مصر في المحرم سنة ٥٧٨هـ/ مايو ١١٨٢م، وكان آخر عهده بها، فوصل إلى الشوبك والكرك فأغار عليهما، فتحصن

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٤٥٥ وكذلك Runciman, op, cit II P. 418

(٢) ابن الأثير: نفسه، ص٤٧٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص ١٠٢.

الصليبيون بداخلهما، فتركهما وواصل مسيره حتى دخل دمشق. ثم حرج منها في ربيع الأول وعسكر في الأقحوانة بشرق الأردن، ووصل الصليبيون فعسكروا بطبرية على مقربة منه، فأرسل صلاح الدين ابن اخيه فرخ شاه مع بعض قواته إلى بيسان، فدخلها قهراً، واستولى عليها[1].

سار صلاح الدين الى الرها فحصرها في حمادى الأولى، وشدد عليها الحصار، فأذعن حاكمها فخر الدين مسعود بن الزعفراني وسلمها إلى صلاح الدين، ولم يلبث صلاح الدين أن ضم إليه حران والرقة والخابور، وسنجار ونصيبين[2].

كان هدف صلاح الدين من الاستيلاء على هذه المدن الواقعة في إقليم الجزيرة، هو تضييق الخناق على عز الدين مسعود في الموصل، ليستكمل كيان الجبهة الإسلامية المتحدة، حتى لا تكون الموصل منفذاً للصليبيين إذا لم تندمج مع باقي بلدان المنطقة تحت نفوذ صلاح الدين، ثم إن انضمامها (الموصل) يزيد من قوة المسلمين في التصدي للقوى الصليبية.

طلب صلاح الدين من الخليفة العباسي في بغداد أن يمنحه تقليداً بالموصل، ولكن الحليفة بعث إليه تقليداً بإمارة آمد (ديار بكر)، الأمر الذي اعتبره بعض المؤرخين[3] عقبة كؤود وضعها الخليفة العباسي أمام توحيد كلمة المسلمين.

عاد صلاح الدين إلى حلب، فاستولى على معاقلها الأمامية وهي آمد، وتل خالد، وعينتاب[4] في ٥٧٩هـ/ يونيه ١١٨٣م، ثم ضرب الحصار على حلب، فسلمها إليه أميرها عماد الدين زنكي الثاني[5]، في مقابل سنجار، فوافق صلاح

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٦٢. ابن الأثير: الكامل حـ ١١، ص ٤٨١.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ص١١٥ وما بعدها وكذلك Wiet, op, cit, P. 319

(٣) العريني الأيوبيون، ص ٦٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٤٩٥.

(٥) هو عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي؛ ابن الأثير. نفسه جـ ١١ ص ٤٩٦.

الدين[1]، وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج، واشترط عليه أن يمده بالجنود لمواصلة الجهاد. ولم يلبث أهالي حارم أن سلموا مدينتهم إلى صلاح الدين، بعد أن أطاحوا بأميرهم لأنه طلب مساعدة الصليبيين في أنطاكيا، وبذلك استقر لصلاح الدين أمر حلب وأطرافها، فعين عليها ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي نائباً عنه[2]. وقد ترتب على سقوط حلب في يد صلاح الدين أن قوي مركزه، وأضحت الجبهة الإسلامية المتحدة، التي أسسها عماد الدين زنكي، ورعاها ونماها من بعده ابنه نور الدين محمود، والتي وقع على عاتق صلاح الدين الأيوبي أن يصل بها إلى نهاية الطريق، أضحت هذه الجبهة أكثر تماسكاً من قبل، واشتدت مخاوف الصليبيين خاصة بعدما نشط الأسطول المصري فيما بين سنتي ١١٨٣/ ١١٨٤م، فالتمس ريموند الصنجيلي أمير طرابلس، والذى كان يعيش في طبرية باعتبارها من أملاك زوجته أرملة الحاكم السابق لطبرية، من صلاح الدين عقد الهدنة بينهما، ووافق صلاح الدين لأن هذه الهدنة ستحمي ظهر قواته، فلا تتعرض لإغارات الصليبيين من الشمال، وتجعله يتفرغ لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية ومن ناحية أخرى أراد صلاح الدين أن يعزل الصليبيين في شمال الشام حتى لا يساعدوا صليبيي فلسطين، وبذلك عقدت الهدنة لمدة أربع سنوات[3]، (١١٨٥ - ١١٨٩م).

في خلال تلك الفترة جرت اتصالات بين عز الدين مسعود، أمير الموصل، وبين صلاح الدين لإنهاء مشكلة الموصل، ولكن هذه الاتصالات باءت بالفشل. واضطر صلاح الدين إلى أن يحشد قوّاته في صفر ٥٨٢هـ/ مايو ١١٨٥م وخرج بها يريد الموصل، وأرسل صلاح الدين الى الخليفة العباسي في بغداد يخطره بما عزم عليه من منازلة أمير الموصل وأهلها، ويشرح له أنهم يراسلون الصليبيين ويحرضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين، وأنه لم يأت رغبة في زيادة ملكه، أو

(١) يذكر ابن العديم (زبدة الحلب، جـ٣ ص٥٦) أن عماد الدين قال لصلاح الدين: امض إلى سنجار وخذها وادفعها إليّ أعطيك حلب، والحقيقة أن صلاح الدين كان قد استولى على سنجار في العام السابق.

(٢) أبو شامه، الروضتين، جـ٢ ص٤٢ وما بعدها.

(٣) Wiet, op. cit, P. 320

التخلص من البيت الزنكي، وإنما قصد أن يردهم الى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام.

نزل صلاح الدين بقواته بالقرب من الموصل حتى تنقضي فترة الشتاء، ولكن عماد الدين زنكي الثاني، صاحب سنجار، توسط بين صلاح الدين، وعز الدين مسعود، وتم الصلح بين الجانبين في ذي الحجة ٥٨١هـ/ مارس ١١٨٦م، وبذلك دخلت الموصل في نفوذ صلاح الدين، الذي عاد إلى دمشق في مايو، وقد حقق اكتمال تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة بين العراق والشام ومصر. وأخذ يعد العدة لتحقيق حلمه الكبير، ألا وهو إعلان الجهاد الأكبر ضد الصليبيين لطردهم من بلاد المسلمين، التي سيطروا عليها في فترة ضعف الدول الإسلامية.

الفصل السابع عشر

جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين

تعتبر الفترة التي تولى فيها صلاح الدين الأيوبي مسئولية الجهاد ضد الصليبيين من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية، وبالتالي أهم مراحل تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، لأن الجبهة الإسلامية الموحدة لم تصبح حقيقة واقعة إلا على يد صلاح الدين، ولذلك أصبح لزاماً عليه أن يضع الخطة العامة لطرد الصليبيين من بلدان المشرق الإسلامي.

حقيقة أن صلاح الدين لم يغفل أمر قتال الصليبيين في فترة التكوين والإعداد، ولكنه لم يشن عليهم حرباً شاملة، بل اكتفى بتوجيه ضربات مؤلمة في قواتهم، وبذلك أوقف - إلى حد ما - اعتداءاتهم المتكررة على المدن الإسلامية. ولكن بمجرد أن أتم الإستعدادات وأقام التحصينات أخذ يستنفر المسلمين للجهاد في مستهل سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، فتواقدوا عليه آلافاً من الموصل، والجزيرة وإربل وغيرها من بلاد العراق، ومن مصر والشام. وأدرك الصليبيون أن صلاح الدين لا بد وأنه متخذ الخطوة الحاسمة لمواجهتهم، وتوجيه ضربة قاسية لهم، بعد أن أصبحت هذه القوة الاقتصادية، والأعداد البشرية، والمواقع الاستراتيجية كلها تحت يده. لا سيما وأنه تفرغ تماماً لأمر الحرب، منذ أن عين ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي نائباً عنه في حكم حلب.

الحالة التي كانت عليها الإمارات الصليبية:

كانت الإمارات الصليبية في تلك الفترة آخذة في الضعف، بسبب قلة التعاون فيما بينها، وما أصاب الأمراء الصليبيين من حقد وتنافس وزيادة شقة

الاختلاف فيما بينهم، خاصة فيما بين بوهيمند وريموند، وبلدوين الأول، وداجوبرت. . . الخ، ثم لعبت مشكلة الوراثة في مملكة بيت المقدس دورها الخطير، وزادت من انقسام الجبهة الصليبية، فبعدما توفي الملك عموري (إملريك Emleric) خلفه ابنه بلدوين الرابع Baldwin IV سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، وكان طفلاً مريضاً بالجزام والبرص، فتولى الوصاية عليه ريموند، أمير طرابلس[١]، وكان أكفأ الحكام الصليبيين، وكان لبلدوين الرابع أخت جميلة هي سيبيلا Sibylla وهي الابنة الكبرى لعموري، كانت قد تزوجت وليم مونتفرات (همفري الرابع)، الذي توفي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، بعد أن أنجب منها بلدوين الخامس. ثم تزوجت سيبيلا للمرة الثانية من فارس فرنسي وسيم هو جاي دي لوزجنان سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، وقد أصبح هذا المغامر الفرنسي وصياً على مملكة بيت المقدس بحكم زواجه من سيبيلا ولأن ابنها بلدوين الخامس كان صغيراً، ولكن لم يلبث أن توفي بلدوين الخامس وأصبح لوزجنان ملكاً سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م[٢]، ويعتبر هذا التتويج انتهاكاً للوعد الذي قطعه لوزجنان على نفسه لريموند، صاحب طرابلس، «بأنه في حالة وفاة بلدوين الخامس، دون أن يترك وريثاً، لا يقرر ولاية الحكم إلا البابا، والامبراطور، وملكا انجلترا وفرنسا»[٣]. وقد ترتب على زواج سيبيلا بلوزجنان أن زاد الانقسام في الجبهة الصليبية، وأصبح هناك معسكران (جبهتان)، جبهة تضم سيبيلا وزوجها جاي دي لوزجنان ومن معهما من الصليبيين وهؤلاء يرون المبادرة بحرب صلاح الدين والمسلمين. بينما الجبهة الثانية التي تضم ريموند ومن معه يؤثرون السياسة السلمية نظراً لإحساسهم بالضعف الذي أصابهم جميعاً، والانقسام الذي أصبح ظاهراً في مجتمعهم، لدرجة أن ريموند راسل صلاح الدين الأيوبي، «وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج»[٤] ووافقه جموع من الصليبيين فاختلفت كلمتهم، وتفرق شملهم، وكان ذلك من

---

(١) باركر، الحروب الصليبية، ص ٨٠.
(٢) ابن الأثير. نفسه، ص ٥٢٧ ويسميه (كي).
(٣) باركر، نفسه، ص٨١-٨٢.
(٤) ابن الأثير. الكامل جـ ١١ ص ٥٢٧.

الأسباب التي ساعدت المسلمين على استنقاذ بيت المقدس منهم ولذلك يرجع جمهرة من المؤرخين حالة السوء التي أحاطت بمملكة بيت المقدس إلى سببين:

الأول: ما نجم عن الحق الوراثي من الضعف، أي شيوع تعدد زواج الوريثات لمملكة بيت المقدس. وانتقال الملك إلى هؤلاء الأزواج (المغامرين) وما ترتب على ذلك من تداخل واختلاط في حقوق الوراثة. وإن زواج سيبيلا من لوزحنان هو الذي قرر المصير المحتوم للمملكة الصليبية.

الثاني: نظام الانتخاب في الإمارات الصليبية وما ترتب عليه من أحقاد، وزيادة المنازعات بين الأسر الحاكمة[1].

وقد بلغت حالة الاضطراب في الإمارات الصليبية إلى دعوة بعض ملوك الغرب الأوروبي ليتولوا شئون المملكة الصليبية في فلسطين، ففي سنة ١١٨٤-١١٨٥م وصلت إلى فرنسا وانجلترا سفارة اشترك فيها بطريرك بيت المقدس، ومقدم الداوية، ومقدم الاستبارية، وعرضوا تاج مملكة بيت المقدس على فيليب أغسطس، ملك فرنسا، وهنري الثاني (الأنجوي) ملك انجلترا، كي يضمنوا قدومهم إلى الأراضي المقدسة. ورفض كل من الملكين هذا العرض. ويعتبر هنري الثاني هو الوريث الطبيعي لمملكة بيت المقدس عند انقراض سلالة فولك، ويرى المؤرخ الانجليزي (باركر) أن تدخل ريتشارد الأول «قلب الأسد» في الحملة الصليبية الثالثة كان نابعاً من هذا الاتجاه[2].

هذا الضعف والارتباك الذي أصاب الجبهة الصليبية، كان يقابله في الجبهة الإسلامية ازدياد قوتها، والتفاف الأمراء حول قيادة صلاح الدين، فقد أفاق المسلمون من هول الضربة التي أنزلها الصليبيون بهم، وأحسوا بالنكبة الخطيرة، فهبوا من سباتهم ينفضون غبار الهزيمة والفرقة عنهم، ويعملون لاستعادة ما فقدوه، وتكتلوا في جبهة موحدة سواء كانوا من الغرب أو التركمان أو الأكراد أو الدروز. . . ولم يشذ عنهم إلا بعض طائفة الإسماعيلية الموجودين على سواحل شرقي البحر

---

(١) باركر: الحروب الصليبية، ص ٧٠.

(٢) باركر: نفسه، ص ٨١، حاشية رقم (٤١).

الأبيض المتوسط، الذين كانوا يعملون لتكوين دولة خاصة بهم[1]، حتى ولو استعانوا في تحقيق ذلك بالصليبيين أنفسهم.

وقد ساعد المسلمين في الإحساس باشتداد بأسهم عدة عوامل من أهمها الشعور الوطني عندهم بأن هذه الإمارات الصليبية أجزاء من أرضهم، ومدن من بلدانهم، وأن للقدس منزلة دينية خاصة في نفوسهم، وبقاءه في أيدي الصليبيين عار ومذلة وهوان للمسلمين، ولا بد من استرداده من أيديهم، ثم إن الهزائم التي أصابت المسلمين في بدء الحروب الصليبية أثارت حميتهم، وتركت في نفوسهم مرارة لا بد أن تزول عن طريق غسلها بإحراز نصر حاسم على الصليبيين. ولعب العامل الاقتصادي دوره، فموارد الإمدادات والتموين متوفرة لدى القوات الإسلامية، ميسور الحصول عليها، بينما الصليبيون يعتمدون في تموينهم وإمداداتهم على المساعدات الخارجية التي تأتيهم مع الغرب الأوروبي، ثم إن المسلمين يحيطون بالإمارات الصليبية من كل جانب، فكانت هذه الإمارات كالجزر المتناثرة في محيط من المدن الإسلامية، وقد أصبحت هذه المدن على درجة كبيرة من القوة والمنعة بعد نجاح صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية التي كان يهدف إليها، ثم إن عامل الحروب التي خاضها الصليبيون، والتي واجهتهم في هذه المنطقة بدأت تنهك من قواهم وتضعفهم، كما أنهم فقدوا الحماس الديني الذي دفعهم بجانب العوامل الاجتماعية والاقتصادية إلى القدوم إلى المشرق الإسلامي فقلت أعداد الصليبيين المستوطنين في هذه الإمارات.

وفي تلك الفترة ظهر على مسرح الأحداث مغامر فرنسي اخر، كانت حماقته هي السبب المباشر في القضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية، هو أرناط (ريجنال دي شاتيون)، حاكم الكرك، وكان نور الدين محمود قد أسره، وظل محبوساً في الأسر من ٥٥٤هـ - ٥٧٢هـ/ ١١٥٩ - ١١٧٦م[2] وقد تزوج أرناط أرملة الحاكم السابق لحصن الكرك وتدعى كونستانس Entionnette de Milly

(١) كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، حـ١ ص٣٠١.
(٢) باركر: الحروب الصليبية، ص ٨٢.

وكان أرناط قائداً شجاعاً، ولكنه اشتهر بالغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود والوعود، وكان يميل إلى إشعال نار الحرب ضد المسلمين، ففي سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م انتهك أرناط الهدنة المبرمة بين المسلمين والصليبيين، بأن تعرض للقوافل التجارية القادمة من مصر والشام، والتي كانت تمر بالقرب من إمارته، فتوترت العلاقات بين الفريقين. وقد دفع الجنون والحماقة أرناط هذا بأن حاول مهاجمة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة مرتين، الأولى سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م وقد تصدى له فرخ شاه نائب صلاح الدين على دمشق ـ كما سبق الإشارة ـ وفي المرة الثانية سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م حيث حمل سفناً مفككة على ظهور الجمال، وقام بتركيبها على ساحل البحر الأحمر، وملأها بالمقاتلين وآلات الحرب، ثم أرسل سفينة إلى أيله (إيلات) ليمنع أهلها من الورود إلى المياه ليموتوا عطشاً، وأبحر هو ببقية السفن إلى عيذاب حيث قطعوا طريق التجارة، وخربوا، ونهبوا، وقتلوا، وأسروا، ثم واصلوا الإبحار متجهين إلى ساحل الحجاز، وكانت مباغتة لأهالي مدن سواحل البحر الأحمر، لأنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط، ولا محارباً[1]، وقد بلغت وقاحة أرناط وانحطاطه الخلقي أن تطاول على مقام الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) فلما علم صلاح الدين بما قاله هذا السفيه، ثارت نفسه، وأقسم ليقتلنه بيده إن هو ظفر به.

وما كادت هذه الأخبار تصل الى مصر، حتى خرج أسطولها الراسي في خليج السويس، بقيادة حسام الدين لؤلؤ، فانقض على السفينة الراسية أمام أيله وقتل بحارتها وأحرقها؛ ثم أبحر بالأسطول الى عيذاب، وأدرك السفن الصليبية في طريقها إلى الحجاز، على مسافة يوم من المدينة المنورة[2]، فأخذ المسلمون يطاردون الصليبيين حتى أوقعوا بهم وبأسطولهم، وفكوا أسر التجار المسلمين، وقبضوا على الصليبيين أسرى، وساقوا جموعاً منهم وذبحوهم في منى ليكونوا عبرة لغيرهم ممن تحدثهم نفوسهم بالتعدي على حرمات المسلمين المقدسة، ورجعوا

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٤٩٠.

(٢) أبو شامه: الروضتين، جـ٢ ص٣٥-٣٦.

بجموع أخرى، حيث تم إرسالهم إلى بعض المدن الإسلامية، فضربت أعناقهم بها[1].

موقعة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م:

تكتلت رؤوس الصليبيين على ريموند الثالث، أمير طرابلس، وهددوه بسبب مهادنته لصلاح الدين، وعقد الهدنة معه، وأعادوه إلى صفوفهم مرة أخرى، وتجمعوا جميعاً وخرجوا إلى صفورية[2]، وكانوا أكثر من عشرين ألفاً، وأراد صلاح الدين مواجهة هذه الحشود الصليبية بما عنده من حشود المسلمين، وأشار عليه بعض قواده الاكتفاء بمواصلة الإغارات على مدنهم، ونهبها، وتخريبها، وسبي النساء والدراري، أي ما يشبه حرب العصابات حتى يقلقوا الصليبيين، ويحطموا روحهم المعنوية، ويضطروهم الى الإذعان، ولكن القائد المسلم صلاح الدين رد على هذا الرأي بتعبيره الصادق: «إن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع (يقصد حشود المسلمين) إلا بعد الحد بالجهاد»[3].

أطلق صلاح الدين كل ما في حوزته من قوة احتجزها عن القتال زمناً طويلاً، حتى تهيأت له الفرصة لهجوم شامل، فما أشعله الصليبيون من حروب صليبية، رد المسلمون عليه، آخر الأمر، بالجهاد الديني، وبذلك بدأت حرب دينية جديدة تجتاح مملكة الصليبيين[4]، الذين فقدوا الروح المعنوية والحماس الصليبي، بينما صار لجيش صلاح الدين سنة ١١٨٧م من الروح المعنوية العالية، والحماس الديني المتدفق، أكثر بكثير مما كان عند الصليبيين في بداية الحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م.

علم صلاح الدين بخروج الحشد الصليبي الكبير ونزوله في صفورية فأرسل حشداً من جنوده الذين التقوا بقوة من الفرسان الاستبارية فأبادوها عن

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص٥٨ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، جـ٥ ص٣٠٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ١١ ص ٥٣٢ - ٥٣٣.

(٤) باركر: الحروب الصليبية، ص ٨٢ - ٨٣.

آخرها، وكان معهم مقدم الاستبارية. ولم يستشهد من المسلمين أحد ثم خرج على رأس قسم من الحشود الإسلامية الضخمة إلى طبرية في اواخر ربيع الثاني ٥٨٣هـ/ يوليه ١١٨٧م ودخلوا طبرية واستولوا عليها في ليلة واحدة، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة[١]. وكانت خطة صلاح الدين من الزحف على طبرية هي أن يجبر الصليبيين على السير إليه في هذا الحر الشديد فينهك بذلك قوتهم، وتتمكن القوات الإسلامية من هزيمتهم وهم متعبين، ونجحت الخطة فعلاً، وتصل جيوش الصليبيين بعد أن تنضم اليها فرسان الداوية وفرسان الاستبارية، وهم على أسوأ حال من العطش والإنهاك.

عندما وصلت أخبار سقوط طبرية في أيدي صلاح الدين، اجتمع قادة الصليبيون وانقسموا على أنفسهم[٢]، فكان من رأي ريموند الثالث Raymond III، صاحب طرابلس، أن يبقى الصليبيون في صفورية إلى أن تأتي إليهم جيوش صلاح الدين، وهي متعبة ومنهكة من هذه المسافة الصحراوية الطويلة بين طبرية وصفورية، وبذلك يسهل الانتصار عليها، وكان مصيباً في رأيه، «نفس الخطة التي اتخذها صلاح الدين». وكان من رأي الفريق الآخر بزعامة أرناط، صاحب الكرك، وكان متهوراً مندفعاً، وقد انضم إليه مقدم الداوية جيرار دي ردفورت Gyrar de Redfort، وكانوا متلهفين على الحرب قبل أن تتزايد قوات صلاح الدين، وانضم إليهما كذلك الملك جاي دي لوزجنان Gay de Losejenane وبذلك تقرر الزحف من صفورية إلى طبرية، وتقدموا فعلاً إلى أن وصلوا إلى حطين[٣].

نزل صلاح الدين وقواته على أماكن المياه، حتى يمنعوه عن الصليبيين، ونجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً، وبدأت المعركة، ودارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأحاطت ظروف عصيبة بالصليبيين الذين كانوا يحاربون على شدة شديدة من جهد العطش، وجهد الحر والحرارة التي تنبعث من كل مكان، من الجو، ومن الأرض، ومن أجسامهم، لأن الفارس الصليبي كان مثقلاً بالعدة والعتاد، وهذه

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، حـ٢ ص١٨٨، وكذلك Runciman; op, cit, II P.455
(٢) راجع ما ذكره ابن خلدون في هذا الصدد (تاريخ، جـ٥ ص٣٠٦).
(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، حـ٢ ص١٩٠، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٥٦.

كلها مصنوعة من المعادن، فتنعكس عليها أشعة الشمس الشديدة في يوليو فتحمل الجندي في أتون الجحيم. ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل أمر بإشعال النار في الحشائش المحيطة بأرض المعركة، وحملت الرياح ـ وكانت في اتجاهها على الصليبيين ـ حر النار والدخان إليهم، فأطبق عليهم شدة حرارة الجو، ولهيب النار والدخان، وعدم وجود مياه للشرب مما أصابهم بالإنهاك والإعياء. في هذه الظروف العصيبة ضيق صلاح الدين الخناق على أعدائه الصليبيين فضربت القوات الإسلامية عليهم حصاراً تاماً، وسدت عليهم كل منافذ الهرب، ورمى حملة النشاب نشابهم على الصليبيين، فكانت تخرج كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيولهم وجنودهم أعداداً كثيرة[1].

حاول ريموند الثالث، أمير طرابلس، أن يفك دائرة هذا الحصار، ويخرج بقواته ليشغل بها القوات الإسلامية من الخلف، وأحس تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ابن أخي صلاح الدين) بحركة ريموند، الذي اندفع بقواته في القتال كالمحموم، فلجأ تقي الدين إلى الخديعة العسكرية، والتمويه الحربي، وأمر من معه من الجنود أن يفتحوا ثغرة لهؤلاء الصليبيين، ليخرجوا من ساحة القتال، ويتظاهروا بخلخلة الحصار، واندفع ريموند وقواته فعلاً من خلال هذه الثغرة مكروبين، وما كادوا يخرجون حتى التأمت دائرة الحصار ثانية، وبذلك عزل ريموند وقواته عن الحشود الصليبية، واضطر إلى العودة الى إمارته طرابلس، وبذلك ازدادات القوات الصليبية ضعفاً فوق ضعفها، خاصة وأن ريموند لم يلبث أن مات بعد قليل.

استمر القتال عنيفاً، والصليبيون يحاربون بضراوة اليائس من الحياة، والمسلمون يعملون فيهم القتل[2]، ويمسكون بالعديد من الأسرى، ووقع صليبهم المقدس (صليب الصلبوت) في أيدي بعض المسلمين، فحملوه الى صلاح الدين، واستمرت الهجمات بين الفريقين، والقتلى تزداد في كل هجمة من

(١) ابن الأثير الكامل، حـ١١ ص ٥٣٥.

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القسي، ص٢٣.

الهجمات، والشهداء من المسلمين يتساقطون حتى كتب الله النصر للمسلمين، ووقع أرناط، صاحب الكرك، عدو المسلمين اللدود، في الأسر، ووقع معه ملك بيت المقدس جاي دي لوزجنان، وأخوه، ومقدم الداوية جيرار وجموع من فرسانه، وجموع من الاستبارية كذلك أسرى. وقد عبر ابن الأثير[1] عن هول هذه المعركة وضراوتها بقوله: «. . . وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أن هناك أسرى، ومن يرى الأسرى لا يظن أن هناك قتلى». وقد مرّ ابن الأثير بمكان الموقعة بعد سنة، فرأى الأرض ملأى بعظامهم، ترى من بعيد لكثرتها، منها المجتمع بعضه على بعض، ومنها المفترق، سوى ما جرفته السيول، وأكلته السباع في تلك الآكام والوهاد وقد أطلق صلاح الدين سراح عدد كبير من الأسرى الفرسان مقابل تسليمهم ما بأيديهم من القلاع والحصون والمدن، أما الأسرى من الجنود، فقد باعهم جند المسلمين رقيقاً، فكان كل ثلاثين أو أربعين أسيراً منهم يربطون بحبل واحد، حيث ترخرف أسواق الرقيق في سوريا بهم[2].

أمر صلاح الدين بضرب خيمة فسيمة له، حيث سجد لله شكراً على هذا النصر الحاسم وطلب إحضار ملك الصليبيين وأمرائهم ومقدميهم، فأحسن استقبال الملك جاي دي لوزجنان وأجلسه إلى جانبه، وأمر أرناط (ريجنالد دي شاتيون) أعدى أعداء المسلمين، أن يجلس إلى جانب جاي، وطلب الملك قليلاً من الماء يروي به ظمأه، فأمر صلاح الدين بتقديم الماء المثلج له، فشرب منه، ثم قدم ما بقي إلى أرناط، فقال صلاح الدين: إن هذا شرب الماء بغير إذن مني، ومعنى هذا أنه لم يعطه الأمان، لأن صلاح الدين كان قد نذر ليقتلنه بيده إن التقى به جزاء غدره وخيانته وتطاوله على مقام الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم). ومع كل هذا كان صلاح الدين كريماً مع أرناط، فقد عرض عليه الإسلام ليعفو عنه، ولكنه رفض، فتقدم صلاح الدين منه وضربه بسيفه ضربة أطاحت كتفه، وأجهز الجنود عليه. عند ذلك ارتعدت فرائص الملك جاي، وظن أنه ملاق حتفه هو الآخر لا محالة. ولكن صلاح الدين هدأ من روعه. وقال له: لم تجر عادة الملوك

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ٥٣٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢ ص ١٩٢، Baldwin: Raymond III, P.614 .

أن يقتلوا الملوك، ولكن هذا خرج عن حده فاستحق ما جرى عليه، ثم بعث صلاح الدين بالملك جاي، ومن معه من الأسرى من كبار الصليبيين إلى دمشق للتحفظ عليهم.

وفي اليوم التالي لموقعة حطين، توجه صلاح الدين بقسم من قواته إلى طبريه فأرسلت صاحبتها، زوجة ريموند الثالث، تطلب الأمان لها ولأولادها[1]، مقابل تسليم الحصن، والمدينة، فأجابها صلاح الدين إلى ما طلبت، فخرجت بكل أموالها الى طرابلس.

الاستيلاء على المدن الساحلية:

لا شك أن موقعة حطين كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية، لأن الصليبيين هزموا هزيمة منكرة، وأصيبوا بضربة قاصمة لن يفيقوا منها، فقد فقدوا جُلَّ فرسانهم ومقدميهم ومقاتليهم، وسيكون لهذا تأثيره المباشر على سير الأحداث في مملكة الصليبيين، نظراً لأن مدنهم أصبحت شبه خاوية ممن يدافعون عنها.

نزل صلاح الدين بقواته على عكا، فاستسلم أهلها بمجرد رؤيتهم لجيش صلاح الدين وطلبوا السماح لهم بالرحيل، فوافقهم صلاح الدين على ما طلبوا، فخرجوا من المدينة متفرقين، وحملوا ما قدروا عليه من أموال، فدخلها المسلمون يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ٨يوليه ١١٨٧م، وصلّوا بها في جامع قديم كان للمسلمين[2]، حوله الصليبيون إلى كنيسة لهم، فأعاده صلاح الدين إلى ما كان عليه. ثم استولى صلاح الدين على جميع ممتلكات الداوية وأعطاه للفقيه عيسى الهكاري، تأديباً لهم لانضمامهم إلى أرناط والملك جاي دي لوزجنان في الحرب ضد المسلمين كما وزع صلاح الدين كل ما غنمه في عكا، وكان لا يحصى ولا يعد، على قواد جيشه وفرسانه، ومكث بها بعض الوقت ليدبر شئونها.

ومن عكا أرسل صلاح الدين فرقاً من قواته لفتح مدن الناصرة، وقيسارية،

---

(١) ابن خلدون: تاريخ، جـ٥ ص٣٠٧.
(٢) ابن خلدون: نفسه.

وحيفا، وصفورية، ومعليا، والشقيف، والفولة، وكلها مجاورة لمدينة عكا[1] وتحيط بها، وتمكنت هذه القوات من امتلاك هذه المدن كلها بسهولة. كما بعث حسام الدين عمر بن لاجين على رأس قوة إلى نابلس، فدخلها وتسلم قلعتها، وأقر أهلها على أملاكهم وأموالهم[2].

وفي نفس الوقت أرسل الى أخيه الملك العادل بمصر يبلغه خبر انتصارات المسلمين في حطين، ويأمره بمهاجمة مراكز الصليبيين في جنوب فلسطين، القريبة من مصر، فخرج الملك العادل بقوات مصر وضرب الحصار على حصن مجدليابه، وغنم ما فيه، ومنه اتجه إلى يافا، على الساحل، ففتحها عنوة وملكها، وأسر رجالها، وسبى نساءها، وأخرجهم يهيمون على وجوههم في المدن الأخرى[3].

وكذلك أرسل ابن أخيه تقي الدين عمر إلى تبْنين، فنزل عليها بجنوده، وقطع الميرة عنها وعن صور، ولكنه لم يتمكن من فتحها. فخرج صلاح الدين بقواته إليها في جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وضيق على أهلها الحصار، فأطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين، وكانوا أكثر من مائة رجل، فأمر صلاح الدين لهم بمال وكسوة، وصرفهم إلى أهليهم. ثم طلب أهل الحصن الأمان، فأجابهم صلاح الدين إلى ما طلبوا، وخرجوا منه، وامتلكه المسلمون. ثم توجه بقواته الى صيدا، وفي طريقه إليها استولى على صرخد بدون قتال. فلما قرب من صيدا، رحل أميرها وأهلها عنها وتركوها خالية، فدخلها صلاح الدين، ووضع فيها من يسكنها ويدافع عنها، ثم انطلق صوب بيروت، فوجد أهلها قد امتنعوا فوق أسوارها، وأعدوا أنفسهم للقتال، وظنوا أن حصانة بيروت ستحول دون سقوطها في أيدي المسلمين، الذين هاجموا المدينة مرة بعد أخرى، وهي صامدة، فلجأ صلاح الدين إلى الحرب النفسية ليصيب نفوس الصليبيين بالخوف والوهن،

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢ ص٢٠٢

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١١ ص٥٤٠، وابن خلدون: تاريخ، جـ٥ ص٣٠٨.

(٣) راجع ما ذكره ابن الأثير في هذا الصدد بتفصيل (المرجع نفسه، ص٥٤١).

وبعث من أشاع في المدينة أن المسلمين دخلوا البلد قهراً من الناحية الأخرى، فاضطرب أهلها، وتفرقوا من على أسوارها، ووقع الخوف في قلوبهم، فطلبوا الأمان، فأمنهم صلاح الدين، وتسلم المدينة منهم في التاسع والعشرين من جمادى الأولى (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، بعد حصار دام ثمانية أيام[١].

عرض صاحب جبيل، وكان ضمن الأسرى في دمشق، على نائب صلاح الدين أن يسلم المدينة وحصنها إلى صلاح الدين، مقابل الإفراج عنه، وأخطر صلاح الدين وهو على بيروت، فوافق واستلم جبيل وحصنها، وفك أسر أميرها الصليبي.

فتح عسقلان:

ترك صلاح الدين مدينة صور وثغرها مؤقتاً لمناعتها، ولتأكده من أن حصارها سوف يستغرق وقتاً طويلاً، وتوجه إلى عسقلان، وكان قد كتب لأخيه الملك العادل أن يلتقي به وبجيش مصر على عسقلان، وضربت الجيوش الإسلامية حصارها على المدينة يوم الأحد سادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وامتنع أهلها عن التسليم، وأصروا على المقاومة، ومع أن صلاح الدين شدد هجماته على المدينة، ونصب المجانيق عليها، وكرر هجماته عليها إلا أنها بقيت تقاوم.

استعان صلاح الدين بالملك جاي دي لوزجنان، ومقدم الداوية ووعدهما بإطلاق سراحهما إن هما أقنعا أهل عسقلان بتسليم المدينة، ويبدو أن أهل عسقلان رأوا ازدياد ضعفهم، وتناقص أعدادهم، لأنهم إذا قتل منهم رجل لا يجدون له عوضاً، ويئسوا من وصول نجدة لهم بعد أن سقطت المدن الأخرى في يد صلاح الدين، فاضطروا الى قبول نصيحة جاي دي لوزجنان، ومقدم الداوية، ولكنهم اشترطوا على صلاح الدين بعض الشروط، فقبلها[٢]، واستلم المدينة منهم. ولم تلبث كل معاقل وحصون الفرسان الداوية أن أذعنت، فاستسلمت

(١) ابن خلدون. تاريخ، حـ ٥ ص ٣٠٨

(٢) ابن الأثير. الكامل، حـ ١١ ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

الرملة، والداروم، (البطرون)، وغزة، وبيت لحم، وبيت جبريل. وبذلك استولى صلاح الدين على جميع مراكز الصليبيين الداخلية والساحلية في الجنوب ما عدا صور على الساحل، والشوبك والكرك جنوب بحيرة طبريا إذ بقي هذان الحصنان وحصون كوكب وصفد وشقيف أرنون على المقاومة[1].

فتح بيت المقدس

أرسل صلاح الدين الأيوبي، وهو على عسقلان، أوامره للأسطول المصري أن يبحر بجميع وحداته، وبكامل قواته، بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وأن يقف على مقربة من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ويقضي على أي سفينة تابعة للصليبيين.

تقدم صلاح الدين بقواته فوصل الى بيت المقدس في رجب ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وكان الصليبيون قد استمادوا من الفرصة التي أتاحها لهم صلاح الدين بعدم مهاجمتهم بعد حطين مباشرة، فأعدوا أنفسهم للحرب، وحصنوا مدينتهم، ونصبوا المجانيق فوق أسوارها، ورفضوا أن يستجيبوا لنداء صلاح الدين بتسليم المدينة.

صمم صلاح الدين على دخول المدينة عنوة، فنصب المجانيق، ورتب الجنود وأعدهم للهجوم من الجهة الشمالية للمدينة (عند باب عمورا وكنيسة صهيون)، وبدأ القتال عنيفاً بين الجانبين، فالصليبيون مستميتون في الدفاع عن عاصمة مملكتهم، وآخر معقل لهم، ورمز انتصارهم في الحروب الصليبية الظالمة، التي استباحوا فيها حرمات المسلمين وديارهم، والمسلمون مندفعون كالسهام لاسترداد أرضهم المقدسة، وتطهير بلادهم من أدران الصليبيين، ومسح العار عن جبينهم، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الصليبيين عن مواقفهم[2]، وأدخلوهم المدينة، ووصلوا إلى الخندق، واجتازوه إلى السور، فنقبوه وحشوه

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص ٢٠٩ - ٢١٠، Baldwin, op cit P.615 .

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ٥٤٨.

بعبوات مدمرة، وأحكم رماة المجانيق الرمي المتوالي على الصليبيين، الذين أدركوا عندئذ أنهم أشرفوا على الهلاك، فطلب رؤساؤهم من صلاح الدين الأمان، فتمنع عن إجابتهم وقال إنه يريد أن يأخذ القدس عنوة ليفعل بالصليبيين مثلما فعلوا بالمسلمين عندما تملكوه سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٩م.

شروط التسليم:

ترددت رسل الصليبيين تعرض شروط التسليم، وتلح في طلب الأمان، ولان صلاح الدين ووافق على الشروط التي تدل على تسامحه واعتداله وكريم خلقه، وأهم هذه الشروط أن يدفع الصليبيون الفدية على كل رجل عشرة دنانير، وعلى كل امرأة خمسة، وعلى كل ولد أو بنت دينارين، فمن دفع في ظرف أربعين يوماً سمح له بالخروج من المدينة آمناً بماله، ومن لم يدفع أخذ مملوكاً. وسمح صلاح الدين للرعايا المسيحيين من الشاميين واليونانيين بالبقاء كرعايا، ومع كل ذلك فقد كان صلاح الدين كريماً إلى أقصى حدود الكرم، فقد أطلق سراح كثير من الفقراء بدون دفع الفدية المقررة، وقبل ثلاثين ألف دينار دفعها باليان بن بيرزان (بلدوين الإبليني) صاحب الرملة ونابلس، فدية عن ١٨,٠٠٠ رجل[١]. وأكثر من هذا أطلق صلاح الدين لملكة بيت المقدس، زوجة الملك جاي أموالها وخدمها، وكذلك فعل مع كثيرات غيرها من زوجات أمراء الصليبيين، مثل زوجة أرناط نفسه وبعث بهن في حماية جنوده الى مدينة صور التي اخترنها، وأكرم رجال الكنيسة، فخرج البطريرك بأمواله الهائلة، وتحف الكنيسة دون أن يتعرض له إنسان، ولم يدفع غير عشرة دنانير مثله مثل أي فرد آخر. وأخيراً دفع صلاح الدين الفدية لعدد كبير من فقراء الصليبيين، فقد دفع من جيبه الخاص نحو عشرة آلاف دينار. ومع كل هذا فقد كان عدد الذين استرقوا، ولم يقدروا على دفع الفدية ستة عشر ألفاً من الرجال والنساء والصبيان.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حـ ١١ ص ٥٥٠.

دخول بيت المقدس:

دخل صلاح الدين بقواته إلى بيت المقدس يوم الجمعة ٢٦ رجب سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وكأن القدر قد اختار هذا اليوم بالذات ليعيد إلى المسلمين مسجدهم الأقصى بعد أن ظل حبيساً في أيدي الكفرة ٨٢ عاماً ليذكرهم باليوم الذي أسري فيه بالرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى منذ أقل من ستة قرون. بدأ صلاح الدين بإصلاح ما أفسدته أيدي الصليبيين في مبنى المسجد الأقصى أثناء إقامتهم بهذه المدينة المقدسة، فأعاد المسجد إلى حياته الأولى، حيث رممه وأصلحه، وجمله، وفرشه بالبسط، ونقل إليه المنبر الذي كان نور الدين قد صنعه في حلب قبل عشرين سنة، استعداداً لدخوله بيت المقدس، كما أزيل الصليب الذهبي الذي نصبه الصليبيون فوق قبة الصخرة[1]. كما أمر صلاح الدين بهدم جميع أماكن العقيدة النصرانية في هذه البقعة المقدسة، وفي غير ما إبطاء، سعى صلاح الدين الى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق[2] وكعادة صلاح الدين بدأ في إصلاحاته الداخلية المعروفة، فأنشأ المدارس السنية، وأقام المستشفيات، وفي الجمعة التالية ألقيت بالمسجد الأقصى خطبة الجمعة بعد توقفها ٨٢ سنة.

صور ومقاومتها للحصار:

تجمع الصليبيون الذين تركهم صلاح الدين يخرجون آمنين بأموالهم من المدن التي استولى عليها في مدينة صور، وقد ساعدت الظروف هذه المدينة بأن تولى أمرها المركيز كونراد مونتفرات، بعد وفاة أميرها، فقام كونراد بتحصينها، وحفر الخنادق حولها، فأصبحت كالجزيرة الحصينة، ولذلك فشلت جميع محاولات صلاح الدين في الاستيلاء عليها وأصبحت مركزاً لإحياء مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد. الأمر الذي جعل جمهرة من المؤرخين المسلمين وعلى رأسهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ٥٥١، راجع كذلك ص ٥٥٢ حيث الوصف الشيق للمنبر الذي صنعه النجارون في حلب لنور الدين محمود.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٥٧.

ابن الأثير[1] يوجهون اللوم المرّ لصلاح الدين باعتبار أن سياسة التسامح والمروءة التي اتبعها مع أعدائه الصليبيين، هي التي أدت الى هذا التجمع في صور، وحشد هذه الجموع الكثيرة في مدينة واحدة فأصبحت بذلك دار هجرة لهم، يحتمون بها، ويلجأون إليها، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والدفاع عنها، ولذلك تمكنت المدينة من أن تقاوم، وتظل على مقاومتها مدة طويلة، وتصبح بالتالي مصدر خطر كبير على صلاح الدين نفسه، وعلى المدن الإسلامية في المنطقة.

لأنه كان ينبغي على صلاح الدين أن يزحف على بيت المقدس فور الانتهاء من موقعة حطين، لأن المملكة الصليبية غدت بدون جيش يدافع عنها، ولأن الصدمة التي زلزلت نفوسهم، وهدت كيانهم بعد تحطيمهم في موقعة حطين، كان أثرها لا يزال باقياً وقتذاك، وكان من السهل على صلاح الدين فتح بيت المقدس دون عناء. ولكنه أخطأ حين توجه الى فتح مدن الساحل. ولكننا لو درسنا الموقف دراسة تفصيلية، نجد أن صلاح الدين لم يكن مخطئاً في استراتيجيته العسكرية، لأنه أراد أن يقطع عن بيت المقدس وصول أي مدد من هذه المدن، وأن يؤمن مواصلاته البحرية بين شطري دولته في الشام ومصر[2]، لأن مدن الساحل كانت حاجزاً يحول دون هذا الاتصال.

ومن جانب آخر فإن سياسته التي سمح فيها بخروج الصليبيين من المدن التي فتحها، قللت جداً من عدد الصليبيين في هذه المدن، وبذلك أمن ألا تعاود هذه المدن الحرب ضده مرة ثانية، أو تعلن التمرد والعصيان، فتسبب لتحركاته العسكرية الارتباك والاضطراب، ثم إنه جمع كل القوى الصليبية في المملكة في مكان واحد قرب الساحل، لأن وجودها في الحصون الداخلية التي تتخلل دولته أشد خطراً من وجودها في حصن على الساحل، لأن الحصون الساحلية يمكن حصارها من البحر بجانب حصارها من البر، وهي مع ذلك لا تستطيع الاستمرار في المقاومة دون نجدات تصلها من

---

(١) ابن الأثير الكامل، جـ١١ ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦. عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ص ٨١١ وما بعدها.

(٢) Stevenson; The Crusaders in the East, P. 249.

الخارج، ووصول النجدات أمر لا يمكن أن يستمر طويلاً، لأن حماسة الصليبيين في أوروبا سوف تخبو وتتلاشى مع الزمن. ولو قضى صلاح الدين هذا الوقت الطويل كله في حصار صور، ولم يتجه لفتح المدن والحصون الداخلية والساحلية ثم بيت المقدس، ووصلت الحملة الصليبية الثالثة لتغير مجرى الحوادث التاريخية في ذاك الوقت. حصوصاً وأن الموعد الذي حدده صلاح الدين لإطلاق سراح الملك جاي دي لوزحنان ومقدم الداوية كان سيحل وهو محاصر لصور، وكان لا بد وأن يفي بوعده ويطلق سراحهما، ولنا أن نتصور ماذا يمكن أن يحدث من هذين الشيطانين، لو لم يقض صلاح الدين على كل الجيوب الصليبية في الداخل، ومدن الساحل، ويكفي الإشارة الى أن صلاح الدين اشترط عليهما ألا يشتركا في أي حروب ضده، ومع ذلك فقد حنثا بوعدهما كالعادة، ولم يوفيا بتعهداتهما، وذهبا إلى صور، وانضما إلى الصليبيين هناك. ومهما وجه المؤرخون من نقد إلى صلاح الدين بسبب استراتيجيته الحربية، فإني أرى أن أي تحليل تأريخي للمعارك الحربية بعد أن يخمد صليل سيوفها، وينقشع غبارها، لا يكون هو الرؤية الحقيقية التي رآها وعاشها قائد هذه المعركة الرهيبة أو تلك، لأن المؤرخ يكتب تحليله ويبني رأيه وهو هادىء الأعصاب، متزن التفكير، يمعن النظر في الخطط القتالية والتحركات العسكرية على مائدة ثابتة في جو من الطمأنينة والأمان، بينما القائد العسكري يضع هذه الخطط ويرسم تلك التحركات وهو يعبر ساحة الوغى، تحيط به السيوف، وتلاحقه النبال، فتأتي خططه متفقة تماماً مع قدرته الفكرية، ورؤيته العسكرية، وملائمة للظروف والعوامل التي تحيط به، ومدى ما عنده من معلومات عن قوة عدوه وتعداد جنده. ولذلك يمكن القول إن صلاح الدين لم يخطىء، وإنما بنى استراتيجيته العسكرية على رؤية خاصة به، لا على أساس ما ينبغي أن يكون.

الفصل الثامن عشر

الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا

أحدث سقوط بيت المقدس في أيدي صلاح الدين الأيوبي دوياً هائلاً في العرب الأوروبي، وكان بمثابة الكارثة التي هزت كيان المسيحيين الأوروبيين، الذين أدركوا تقلص ملك الصليبيين في المشرق حيث سقطت الرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م،ومعظم مدن الساحل والمدن الداخلية، ثمّ عاصمة مملكتهم الصليبية بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م في أيدي المسلمين. وبذلك عادت الأمور من جديد إلى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى، وكان لا بد للغرب الأوروبي أن يعجل بإرسال حملة صليبية جديدة لينتقم بها من المسلمين ويستعيد بها بيت المقدس من أيديهم. فكانت الحملة الصليبية الثالثة.

ويعتبر كونراد مونتفرات المحرك الأول لتكوين هذه الحملة، فقد أرغمته الظروف على ترك البلاط البيزنطي في القسطنطينية، حيث كان يقوم على خدمة الامبراطور، ولم يجد مكاناً يذهب إليه سوى الأرض المقدسة، فوصل إلى مدينة صور بعد معركة حطين بثلاثة أسابيع[1] ولكي يثيرُ حماس الغرب الأوروبي والباباوية، ويدفعهم إلى سرعة إرسال هذه الحملة بعث مع مندوبيه بلوحة كبيرة ابتكر تصميمها تمثل القبر المقدس للمسيح (عليه السلام) وقد لوثته خيول المسلمين[2]، وأخذ هؤلاء المندوبين يطوفون بهذه اللوحة في مدن أوروبا.

---

(١) ماركر: الحروب الصليبية، ص٨٦.

(٢) ذكر ابن الأثير (جـ١٢ص٣٢) أن الصورة كانت للمسيح وهو يضرب بيد رجل عربي زعموا كذباً أنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

تحرك عدد من ملوك أوروبا الكبار لنجدة الصليبيين وحماية المسيحية في الشرق تلبية لنداء الباب أنوسنتIII ، وكان على رأسهم فردريك الثاني (بربروسا)، امبراطور ألمانيا، وفيليب الثاني (أوجست) ملك فرنسا، وريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا[1]. وترعم فردريك أمر الحملة ترضية للبابا، وأسرع بالمسير بجنوده الألمان قبل زميليه، ولسوء حظه أنه عبر أوروبا الشرقية مخترقاً أراضي الدولة البيزنطية عبر آسيا الصغرى كي يصل إلى الشام، وهو طريق مشئوم اندحرت فيه معظم قوات الحملة الصليبية الأولى، ووصل بربروسا بحملته الى أرض سلاجقة الروم وأميرهم قلج ارسلان بن مسعود بن سليمان، الذي وقف موقفاً مخزياً لأنه سمح لهم بالتزود من بلده بينما امتنع الامبراطور عن إمدادهم بالزاد ، كما تعهد لهم بمنع أذى مواطنيه عنهم، ويبدو لنا أنه أقدم على هذا الموقف نتيجة لمشكلاته الداخلية والخارجية، وللعداء الذي كان قائماً بينه وبين البيزنطيين من جهة وبينه وبين صلاح الدين من جهة أخرى بينما كان موقف الامبراطور البيزنطي واضحاً فأرسل الى صلاح الدين يعرفه ويعده بأنه لن يسمح للحملة بالعبور داخل بلاده[2] ولكنه عجز من منعها. وصلت الحملة إلى قونيه، ومنها إلى قيليقيا سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، حيث غرق الامبراطور فردريك في أحد فروع أنهارها، فتبعثر جنوده الذين كانوا معه، ولم يصل منهم إلى الأرض المقدسة سوى شرذمة ضعيفة[3].

لعبت المسائل السياسية دورها بين ريتشارد وفيليب فدب الخلف بينهما وهما في صقلية لقضاء فصل الشتاء بها، وانفصمت عرى المصاهرة بينهما[4]، وأبحرت سفن ريتشارد فجنحت إحداها على شاطىء قبرص ـ وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية ـ، وأسرها حاكم الجزيرة، مما جعل ريتشارد يتجه إلى

---

(١) بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٥٧.

(٢) ابن الأثير جـ١٢ ص٤٨.

(٣) Runciman, op. cit, III, P. 15

(٤) كان ريتشارد قلب الأسد خطيباً لشقيقة فيليب أوجست، فتركها وخطب برنجاريا أميرة نافاري التي أبحرت في السفينة التي جنحت على قبرص، فأخذت أسيرة.

قبرص ليغزوها[١]، واعتبرها داخلة في دائرة الحروب الصليبية، وفعلاً تملكها مما زاد في قوته الحربية.

وقد ساعد على اشتراك أعداد ضخمة من مسيحيي الغرب رجالاً ونساء في الحملة الثالثة، أن لويس السابع ملك فرنسا، كان قد فرض ضريبة على كل من لم يشترك في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، كان مقدارها العُشْر (١٠/١) على جميع المنقولات، كما فرض فيليب أوجست، وريتشارد قلب الأسد ضريبة عشور على رجال الكنيسة وعلى العلمانيين جميعاً، إسهاماً منهم في الحروب الصليبية، وقد أطلق على هذه الضريبة اسم (عشور صلاح الدين)[٢]، ولم يجد مسيحيو الغرب مفراً من دفع هذه الضرائب إلا بالاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة.

وصل فيليب أوجست ملك فرنسا بجنوده إلى صور في ربيع الأول ٥٨٧هـ/ سنة ١١٩١م، ومنها إلى عكا حيث هاجمها، وقد انضمت إليه بقايا حملة فردريك الثاني، بالإضافة إلى الصليبيين الموجودين في الشام. ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد أن وصل بأسطوله (٢٥ سفينة كبيرة) إلى مدينة صور في شهر يونيه، ورفضت حاميتها أن تستقبله، فاستكمل مسيرته إلى عكا، حيث اكتملت أعداد الصليبيين وازدادت أعدادها بوصول جنود ريتشارد، وساء موقف المسلمين فيها. ويرجع السبب في ذلك إلى مخالفة الجنود لرأي صلاح الدين، الذي كان يرى ضرورة مهاجمة هذه التحدات الصليبية وهي في طريقها من صور إلى عكا، ولكن الجنود أصروا على مقاتلتهم عند عكا حتى يمزقونهم جميعاً في ضربة واحدة[٣] فاضطر صلاح الدين الى موافقتهم.

طوق الصليبيون عكا، وأحكموا الحصار حولها، وحفروا خندقاً يحيط بمعسكرهم، الذي أحاط بالمدينة، وأوصلوه من البحر الى البحر[٤]، وأقاموا تلاً

---

(١) عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٢٦ وما بعدها.

(٢) أبو شامه: الروضتين، جـ٢ ص١٤١، Cam Mid, Hist V/P. 374

(٣) ابن الأثير جـ١٢ ص٣٤.

(٤) ابن الأثير: جـ١٢ ص٤٠.

ترابياً[1] وقف الرجال فوقه ليصيبوا مهاجميهم من المسلمين، فسدوا منافذ الطرق إلى عكا على المسلمين، كما أحكم الصليبيون الحصار من جهة البحر[2]، حيث أغلقت أساطيل فيليب وريتشارد مدخل الميناء، فمنعت كل مساعدة يمكن للأسطول المصري أن يقدمها إلى أهالي عكا[3]، والحامية العسكرية الموجودة بها كما أقام الصليبيون على مدخل المدينة ثلاثة أبراج عالية بارتفاع ستين ذراعاً ومكونة من خمسة طوابق بكل منها جنود ورماة وتوالت المساعدات والإمدادات على الصليبيين من المدن الإسكندنياوية، والإنجليزية، والنورماندية في جنوب إيطاليا، وبذلك أصبح الصليبيون في وضع أفضل من وضع القوات الإسلامية، واضطرت مدينة عكا وكان حاكمها الأمير قراقوش إلى الاستسلام[4] في ١٢ تموز (يوليه) سنة ١١٩٢م/ ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٨هـ وكان الذي خرج للصليبيين وعرض عليهم تسليم عكا هو الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب وعقد الصلح بين الفريقين، ومن أهم ما تضمنه هذا الصلح من شروط:

١ ـ أن تسلم المدينة للصليبيين بما فيها من آلات وعدد وأسلحة.

٢ ـ أن يدفع لهم مائتي ألف دينار فدية عن أسرى المسلمين في المدينة، في خلال شهرين.

٣ ـ أن يطلق صلاح الدين سراح ألف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى، وخمسمائة فارس معينين.

٤ ـ أن يرد صليب الصلبوت الذي أخذه المسلمون في موقعة حطين.

---

(١) راجع ابن الأثير. الكامل، جـ١٢ ص ٦٥، ويبدو لي أن فكرة حفظ بارليف على ضفة قناة السويس مأخوذة من الحروب الصليبية.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٥٧.

(٣) يذكر ابن الأثير (جـ١٢ ص٤١، ٤٧) أن الأسطول المصري استولى على بُطسه ـ مركب حربي ـ وغنم كل ما فيها وساقها إلى داخل عكا فاطمأنت نفوس من كان بها من المسلمين، ويبدو أن ذلك كان في المراحل الأولى من القتال.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧١، وابن واصل. مفرج الكروب، جـ٢ ص٣٦٢.

٥ ـ أن يخرج جميع المسلمين الموجودين في المدينة بأموالهم آمنين سالمين[١].

كان موعد تقديم الفدية بعد شهرين من الاتفاق، ولكن في خلال هذه المدة بدأ سوء تفاهم بين الفريقين فالصليبيون لا يريدون إطلاق سراح أسرى المسلمين إلا بعد استلام الفدية المقررة، والمسلمون لا يثقون في عهودهم، ولا يريدون دفع المال إلا إذا تأكدوا من إطلاق سراح الأسرى، ومع ذلك عرض المسلمون دفع نصف الفدية مقدماً، والنصف الآخر عندما يتم إطلاق سراح الأسرى، وطلبوا ضماناً من مقدم الداوية الذي كان سفير الصليبيين، وتهرب مقدم الداوية من إعطاء الضمان، وأصر الصليبيون على استلام مبلغ الفدية أولاً، ولهم الحرية بعد ذلك في إطلاق سراح من شاءوا وأن يحتفظوا بمن شاءوا، فتأكد الشك عند صلاح الدين في نياتهم، وأدرك أنهم يريدون الحصول على هذه الأموال الكثيرة ليتقووا بها، ثم يطلقون سراح بعض الفقراء من الأسرى ويحتفظون بالأمراء والقادة والفرسان ليبتزوا المسلمين بهم، ويصيبوا من ورائهم مالاً كثيراً. ولذلك رفض صلاح الدين أن يدفع الفدية قبل إطلاق سراح جميع الأسرى، فتجدد القتال، وأصيب المسلمون بالدهشة عندما رأوا جثث أسرى المسلمين، بعد أن قتلهم الصليبيون غدراً، تملأ جوانب عكا، وكانوا نحواً من ثلاثة آلاف، ولم يبْق الصليبيون إلا على الأمراء والفرسان، وهكذا تثبت الأحداث أن الصليبيين يغدرون وينكثون بالعهد دائماً ولا يحترمون ما يوقعون عليه من الاتفاق.

ومع ما أحرزه الصليبيون من انتصار في عكا، إلا أن أمراءهم كانوا على خلاف مع بعضهم، فقد كان الخلاف كبيراً بين كونراد مونتفرات، صاحب صور، وبين الملك جاي دي لوزجنان على عرش مملكة بيت المقدس، لدرجة أن كونراد غادر عكا، وعاد إلى إمارته في صور، كما أن النزاع بين فيليب ملك فرنسا، وريتشارد ملك انجلترا ازداد حدة عما كان عليه من قبل، وترك فيليب عكا هو الآخر وعاد إلى بلاده وترك ريتشارد ملك انجلترا يتحمل المسئولية كلها بمفرده، حسب ما تمليه عليه الظروف السياسية والحربية، وهكذا نجد أن الحملة الصليبية الثالثة

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، حـ٣، ص١١٩، ابن الأثير: حـ١٢ ص٦٧.

قد أسهمت في زيادة الخلافات بين قادة الصليبيين، وعلى ذلك يرى بعض المؤرخين[1] أن الحملة الثالثة قد فشلت بسبب هذه الخلافات الحادة بين الملوك والأمراء، الذين لم يحملوا السلاح دفاعاً عن عقيدتهم، وإنما كملوك يعملون لأمجادهم الخاصة، لا سيما وأن بعض هؤلاء المؤرخين وصفوا ريتشارد قلب الأسد بأنه من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا يتخلقون بسجايا رفيعة وأن ما أطلق عليه من وصف باعتباره أحد أبطال الحروب الصليبية فإنه لا يمكن اعتباره إلا في حدود تفكير العصور الوسطى.

موقعة أرسوف وهزيمة المسلمين ٥٨٧هـ/ ١١٩١م:

اتجه ريتشارد بقواته نحو أرسوف، يريد الاستيلاء على مدن الساحل التي في أيدي المسلمين، فإذا تم له الاستيلاء عليها اتجه نحو بيت المقدس، وفي أرسوف دارت بين الفريقين معركة رهيبة في ١٤ شعبان (سبتمبر)، أبلى فيها المسلمون بلاء حسناً، وأوشك المسلمون على النصر، ولكن انقلبت الموازين بسبب صمود ريتشارد وشجاعته، وأصيب المسلمون بهزيمة مؤلمة لأول مرة في تاريخ حروبهم منذ أن تولى صلاح الدين الأيوبي مسئولية القيادة للمعارك الحربية. ولولا ثبات صلاح الدين، وتأثيره الشخصي في إثارة حماس جنده، وتماسكهم، لكانت الموقعة مأساة كبرى للمسلمين. ومع أن هزيمة المسلمين في أرسوف كانت موجعة، إلا أن صلاح الدين استطاع أن يمتص هذه الهزيمة، وتماسكت قواته، وأمر بتدمير استحكامات المدن الساحلية مثل يافا وأرسوف وقيصرية وصيدا وجبيل[2] حتى لا تقع في أيدي الصليبيين، كما دمرت استحكامات طبرياً، وخربت عسقلان والرملة حتى لا يفيد منها العدو، ثم توجه إلى بيت المقدس، وأعد خطة محكمة للدفاع عنها، وحمايتها والحفاظ عليها، فقسم سور البلد إلى مناطق دفاعية، ووزع قواده ومقاتليه عليه، وحفر خندقاً عريضاً وعميقاً، على غرار ما عمله الفرنجة في عكا، وشارك القائد العظيم صلاح الدين بنفسه مع

---

(١) Emerton, Mediaevel Europe, P. 378

(٢) Awiet; op. cit. P. 327

أولاده وقواده وجنوده والعلماء والقضاة في هذه الأعمال[1] التي تدخل في نطاق الجهاد في سبيل الله.

وأمام هذه التحصينات القوية على بيت المقدس تراجع ريتشارد عن عزمه، وأدرك أنه لن يستطيع الاستيلاء على القدس، فارتد الى الرملة، ومنها توجه إلى عسقلان ١١٩٢م، حيث مكث بها أربعة شهور، أعاد حلالها ما كانت عليه عسقلان من تحصينات، حتى أضحت أقوى الحصون الساحلية، وقد يبدو غريباً أن صلاح الدين لم يهاجم ريتشارد في عسقلان وتركه يقيم هذه التحصينات، ولكن الحقيقة هي أن صلاح الدين كان مضطراً للانتظار حتى تصله الإمدادات من الموصل والجزيرة[2]، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يمنح قواده وجنوده قسطاً من الراحة بعد هذا الجهاد المتواصل، خاصة وأن بعضهم طلب ذلك صراحة من صلاح الدين.

صلح الرملة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م:

وصلت حدة الخلاف ما بين كونراد وريتشارد أن لجأ كل منهما إلى طلب الصلح وأن يكون حليفاً للمسلمين ضد خصمه الآخر، ولم يقبل صلاح الدين بما عرضه كل منهما من شروط. وأدرك ريتشارد أن الحرب قد استنفدت طاقات وإمكانات كثيرة لقواته، وأن غيبته عن وطنه قد طالت، وبدأت فيه منافسات خطيرة على العرش ترمي إلى عزله عن الملك، وأن الأمور الداخلية تستوجب منه العودة الى إنجلترا بسرعة لمعالجة ما نشأ فيها بعد أن اغتصب أخوه العرش، بالإضافة إلى أن المرض قد حل به. فعاود المفاوضات بشأن الصلح في ٢٠ مارس وكان باليان بن بارزان، الذي كان صاحب الرملة ونابلس مندوب ريتشارد لصلاح الدين وكانت لجنة المفاوضات تضم مجموعة من الأمراء المشهود لهم بالكفاءة السياسية، والقيادة الحربية، في مقدمتهم الملك العادل، والملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك المنصور[3] وغيرهم.

---

(١) أبو شامه: الروضتين، جـ٢ ص٢٩٢.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص٣٨٨؛ Runceman, op. cit. III P. 62

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٣٥ (راجع بقية أسماء هذه اللجنة).

وفي ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر ١١٩٢م وقعت المعاهدة من الطرفين وكان من أهم شروطها:

١ - أن تسري الهدنة وشروط الصلح لمدة خمس سنوات[١].

٢ - أن يحتفظ الصليبيون بالبلاد الساحلية ما بين صور شمالاً ويافا جنوباً.

٣ - أن يسلموا للمسلمين عسقلان بعد تدمير استحكاماتها[٢]، ويحتفظ المسلمون بالبلاد الواقعة جنوب عسقلان، أي بقية فلسطين بما فيها بيت المقدس.

٤ - أن تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين.

٥ - أن يسمح للمسيحيين بالحج والزيارة إلى بيت المقدس[٣]، دون أن يدفعوا ضريبة ما للمسلمين، وأن يكون للمسلمين والمسيحيين الحرية في أن يجتازوا أرض بعضهم بعضاً.

٦ - أن يسمح صلاح الدين لنفر من رجال الكنيسة اللاتينية بالبقاء في كنيسة يوم القيامة وبيت لحم والناصرة، لأداء العبادة والطقوس للحجاج القادمين من أوروبا، وأن يُعاد إليهم صليب الصلبوت.

وبهذه المعاهدة استقرت الأمور في منطقة الشرق الأدنى وانتهت أعمال الحملة الصليبية الثالثة دون تحقيق شيء يذكر، ومكث صلاح الدين في القدس شهر رمضان، وأحكم سورها، ورتب أمورها، ثم أسند حكمها الى الأمير جورديك من المماليك النورية ورجع عائداً إلى دمشق، حيث مرض بها وتوفي فيها في شهر صفر عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م وعمره خمس وخمسون سنة بعد أن دام حكمه لمصر خمساً وعشرين عاماً[٤]. ثم إن ريتشارد قلب الأسد ارتحل من عكا، وعندما عاد إلى إنجلترا وقع في نزاع مع أخيه، الذي اغتصب العرش، ومع فيليب أوحست ملك فرنسا، وقد لقي ريتشارد مصرعه في ٢٦ مارس سنة ١١٩٩م[٥].

---

(١) في بعض المراجع ثلاث سنين وثلاثة أشهر أو وثمانية أشهر (ابن شداد - النوادر ص٢٣٥) (ابن الأثير جـ١٢ ص٨٥) وما أثبتناه نقلاً عن ابن واصل مفرج، جـ٢ ص٤٠٣، وأبو شامه: الروضتين جـ٢ ص٢٠٣، Runciman, P. 63

(٢) Runciman, op, cit. III P. 63

(٣) عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ١ ص٤٤٣.

(٤) ابن خلدون: تاريخ، جـ٥ ص٣٣٠.

(٥) Runciman, Ibid; P. 74.

الفصل التاسع عشر

حياة الصليبيين ونظمهم في الشام

بعد قيام المملكة اللاتينية في القدس، وتعاطف الإمارات الثلاث ـ الرها وأنطاكيا وطرابلس ـ معها، كان من المحتم وجود نظام لمباشرة الشئون السياسية والإدارية والعسكرية والقضائية والمالية والاجتماعية، حتى يمكن لهذه الدولة أن تسير وفق هذه النظم، ولكن لم يكن ممكناً إقامة وحدةٌ سياسية تضم الإمارات الصليبية كلها معاً، ليسهل تنفيذ مثل هذه النظم فيها، فلم يقدر للصليبيين خلال إقامتهم في بلاد الشام على مدى قرنين من الزمن (١٠٩٧ ـ ١٢٩١م) أن يقيموا من المدن والأراضي التي احتلوها، وسيطروا عليها وحدة سياسية تضم هذه المدن، وتوحد هذه الأراضي، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المجتمعات التي تكونت منها مملكة بيت المقدس والإمارات الثلاث، كانت خليطاً من أجناس وقوميات، ولغات، وديانات متعددة، فكان بينهم الفرنسيون، والإيطاليون، والجرمانيون والإنجليز، بالإضافة إلى السكان المحليين وأهل البلاد الأصليين، الذين كانوا عرباً، وتركاً وأكراداً، وأرمن، وبيزنطيين (الروم)، ومجموعات من اليهود، وكان من الطبيعي أن تتفاوت هذه المجتمعات في مظهرها الاجتماعي، ودرجة ثقافتها[1]، وطرق معيشتها، وممارسة نشاطها في الجوانب السياسية والاقتصادية. . . وغيرها.

ولأن الأجزاء التي احتلوها، والمدن التي سيطروا عليها، كانت متفرقة ومتباعدة، تفصل بينها أراض ومدن إسلامية ذات قوى بشرية كبيرة وكثيرة، مما

---

(١) فارس: تراث العرب، ص١٦٦ وما بعدها.

جعل هذه المدن الصليبية تبدو وكأنها جزر متناثرة في محيط من الأراضي والمدن الإسلامية التي أحاطت بها، وتداخلت فيها، ومع ذلك فقد تمكن الصليبيون من إيجاد نظم لمملكتهم اللاتينية في القدس، استطاعوا بواسطتها أن يمارسوا حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد مضي فترة زمنية طويلة تقدر بحوالي سبعين سنة، بعدما تمت عملية التوافق والملاءمة بين ما كان سائداً في البلاد التي استولوا عليها، وبين ما جاءوا به معهم من نظم إقطاعية وحياة استبدادية قائمة على تسلط النبلاء وأصحاب الإقطاع ورجال الكنيسة على عامة الصليبيين، ولذلك كانت الأنظمة والقوانين التي أوجدتها المملكة اللاتينية في القدس أرقى من مثيلاتها في أوروبا خلال فترة العصور الوسطى جميعها[1].

ويجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على الطبقات التي تكونت منها المملكة اللاتينية في القدس، والتي كانت سائدة في المدن والإمارات الصليبية في عصر الحروب الصليبية، قبل الحديث عما ساد هذه المملكة من نظم وقوانين.

١ ـ طبقة النبلاء والفرسان:

وهي الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وكانت أعدادهم في مملكة القدس قليلة لم تزد عن الألف رجل، والألف امرأة وطفل، ومثلهم في الإمارات الثلاث ـ الرها وأنطاكيا وطرابلس ـ مجتمعين. وقد ظلت هذه الطبقة تعاني نقصاً كبيراً في أعدادها بسبب ما فقدته في الحروب الصليبية، وقلة الوارد من الغرب الأوروبي، إذ أن الأكثرية من جموع الحجاج المسيحيين كانت تفضل العودة إلى أوطانها[2]، وعلى ذلك بقيتْ الطبقة الحاكمة في القدس محتفظة بكيانها، وبعدم اختلاط دمائها بعناصر أخرى، بينما كانت طبقة الحكام في المدن والإمارات الصليبيةُ قد اختلطت بالأرستقراطية المحلية من المسيحيين الشرقيين، وتزوجوا بنساء منهم، وخاصة من الأرمن، وقد سبقت الإشارة إلى أن بلدوين الأول تزوج من أميرة أرمينية، وكذلك فعل جوسلين بعده.

---

(١) Lamens; La Syrie, P. 236، وحتي: تحفة الشرق للغرب، ص ١٤٢.

(٢) عاشور: العلاقات، ص ٣٣٠.

٢ ـ طبقة العامة من الصليبيين الغربيين :

وهؤلاء كانوا كثرة، وقد تزاوجوا مع المسيحيين الشرقيين، والسوريين، والأرمن وغيرهم، ونتج عن هذا التزاوج طبقة أخرى عرفت باسم الأفراخ Pullani ، حلت محل طبقة الصليبيين الغربيين في خدمة المجتمعات الصليبية بالشام(١).

٣ ـ طبقة المسيحيين الشرقيين :

وهم من السكان المحليين، من سريان، وأرمن ، وموارنة وبيرنطيين، ويعاقبة، وأقباط وغيرهم، وكانت هذه الطبقة مهضومة الحقوق، ومحتقرة من الصليبيين الغربيين نظراً للاختلافات المذهبية.

٤ ـ التجار الإيطاليون :

وهؤلاء كانت لهم مدن وأحياء تركزوا فيها لمزاولة نشاطهم التجاري، وعلى وجه الخصوص المدن الساحلية والموانىء، مثل اللاذقية، وعكا، ويافا، وأرسوف، وصور، وبيروت، وطرابلس، وكانت هذه الطبقة مستقلة بذاتها لا يختلط أهلها بغيرهم من الطبقات الأخرى، إلا في حدود المعاملات التجارية والمالية(٢).

٥ ـ المسلمون :

وهم سكان البلاد وأهلها الأصليون، وقد اضطرت جموع منهم إلى ترك المدن التي كانوا يسكنونها في أعقاب الغزو الصليبي، بسبب الوحشية والجرائم التي مارسها الصليبيون، ومع ذلك فقد صمدت جموع كثيرة من المسلمين وبقيت تعيش على أرضها المغتصبة وسط المجتمع الصليبي بطبقاته المتعددة، وكان لهذه الجموع المسلمة أثرها في تطور هذه الطبقات الصليبية، وفي تغيير كثير من عاداتها، حتى اندمجوا في حياة اجتماعية واحدة كما سنعرض له.

---

(١) Grousset, op. cit. P.315 FF.

(٢) Runciman: op, cit.II, P. 294

٦ ـ طبقة الرقيق والأقنان:

وقد جلبها الصليبيون الغربيون معهم من أوروبا، لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عن خدمات رقيقهم وأقنانهم، حيث كانوا يقومون بفلاحة الأرض، والأعمال الشاقة والدنيوية، التي يأنف الصليبيون الغربيون القيام بها. ومع كل ما وقع على عاتقهم من أعمال، فقد اعتبرهم قانون المملكة اللاتينية في القدس كالمواشي يخضعون لقانون البيع والشراء، وأن السيد (صاحب الإقطاع) له الحق أن يفعل ما يشاء في العبد أو القن[١].

نظم الحكم:

مع كل ذلك التعدد في طبقات المجتمع الصليبي في الشام، فقد تمكن الصليبيون من إيجاد نظم لمملكتهم اللاتينية في القدس، ساعدتهم في ممارسة حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكن بعد مضي فترة زمنية طويلة تقدر بحوالي سبعين سنة، بعدما تمت عملية التوافق والملاءمة بين ما كان سائداً في البلاد التي استولى الصليبيون عليها في الشام، وبين ما جاءوا به معهم من نظم إقطاعية، وحياة قائمة على تسلط واستبداد أصحاب الإقطاع، والأمراء، ورجال الكنيسة، على العامة من الصليبيين، ولذلك كانت الأنظمة والقوانين التي أوجدتها المملكة اللاتينية في بيت المقدس أرقى من مثيلاتها في أوروبا خلال فترة العصور الوسطى[٢].

-النظام السياسي (شكل الحكم):

بدأ بما يشبه الملكية الانتخابية، فقد اكتفى جودفري دي بويون، أول حاكم صليبي للقدس، بلقب (حامي القبر المقدس) ورفض أن يكون ملكاً، اعتقاداً منه أنه لا يجوز أن يقوم مُلْك في مدينة تعذّب فيها المسيح (عليه السلام)، وكان يهدف من قبول منصبه إلى إخماد نار الفتنة التي كان من اليسير أن تندلع بين أصحاب المذهب الكنسي، وأصحاب المذهب العلماني، كل يريد أن يكون

(١) عاشور: العلاقات، ص ٣٣٣.
(٢) Lamens; op. cit., P.236 حتي تحفة الشرق، ص ١٤٢.

رئيس الدولة ممثلاً لمذهبه حتى يتقرر شكل الحكم (ديني أو علماني). انتهى ذلك الاختلاف باتفاق النبلاء على انتخاب جودفري ليكون رئيساً لهم، وبالتالي رئيساً للدولة اللاتينية في القدس، ومع ذلك لم ترتفع منزلته عن منزلة زملائه البارونات، بل ظل كأحدهم تماماً بحكم القانون، وبقي ذلك الوضع السياسي (شكل الحكم) سائداً مع بلدوين الأول، وبلدوين الثاني، إلا أن نظام الحكم أصبح ملكياً، لإعلان بلدوين الأول نفسه ملكاً على القدس إلا أنها كانت ملكية انتخابية واضحة عن طريق انتخاب واحدٍ من بينهم ليصبح ملكاً. ثم غدت هذه الملكية وراثية منذ تولي بلدوين الرابع عرش القدس سنة ١١٧٤م وهو ابن ثلاثة عشر عاماً بعد وفاة أبيه، كما أعطى نظام الحكم للوريث الأنثى حق نقل التاج إلى زوجها، وكان مجلس النبلاء (المجلس الأعلى) لا يتدخل إلا إذا وقع خلاف على حق الوارثة. ومع أن الملك كانت له سلطات متعددة، إلا أنه في كثير من الأمور كان مقيداً برأي الأمراء، وبرأي المحكمة العليا الَّتي تتكون من النبلاء أصحاب الأرستقراطية الإقطاعية داخل المملكة. من الأمثلة على ذلك أنه إذا مات أمير من الأمراء، دون أن يترك وريثاً في سن الرشد، أصبح للملك الحق في أن يكون وصياً على الوريث الصغير، وقد استعمل بلدوين الثاني هذا الحق مرتين، عندما تولى الوصاية على أنطاكيا في سنة ١١١٩م، وفي سنة ١١٣٠م. غير أن ملوك بيت المقدس اعتبروا هذه الوصاية عبئاً ثقيلاً، لا امتيازاً كبيراً، ذلك لأنها فرضت على الملك أعباء وواجبات، دون أن يحصل في مقابلها على حقوق[1]، لأن الأمراء أخذوا يتصرفون في شؤون إماراتهم كما لو كانوا مستقلين عن الملك، وليسوا تابعين له، فعقدوا المعاهدات مع أمراء البلدان الإسلامية بدون علمه، أو كانوا يهاجمونهم على الرغم من وجود معاهدات بينهم وبين الملك نفسه، كذلك أرخ الأمراء الصليبيون وثائقهم بسنوات حكمهم وأضحى لكل منهم قوانين خاصة بإمارته ـ ولكنها كانت في الإطار العام لقانون المملكة اللاتينية ـ ومعنى ذلك أنه حدث نوع من التوفيق بين الإمارات الصليبية ومملكة القدس، أو بين الأمراء والملك، وأصبحوا غير تابعين تبعية كاملة له.

---

(١) باركر: الحروب الصليبية، ص ٥٣.

٢ ـ النظام الإداري:

لم يكن هذا النظام الإداري من مستحدثات مملكة القدس اللاتينية، بل كان خليطاً من النظم الإدارية التي نقلها الصليبيون من الغرب الأوروبي، ومن النظم الإسلامية التي كانت مستعملة في مدن وإمارات هذه المملكة قبل الغزو الصليبي لها. وقد تعددت الأجهزة الإدارية في المملكة اللاتينية، وكان يشرف عليها مجموعة من كبار الموظفين، في مقدمتهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الاحتفالات الكبرى في المملكة، وعلى الشئون المالية، وكان يليه الكونستابل Constable وهو قائد الجيش تحت رئاسة الملك، ويشرف على كل ما يختص بتنظيم الجيش واحتياجاته، ويساعده المارشال Merschal. بعد المارشال يأتي الياور Chamberlian [1] وكان يشرف على شئون القصر الملكي وما يتعلق به. أما في المقاطعات فقد كان النائب (الفيكونت) Viscount مسئولاً عن إدارة المقاطعة وأمنها، وكان يساعده المحتسب[2]، ورجال الشرطة.

ومنصب المحتسب عربي إسلامي، وجده الفرنجة في البلاد فعملوا به. وكان المحتسب يراقب الأسواق، والطرقات، والموازين والمكاييل، والمشتغلين بأقوات الناس (وتشمل المواد الغذائية كلها) وأصحاب الحرف الذين يدربون الصبيان، وكذلك الممتهنين للطب والصيدلة (تحضير الأدوية من الأعشاب). وكان لا يسمح لأي طبيب وفد إلى البلاد بممارسة مهنة الطب قبل أن يؤدي امتحاناً يحضره أفضل الأطباء من نفس المدينة، ويعقد له مجلس عام برئاسة الأسقف[3]. وكانت أنطاكيا، وطرابلس، والقدس من المراكز المرموقة لدراسة الطب، وكان الطبيب مسئولاً عن حياة مريضه وعن شفائه، وما يتركه الدواء من تأثيرات جانبية ونتائج، وكان من حق الطبيب أن يبرهن لدى المحاكم أن المريض لم يلتزم بتعليماته في تعاطي الأدوية، وأنه بسبب ذلك قد هلك.

---

(١) Runciman, op. cit. II P. 303 FF.

(٢) معالم القربة في معالم الحسبة، ص٧؛ الريس. النظم (باب المحتسب).

(٣) Rey; Colo. Franq en Syrie, P. 182.

٣ - النظام العسكري:

لم يكن نظام الخدمة العسكرية فرضاً على كل صليبي، بل كان في مقابل ما يؤديه الملك لأتباعه من أجر، ولم يكن ثمة ما يعفي الملك من الالتزام بدفع هذه الأجور لأتباعه سوى حدوث مجاعة، أو قيام المسلمين بغارات تخريبية. فكان الملك يتكفل بتقديم جعل من المال سنوياً لأصحاب الإقطاع المنخرطين في نظام الجنود، وأن يقدم لهم الخيول، وشيئاً من عدة الحرب، وإلا امتنعوا عن مشاركته في الحروب، وتوقفوا عن المعارك والإغارات. وكان المرتزقة من غير أصحاب الإقطاع يتسلمون جعلهم من الملك مباشرة.

وكانت القوات الصليبية تتكون من الفرسان، وكانوا بمثابة القادة، وهؤلاء كانوا قلة من الصليبيين الغربيين، ولذلك استعان الصليبيون بفرسان من السوريان، أما المشاة (السرجندية)[1] فكان معظمهم من الصليبيين الغربيين، وكان من بينهم جموع منَ الأرمن، الذين كانوا من خيرة جنود الشرق؛ وكان رماة النشاب من الموارنة، وكانت فرسان الداوية Templars والاستبارية Hospitallers يعملون في الجيش الصليبي طبقاً لتعليمات مقدميهم، دون الارتباط بنظم الحكم في المملكة اللاتينية، وإن كان قد وقع على عاتقهم الدفاع عن المدن الصليبية عن طريق ما أقاموه من قلاع وحصون. ثم استعان الصليبيون بجموع من أهل البلاد أنفسهم من مسيحيين، ومسلمين، وموارنة، وكونوا منهم فرق الخيالة الخفيفة، وقد عرف أفراد هذه الفرق باسم التركبولي Turcopoli [2]، وقد استعملوا الأساليب الحربية المعروفة عند المسلمين، ومع كل ذلك فإن تعداد جيش المملكة اللاتينية في القدس لم يزد عن خمس وعشرين ألف مقاتل.

أما الأسلحة التي استعملت في هذه الفرق فهي الحراب، والسهام، والسيوف، وكان المقاتلون يتقونها بدروع مصفحة ثقيلة، فلما وجدوها تعيق من

---

(١) ابن منقذ: الاعتبار، ص٦٧.

(٢) تكونت هذه الطائفة من المولدين الذين انحدروا من أب تركي وأم يونانية (إغريقية)، راجع تطور هذا اللفظ في ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص١٤٩، حـ١ (تحقيق الشيال).

حركتهم في القتال، استبدلوها بدروع خفيفة مناسبة، ذات الزرد، كما استخدموا المنجنيقات والكباش، ووقوا رؤوسهم بالخوذات الاسطوانية الشكل المعروفة بالخوذات الصليبية. وعرفوا بث الألغام المتفجرة، وتركيب المواد المفرقعة والبارود[1] وإعداد النفط الملتهب (أي النار الإغريقية) الذي استعمل كثيراً ضد السفن الحربية، وضد الأبراج العالية ذات الطوابق المتعددة. وقد عرف المسلمون كل أنواع هذه الاسلحة واستخدموها بمهارة وحذق. وقد نقل الصليبيون عن العرب المسلمين استخدام النار ليلاً لتعيين مواقعهم، والحمام الزاجل نهاراً لنقل الأخبار السريعة منهم وإليهم[2].

٤ ـ النظام المالي:

لم يكن للمملكة اللاتينية في بيت المقدس نظام ثابت، وكان دخل الدولة كله يؤول للملك، وكان من جباية الضرائب (المكوس) الجمركية، سواء كانت مقررة على الصادرات أو الواردات المنقولة بالقوافل التجارية، أو بالسفن في الموانىء، وكان الفيكونت Viscount هو الذي يقوم بتحصيل هذه الضرائب، ويودعها ما يشبه بيت المال. ومن رسوم المحاكم، وضريبة الرؤوس (الجزية) على اليهود والمسلمين المقيمين داخل المدن الصليبية، ومن التعويضات الحربية من المدن الإسلامية في الشام، أو ما تحصل الدولة عليه من السلب والنهب بواسطة الجنود الصليبيين عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية[3]، بالإضافة إلى أرباحه من الاحتكارات.

ومع أن هذا الدخل المالي كان عظيماً، إلا أن مصاريف الدولة التي يتحملها الملك كانت ضخمة جداً، لا يفي بها هذا الدخل كله. لأن الملك كان يوزع هذه الموارد المالية على رؤساء الجند، والفرسان الاستبارية والداوية وغيرهم، مما حرم الملوك الصليبيين أنفسهم من ثروة طائلة، ومع ذلك كانوا أحسن حالاً من

(١) العمري. التعريف، ص١٨٠، وكذلك تحفة الشرق (حتي) ص١٤٣ وما بعدها

(٢) Rey; op cit. p. 43

(٣) Runciman; op. cit. II P.298.

بعض ملوك أوروبا في ذلك الوقت[1] ممن كانوا يقدمون مساعدات مالية للمملكة اللاتينية في بيت المقدس عوضا عن اشتراكهم في الحروب الصليبية ومما زاد في ضعف النظام المالي امتيازات الكنيسة، وامتلاكها الأراضي الجديدة في المشرق الإسلامي مع إعفائها من دفع ضرائب عنها، ورفضها الإسهام في الدفاع عن المملكة اللاتينية على الرغم من حصولها على حصتها كاملة وهي العشر (١٠/١) من كل الدخول حتى من غنائم الحروب. وعلى ذلك كان إعفاء الكنيسة من الضرائب عاملاً من العوامل التي أدت إلى تقويض أركان الدولة اللاتينية وانهيارها، ولو بطريق غير مباشر.

٥ ـ النظام القضائي:

كان النظام القضائي معقداً، وكان له أضراره على الدولة اللاتينية، فقد كان في القدس محكمتان مركزيتان هما:

أ ـ المحكمة العليا:

وهي خاصة بالنبلاء وتختص بالنظر فيما ينشب بينهم بعضهم بعضاً، أو بينهم وبين الملك من منازعات، ولكن لم تلبث هذه المحكمة أن اتسع اختصاصها، فأضحت بمثابة هيئة تشريعية لا بد من موافقتها على أي قانون أو تشريع جديد، وكان أعضاؤها من الأفصال (كبار الأمراء)، وممثلين من كبار رجال الكنيسة، وممثلين عن الجاليات الغربية التي امتلكت أراضي وإقطاعات في المملكة اللاتينية ببيت المقدس.

ب ـ المحكمة البرجوازية:

Cours de bourgeoisie ، ويطلق عليها كذلك محكمة الفندق [illegible] سوق، ومحكمة الملاحة أو السلسلة. وتختص بالنظر فيما ينشب بين عامة الصليبيين [illegible]ضهم بعضاً، وبينهم وبين أهل البلاد الأصليين من نزاع، بالإضافة إلى الفصل في [illegible]ائم، وكانت تتكون من اثني عشر عضواً (محلفاً) يعينهم أمير

---

(1) Thompson; op. cit. I P. 406.

المدينة، وكان تعقد برئاسة الفيكونت Viscount (1) إلى جانب هاتين المحكمتين وجدت محكمة أهلية مختصة بالسوريين، عرفت باسم (محكمة الريس) أي شيخ البلد، ولكن ما لبث أن اندمجت في المحكمة البرجوازية وكانت محكمة الريس تضم أربعة من السوريين، واثنين من الفرنجة. كما وجدت محكمة خاصة للايطاليين في كل مدينة تحت إشراف القنصل أو نائبه(2)، وقد عرفت هذه المحاكم باسم محكمة المدينة(Cours de la Fonde) ، وكانت تختص بالفصل في جميع القضايا العادية، باستثناء جرائم القتل والسرقة والاحتيال. وكان للكنيسة كذلك محاكمها الخاصة، التي تنظر فيما يتعلق بأملاك رجال الدين، والقضايا الخاصة بين الرجل وزوجته (الأحوال الشخصية). ومن الملاحظ أنه لم يكن لهذه المحاكم وأمثالها قوانين مدونة، بل كانت الأحكام تعتمد على العرف والتقاليد السائدة في هذه المجتمعات، ولم تعرف هذه المحاكم قوانين مكتوبة إلا في القرن الثالث عشر، على عهد فردريك الثاني، باعتباره ملكاً على بيت المقدس، عندما استغل عدم وجود قانون مدون، ليفرض على المحكمة العليا ما يتراءى له من آراء، فاقتضى الأمر تدوين هذه القوانين. وقد سادت هذه النظم في بقية الإمارات الصليبية في المملكة اللاتينية مع وجود شيء بسيط من الاختلاف، بحيث أصبح لكل مدينة محكمتها. وكانت جميع هذه المحاكم معفلة من الرسوم والواجبات المالية للدولة، مما جعلها من عوامل ضعفها، واعتبرت عبئاً ثقيلاً عليها.

٦ ـ النظام الاقتصادي:

لم يكن النظام الاقتصادي أقل تعقيداً من النظم الأخرى، ولم يكن أقل ضرراً على الدولة من أصحاب الإقطاع، ورجال الكنيسة. لأن كبار التجار كانوا في الأغلب من أصحاب الضياع والمقاطعات، وقد تمكن هؤلاء التجار (الايطاليون) من تكوين جبهة قوية مستقلة بأمورها الاقتصادية والاجتماعية، بل والقضائية أحياناً مما عرقل تقدم الدولة اللاتينية في القدس، وأسهم في اضمحلالها.

---

(1) تذكره المراجع العربية(البيكند) ـ ابن منقذ: الاعتبار، ص١٣٩.

(2) ماركر: الحروب الصليبية، ص٧٨ـ٧٩.

حقيقة أن الصليبيين أسهموا في النشاط الاقتصادي بالشام، ولكن ليس بدرجة كبيرة. لأنهم اكتفوا بامتلاك الأرض والضياع، وتركوا زراعتها وفلاحتها إلى طبقة العامة وخصوصاً من السكان الأصليين لهذه المدن، بشرط أن تكون المحاصيل مناصفة بين المزارع وصاحب الأرض[1]. كما اكتفى بعض الصليبيين بما هيأته لهم سفوح الجبال والمروج من مراعي جيدة وما ذخرت به من غابات كثيفة فاستغلوا أخشاب أشجارها، وصدوره إلى الغرب الأوروبي، ومن أهم هذه الأخشاب العرعر، الذي لا يتطرق إليه الفساد[2]، كما استغلوا بساتين الفاكهة، ومزارع الزيتون، وحقول الخضروات التي كانت تحيط بالمدن، وعرفوا زراعة قصب السكر في الشام، وتعلموا صناعته، وأقاموا مصانع لإنتاجه في صور، وعكا وبعض المدن الساحلية ليسهل عليهم تصديره إلى أوروبا، وكذلك قاموا بتصدير بعض حاصلات الشرق الأقصى التي كانت ترد إلى أسواق الشام مثل التمرهندي، والأفاوية، والطيب، والبخور، والبهارات وخصوصاً القرفة (دارصيني) والذرة الشامية.

وقد أغرم الأوروبيون بالمنسوجات والأقمشة الشامية من تيلية وحريرية ومخملية. وكان الملك لويس التاسع مغرماً بالمخمل غراماً كبيراً، لدرجة أنه كلف جوانفيل لدى زيارته لطرطوس أن يبتاع له كمية كبيرة من هذا المخمل لتوزيعه على المؤسسات الدينية[3]، وكانت صور، وطرابلس، وأنطاكية إلى جانب طرطوس من المدن التي اشتهرت بإنتاجه.

كذلك اهتم اليهود في المدن التي احتلها الصليبيون، وخاصة في صور، ويافا، وعكا[4]، وأنطاكيا، ودمشق بتصنيع الزجاج وتصديره إلى أوروبا، وعقدوا

---

(١) يذكر Rey أن المحاصيل كانت تقسم بين المزارع والسيد (صاحب الارض) بنسبة الربع ١/٤ أو الثلث ١/٣ لصاحب الارض، ولكني أميل إلى ما أثبته عن ابن جبير (الرحلة ص ١٧٠، ١٧٥) خاصة وأن الصليبيين كانوا يكرهون طبقة العامة، وأنهم مستغلون مستبدون ولا يعقل أن تكون نسبتهم أقل من المزارع.

(٢) Rey, op. cit; P. 189

(٣) Rey, op. cit; P. 220

(٤) حتى: تاريخ العرب، ص٢١٢، وكذلك Rey, Ibid, PP. 211, 224

بشأنه الاتفاقات مع جنوي سنة ١٢٢٣م لإ... ما يصدرونه منه إلى أوروبا من الرسوم الجمركية، ولكنهم تعرضوا إلى منافسة شديدة من مصر، التي كان لها مركزها المرموق في صناعة الزجاج وتصديره إلى الغرب.

ومن الصناعات التي احتكرها اليهود كذلك في اللاذقية وطرابلس والجليل والقدس صناعة الأصباغ، ودباغة الجلود، وتحضير الفراء[1].

وقد تركز القسم الأكبر من النشاط التجاري في أيدي التجار الإيطاليين من أهل البندقية وجنوي وبيزة، الذين امتلكوا أحياءً بأكملها في كثير من المدن الصليبية بالشام نظير مساعدتهم للحملات الصليبية. ومن أبرز المدن الصليبية التي نشطت في هذا المضمار عكا، التي وصفها الرحالة ابن جبير[2] بأنها «قاعدة الإفرنج بالشام» وشبهها بعاصمة الامبراطورية البيزنطية لأنها «ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق».

وكان من الطبيعي أن تستقبل الموانىء والمدن الصليبية في الشام بعضاً من التجار المسلمين وخصوصاً من المغاربة الذين استعملوا البحر الأبيض المتوسط في تجاراتهم[3]، وقد أبدى ابن جبير دهشته لما رآه من تبادل تجاري بين الصليبيين والمسلمين رغم الحروب التي بينهم فقال: «ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين»، وقد كان لهؤلاء التجار المغاربة خانات خاصة ينزلون بها في الموانىء التي احتلها الصليبيون.

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة ص٣٥.

(٢) الرحلة، ص ٢٧٦.

(٣) المرجع السابق نفسه ص٢٧٤، ٢٨٠.

الحياة الاجتماعية

على الرغم مما كانت عليه المجتمعات الصليبية في المملكة اللاتينية ببيت المقدس من اختلاف وتفاوت وتعدد في القوميات، وعلى الرغم مما كانت عليه هذه المجتمعات جميعاً من الغلظة والقسوة والجفاء والوحشية التي اعترف بها المعتدلون من مؤرخي الحروب الصليبية من أمثال روبرت الراهب (التقي)، والكاهن أنكتيل، وسان برنار، وجروسيه، وجوستاف لوبون، ورانسمان وغيرهم. فمما قاله روبرت الراهب: «كان قومنا الصليبيون يجوبون ـ كاللبؤات التي خطفت صغارها ـ الشوارع والميادين، وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل... وكانوا يبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها الذهب، فيا للشره!!.. وكانوا يدوسون جثث قتلى تلك الجماعة الكبرى (يقصد المسلمين) التي لم يرض أحد من أفرادها بالنصرانية ديناً»[1]، وقد أشار إلى أن هذه الفظائع ارتكبت في المعرّة. ومما قاله الكاهن أنكتيل: «قلما كان صليبي يسير بوحي ديني، فلم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشية، ولا ضرباً من ضروب السلب والنهب أو الفظائع المزرية إلا اقترفوها»[2]، على الرغم من كل ذلك فقد حدث تطور كبير في جوانب من أخلاقيات هذه المجتمعات وسلوكها ـ بعد فترة زمنية غير قصيرة ـ وأمكنهم أن يتعايشوا مع أهل البلاد التي استولوا عليها، خصوصاً بعد ما تبين لهم أن المخدرات الإيحائية التي حقنتهم بها الكنيسة والبابوات ضد أهالي هذه البلاد

---

(١) Grousset; op. cit PP. 123, 209, 221

(٢) لوبون: حضارة العرب (مترجم) ص٣٢٥، ٣٥٣، ٣٥٧.

المسلمين لم تكن إلا وهماً، وبسبب تعصب أعمى، ومقت في قلوب البابوات ورجال الكنيسة بغيض، فأخذ هؤلاء الصليبيون ينزعون عنهم هذه الروح الخبيثة، وينفضون عنهم بعض هذا السلوك المشين، وشرعوا يتحولون في حياتهم المدنية إلى شرقيين، ونسوا أوطانهم التي جاءوا منها، ولم يذكروها أو يتكلموا عنها فمن كان منهم إيطالياً أو فرنسياً بالأمس، فقد أصبح اليوم جليلياً أو أنطاكياً[1]، نتيجة للحياة الرغدة المستقرة، ولامتلاكهم بيوتاً وقصوراً لم يكن ليحلموا بغرفة منها في أوطانهم، وإلى جانب ذلك فقد اطمأنت نفوسهم، وارتاح بالهم بعد زواجهم بنساء غربيات، أو سوريات، أو أرمينيات ويصور جروسيه[2] هذه الحياة بقوله: «. . . لقد أصبح الفقير منا غنياً، ومن كان لا يملك سوى دريهمات، أصبح ينعم هنا بثروة طائلة ضخمة، ومن كان لا يملك قرية، أضحى هنا سيداً لمدينة بكاملها، فلم العودة إلى الغرب، طالما الشرق يحقق لنا هذه الرغبات».

على أن هناك عاملاً آخر ساعد بالفعل على تقريب الشقة بين المسلمين والفرنجة، وزاد من أسباب التفاهم بينهما، بل أدى إلى هذا الاختلاط، وذلك التمازج، هذا العامل هو العامل النفسي لدى أهل البلاد الأصليين، لأنهم في مجموعهم كانوا قد فقدوا العزة القومية، وماتت فيهم الغيرة الوطنية، لكثرة ما تغير عليهم من حكام، وأصبح الأمر لديهم سيّان أن يحكمهم هذا أو ذاك، بشرط أن ينعموا بالعدل والاستقرار، ويطمئنوا على أرواحهم وأموالهم، وأن تكون لهم الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، وحقوقهم الاجتماعية. وكان ملوك الفرنجة ـ كما وضح فيما بعد ـ مستعدين لأن يوفروا لهم كل ذلك، في مقابل أن يخلدوا إلى السكينة، وينصرفوا إلى أعمالهم الزراعية، والصناعية والتجارية، وألا يشتركوا في قتالهم[3].

وقد لعب عامل البيئة دوره كذلك في ذلك التطور والتغير في أخلاقيات وسلوك الصليبيين لأنهم قد أغرموا بحب البلاد والمدن التي استولوا عليها، وأنسوا

---

(١) فارس: في تراث العرب، ص ١٦٦ وما بعدها (معتمداً على Fouché de Chartres)

(٢) Groussets; op. cit, I. P.387

(٣) Rey; op. cit. PP. 106–107 وكذلك القاش: العلاقات، ص ١٤٥ـ١٤٦.

إلى وداعة أهلها، وأحسوا بطيبة قلوبهم، واستقامة أخلاقهم، وتأثروا بجمال هذه البلاد الطبيعي، وبوفرة خيراتها، وطيب هوائها فنسوا تماماً أوطانهم التي جاءوا منها، ولم يعودوا يتذكرونها.

وقد دعتهم هذه الحياة إلى أن يعيشوا على النمط الشرقي في بيوتهم، وفي مأكلهم، وفي ملبسهم، فسكنوا البيوت ذات الأفنية الفسيحة، تحوط بها الغرف والقاعات، وتتوسطها نافورة ينطلق منها رذاذ المياه فيسبح في الجو ليلطف شدة الحرارة، ويشيع في الأجسام البرودة والراحة[١]. ثم فرشوا هذه البيوت والقصور بالسجاد والطنافس وزينوها بالرياش الفاخر، والمصنوعات الدمشقية، والأواني النحاسية المنقوشة.

كما لبسوا الثياب الشرقية الفضفاضة السابغة، ذات الأكمام الواسعة، والألوان الزاهية، والموشاة بخيوط من الذهب أو الفضة أو الحرير؛ واتخذت نساؤهم المجوهرات الشامية والمصرية لزينتها، واستعملن المساحيق والخضاب لزينتهن. ويصور لنا الرحالة المسلم ابن جبير[٢] حياة المرأة الإفرنجية في بلاد الشام في صورة حيَّة، وبشيء من التفصيل والشرح، موضحاً كل ما أخذته عن المرأة العربية من زينة وترف في هذه الحياة.

ويكفي للدلالة على تمتع الفرنجة بنعم الحياة في مجتمعهم الجديد بالشام، أنهم أقبلوا على ارتياد الحمامات إقبالا عظيماً، لدرجة أن بعض أمرائهم أفرطوا في الإقبال عليها، ولدرجة أن الراهبات تركن أديرتهن وارتدنها كذلك بكثرة، وخالفن تعاليم الكنيسة، ونظام حياتهن، مما دعا بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين لهذه الحياة إلى الاحتجاج على تصرف الراهبات[٣].

ويبدو أن ما نعمت به المرأة الفرنجية في الشام من حياة رغدة لم تتعوّدها، ولم تعرفها في موطنها الأصلي في أوروبا، قد دفعها إلى الإسراف الممقوت في

---

(١) حتي: نجمة الشرق، ص١٤٧.

(٢) الرحلة، ص٣٨٨.

(٣) Rey; op. cit, P. 62.

التزين والمغالاة في التبرج، غير مراعية أصول العادات الشرقية في هذا المجتمع، فأخرجها هذا التبرج عن حياة كريمة شريفة، وأبعدها عن دائرة العفة والفضيلة، وانغمست في الفسق والفجور، وتسلطت على الرجل الفرنجي، حتى أصبحت هي الآمر الناهي، ولم يعد للرجل من أمر، فأشاعت بذلك حياة الهوى والتبذل الرخيص، حتى ضج المؤرخون من تصرفاتها البذيئة، ووجهوا لها النقد المر، ووصفوها بما تستحق من صفات غير كريمة[1]. ويكفي أن نذكر ما قاله جاك دوفتري عن مدينة عكا، وحياة نسائها، فيقول: «كانت عكا من بين المدن الساحلية مكتظة ببنات الهوى اللاتي يجنين أرباحاً بما يلقينه من حظوة عند رجال الدين والدنيا على السواء»، «وقد اختصت عكا ببيع السموم والعقاقير المسممة، فكان الرجال يغتالون نساءهم، والزوجات يسممن رجالهن في سبيل عشاقهن»[2].

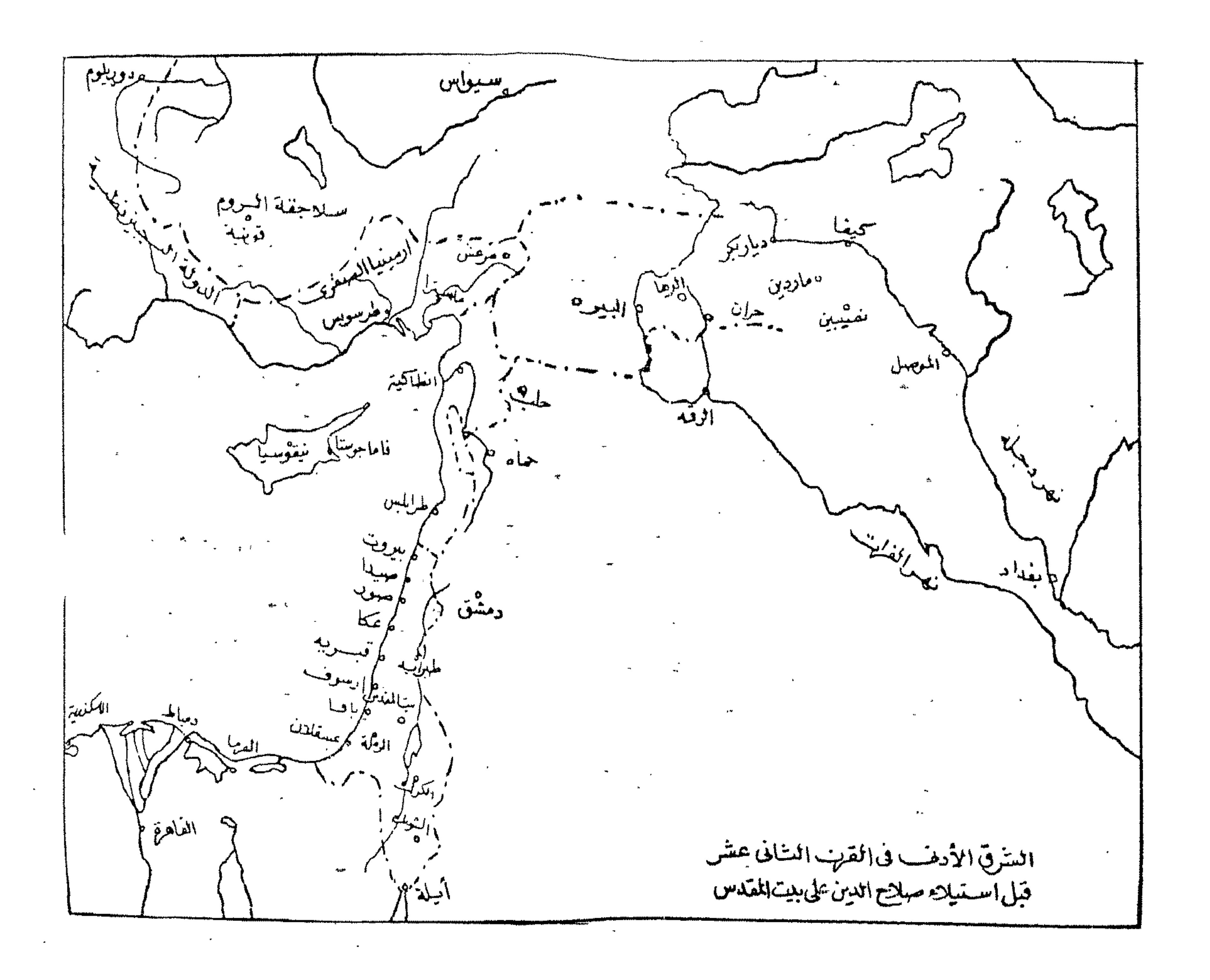
كما ظهرت في هذه المجتمعات عدة أمراض خُلُقية أخرى، مثل ممارسة الشذوذ الجنسي، وجلب نساء من غرب أوروبا، ومن جزر البحر الأبيض المتوسط للترفيه عن الجنود الصليبيين، فمما ترويه المراجع المعاصرة آنذاك أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا سنة ١١٨٩م أن وصلت في مركب كبيرة ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر (جزر المتوسط)، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة»[3].

---

(١) Grousset; op cit, II, PP. 326–328 and Vol III P.75 بيلي. حياة صلاح الدين،

(٢) ص٢٥-٢٦. Grousset; Ibid; III, P. 198

(٣) العماد الكاتب. الفتح القسي، ص١٨٤، أبو شامة. الروضتين، ص١٤٩، وابن منقذ. الاعتبار، ص١٣٢-١٤١.



الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر
قبل استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

فهرس المصادر والمراجع

أولا : مصادر ومراجع عربية :

١ ـ ابن الأثير : عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣

(أ) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣

(ب) الكامل في التاريخ دار صادر ــ بيروت ١٩٦٦

٢ ــ ابن أيبك الدواداري : أبو بكر عبدالله ت ق ٨هـ / ١٤

(أ) كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط بدار الكتب برقم ٤٦٤٣ تاريخ)

٣ ــ ابن بطوطة : أحمد

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) القاهرة ١٩٦٤

٤ ـ ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف هـ ٨٧٤/١٤٩٩

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ دار الكتب بالقاهرة (بدون)

٥ ـ ابن جبير : محمد بن أحمد الكناني الأندلسي ت ٦١٤هـ / ١٢١٧

رحلة ابن جبير دار صادر ـ بيروت ١٩٦٤

٦ ـ ابن الجوزي . أبو الفرج عبدالرحمن بن علي هـ ٥٩٧/١٢٠١

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ المعارف العثمانية حيدر آباد / الدكن ١٩٣٩

٧ ـ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ت ٨٠٨هـ/١٤٠٤

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر بيروت ١٩٧١

٨ ـ ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان صادر / بيروت ١٩٦٨

٩ ـ ابن شداد : بهاء الدين محمد بن علي ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥

(أ) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ دمشق ١٩٥٦

(ب) النوادر السلطانية القاهرة ١٣١٧هـ

١٠ ابن طباطبا : محمد بن علي بن الطقطقى
الفخرى فى الآداب السلطانية — القاهرة د بدون »

١١ — ابن العبرى : جرجوريوس بن أهرون — ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦
تاريخ مختصر الدول — الكاثوليكية / بيروت ١٨٩٠

١٢ — ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله — ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢
زبدة الحلب من تاريخ حلب — تحقيق سامى الدهان/دمشق ١٩٥٤

١٣ — ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم الحنفى — ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥
تاريخ الدول والملوك [جـ ١ تحقيق أحمد الشامى] ج جـ ٧ ، ٨ ، ٩
تحقيق زريق والجلاد

١٤ — ابن القلانسى : أبو يعلى حمزة بن أحمد بن علي بن محمد التميمى
ت ٥٥٥هـ/١١٦٠
ذيل تاريخ دمشق — تحقيق آمدروز — ط دمشق ١٩٥١

١٥ — ابن منقذ : أبو المظفر أسامة الكنانى الشيرازى — ت ٥٨٤هـ/١١٨٨
كتاب الاعتبار — نسخة مصورة / مكتبة المثنى — بغداد [٠٠٠]

١٦ — ابن واصل : جمال الدين سالم
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب [جـ ١ ، ٢] تحقيق الشيال
القاهرة ١٩٥٣/١٩٥٥ [جـ ٣] تحقيق سعيد عاشور ، [جـ ٤]
تحقيق محمد ربيع حسنين — القاهرة [٠٠٠]

١٧ — أبو شامة: شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسى ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦-٧
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين — الهيئة المصرية/القاهرة ١٩٦٢

١٨ — أبو الفداء : اسماعيل بن علي — ت ٧٢٢هـ / ١٣٣١ - ١٣٣٢
المختصر فى أخبار البشر — الحسينية / القاهرة ١٩٠٧

١٩ — أمين : حسين [دكتور]
تاريخ العراق فى العصر السلجوقى — بغداد ١٩٦٥

٢٠ — بروكلمن : كارل
تاريخ الشعوب الإسلامية [ترجمة نبيه فارس ،
منير البعلبكى] — ط . سابعة / دار العلم للملايين ١٩٧٧

٢١ - البغدادى : صفى الدين عبدالمؤمن عبدالحق ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨ - ٣٩
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع [تحقيق على محمد نبجاوى]
دار المعرفة / بيروت ١٩٥٥

٢٢ - بيلى : أحمد
حياة صلاح الدين الأيوبى القاهرة [٠٠٠]

٢٣ - البيهقى : أبو الحسن على بن زيد البيهقى المعروف بابن فندق
ت ٥٦٥هـ / ١١٦٩
تاريخ بيهق طهران ١٣١٧هـ

٢٤ - توفيق : عمر كمال [دكتور]
ا - الدولة البيزنطية الجامعية للنشر / الاسكندرية [٠٠٠]
ب - مملكة بيت المقدس الصليبية الاسكندرية ١٩٦٠

٢٥ - الجميلى : رشيد
دولة الاتابكة فى الموصل [بعد عماد الدين زنكى]
النهضة العربية / بيروت ١٩٧٠

٢٦ - حبشى : حسن [دكتور]
ا - الحرب الصليبية الأولى القاهرة ١٩٥٥
ب - نور الدين محمود والصليبيون » [٠٠٠]

٢٧ - حتى : فيليب [دكتور]
ا - تاريخ العرب [مطول] دار الكشاف / بيروت ١٩٤٩ - ١٩٥١م
ب - تحفة الشرق للغرب [الكتاب الذهبى] القاهرة ١٩٢٩

٢٨ - حسنين : عبد المنعم محمد [دكتور]
دولة السلاجقة القاهرة ١٩٠٥

٢٩ - الحسينى : صدر الدين على بن الحسين
أخبار الدولة السلجوقية لاهور - ١٩٣٣

٣٠ - حلمى . أحمد كمال الدين (دكتور)
السلاجقة فى التاريخ والحضارة - دار البحوث العلمية / الكويت ١٩٧٥

٣١ - حمدى : حافظ
الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى بغداد (٠٠٠)

٢٢ — خليل : عماد الدين (دكتور)
أ - نور الدين محمود (الرجل والتجربة) دار القلم / دمشق ١٩٨٠
ب - دولة الأتابكة في الموصل جامعة بغداد / ١٩٦٥
٢٣ — دائرة المعارف الإسلامية (ترجمة خورشيد ، عبد الحميد يونس)
ط ثانية ١٩٦٩
٢٤ — الديوهجي : سعيد
تاريخ الموصل في العهد الأتابكي (رسالة ماجستير) بغداد ١٩٥٨
٢٥ — زيد : أسامة زكي [دكتور]
الصليبيون واسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية
الهيئة المصرية ١٩٨٠
٣٦ — الذهبي : شيخ الإسلام محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧
تاريخ دول الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - القاهرة ١٩٤٨
٣٧ — الراوندي : نجم الدين أبو بكر محمد بن علي بن سليمان
راحة الصدور وآية السرور [ترجمة من الفارسية : الشواربي
وحسنين والصياد] القاهرة ١٩٦٠
٣٨ — الريس : محمد ضياء الدين [دكتور]
الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية القاهرة ١٩٥٧
٣٨ - زامباور
معجم أنساب الأسر الحاكمة
٣٩ — سامي : شمس الدين
قاموس الأعلام [باللغة التركية] استانبول ١٣٠٦ هـ
٤٠ — سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاوغلي ت ٦٥٤ / ١٢٥٦
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان المعارف العثمانية / حيدر آباد ١٩٥٨
٤١ — شلبي : أحمد [دكتور]
موسوعة التاريخ الإسلامي النهضة المصرية - القاهرة
٤٢ - الشيال : جمال الدين [دكتور]
مصر الإسلامية [خرمان] دار المعارف - القاهرة ١٩٦٠

٤٣ عاشور : سعيد عبد الفتاح [دكتور]
ا ـ الحركة الصليبية [جزءان] الانجلو المصرية ـ القاهرة
ب ـ العلاقات بين الشرق والغرب النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٧
ج ـ أوربا العصور الوسطى [جزءان] الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٧
د ـ مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك
النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٢

٤٤ ـ العريني : السيد الباز [دكتور]
ا ـ الشرق الأدنى فى العصور الوسطى النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٧
ب ـ الدولة البيزنطية النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٢
ح ـ مصر فى عهد الأيوبيين « « «

٤٥ ـ العماد الأصفهانى : عماد الدين محمد بن حامد ـ ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٣ - ١٢٠٤
الفتح القسى فى الفتح القدسى [جزءان] الحلبى ـ القاهرة ١٣٢٤ هـ

٤٦ ـ العمرى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله ـ ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨
كتاب التعريف بالمصطلح الشريف [تحقيق أيمن فؤاد سيد]
الاعتصام ـ القاهرة ١٩٧٤

٤٧ ـ العمرى : ياسين بن خير الله الخطيب
منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء [تحقيق الديوه جي] الموصل ١٩٥٥

٤٨ ـ فارس : نبيه [دكتور]
تراث العرب دار العلم للملايين ـ بيروت [...]

٤٩ ـ الفارقى : ابن الأزرق
تاريخ ميافارقين مصر ـ ١٩٥١

٥٠ ـ فرح : نعيم [دكتور]
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى جامعة دمشق ـ ١٩٧٨

٥١ ـ القرشى : محمد بن محمد بن القرشى
كتاب معالم القربة فى معالم الحسبة ط . كمبردج ٩٣٨

٥٢ ـ كرد على : محمد
الإسلام والحضارة العربية [جزءان] القاهرة ١٩٣٤ - ١٣٦

٥٣ ـ لوبون : جوستاف

حضارة العرب [ترجمة عادل زعيتر] دار صادر / بيروت ١٩٥٧

٥٤ ـ محمود : حسن أحمد [دكتور] ، أحمد الشريف [دكتور]

العالم الإسلامى فى العصر العباسى الفكر العربى ١٩٨٢

٥٥ ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١

أ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك الهيئة المصرية ـ القاهرة

ب ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « « «

٥٦ ـ ميتز : آدم

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى [ترجمة أبو ريدة]
القاهرة ١٩٤٠

٥٧ ـ النبراوى : فتحية [دكتورة]

العلاقات السياسية للدولة الإسلامية الأنجلو المصرية ـ القاهرة

٥٨ ـ النقاش : زكى [دكتور]

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج
خلال الحروب الصليبية

دار الكتاب اللبنانى / بيروت ١٩٥٦

٥٩ ـ هونكة : زيجريد [دكتورة]

شمس العرب تسطع على الغرب [ترجمة بيضون] بيروت ١٩٦٩

٦٠ ـ ياقوت الحموى

معجم البلدان [٥ أجزاء] بيروت ١٩٦٧

٦١ ـ يوسف : جوزيف نسيم [دكتور]

الأسباب الشخصية للحملات الصليبية [بحث بمجلة كلية الآداب
ـ اسكندرية ١٩٦٣]

73 — Enzylopadie des Islam. «2 Ausg.» 1969

74 — Gibb, Sir Hamilton R. :

— The Damascus chronic of the Crusades.
London, 1932

— Arabic sources for the life of Saladin.
Speculum, 1950

75 — Gottschalk, H.

Almalaik Al-Kamil von Egypten und seine zeit
Wiesbaden, 1959

76 — Grousset, Réne

Histoire des Croisades et du Roy, Francais de Jerusalem.
Poris, 1934

77 — Henn - am Reihen

Allgemeine Kulturgeschichte.

78 — Hitti, Philip

History of the Arahs (7 thed) London 1961

79 — Joinville, Sire

Mémaires of the Crusades (trans-by Franck Margials)

80 — Kugler

— Studien zur Geschichte- des Zweiten Kreuzzuges.
Stuttgart, 1866

— Geschichte des Kreuzzuga «in Oaken's Series».

81 — Lamens, H.

La Syrie, Précis Historique.

Beyrouth, 1924

82 - Lane-Pool, Slraelcy.

Saladin and the Fall of the Kingdom of Terus

London, 1926

83 - Le. Strange, G.

Palestine undes Muslims

84 - Lewis, Archibald. :

- Naval Power and Trade in the Mediterranean

A.D. 500 - 1100, - Princeton 1951

85 - Lewis, Bermard :

The Arabs in History, Oklahama, (...)

86 - Persian - English - Dictioary

87 – Rey, E

Colonies Franques en Syrie aux XII et XIII Si

Paris, 1883

88 - Rohricht :

- Gesdhichte des ersten Kreuzzuges, Innsbruck, 1901
- Geschichte des Konigbeihes Jerusalem, Innsbruck, 1898
- Geschichte des Kreuzzugo in Umrisse, Innsbruck, 1898

هذه المؤلفات من أسلم وأحسن ما كتب عن الحروب الصليبية.

89 - Runciman, Steven :

- History of the Crusades (3 Vols.) Cambridge, 1951-54

«trans. im Deutsch - Munchen, 1955»

90 - Raville, A. :

Die Kreuzzuge, Bonn, 1920

91 - Schlumberger,

Campagnes du Roi Amaury Ier de Jerusalem en Egypte.
au XII Siècle.

92 - Setton:

— The Byzantine Eompire

— A History of Crusades

93 - Stevenson, W. G. B ?

— Mediaevel History

— The Crusaders in the East' Cambidge, 1987

94 - Thompason

History of the Middle - Ages, London

95 - Vasiliev

A History of the Byzantine - ompire

96 - Von Kreamer, J.

Der Sturz des Koenigreiches Jerusalems - in der
Darstellung des Wisshaden - 1952

97 - Von Sybel,

Geschichte des ersten Keuzzuges.

98 - Wiet, Gaston

L'Egypte Arabe

99 - William of Tyre

History of william of Tyre (2 Vols.)